آني آنزيو

المرأة الأنثى

بعيدا عن صفاتها

رؤية اجمالية للأنوثة من زاوية التحليل النفسي

ترجمة : طلال حرب

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

المرأة الأنثى

الطبعة الأولى

1412هـ - 1992م

المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع

بيروت - الحمراء - شارع اميل اده - بناية سلام
هاتف ٨٠٢٤٢٨ - ٨٠٢٤٠٧ - ٨٠٢٢٩٦
بيروت - المصيطبة - بناية طاهر هاتف ٣٠١٠٣٠ - ٣١١٣١٠
ص ب ١١٣/٦٣١١ تلكس LE ٢٠٦٦٥ - ٢٠٦٨٠ - لبنان

هـذا الكتاب ترجمة :

Annie Anzieu

La femme sans qualité

Esquisse psychanalytique de la féminité

تمهيد

أليس من الممكن ، بفضل فرويد ورغماً عنه ، أن نتصور المـرأة بأبعادها الذاتية ؟ وهل هو خطر جداً مشروع إستخلاص صورة المرأة خارج المفهوم الذكوري المفروض علينا ؟ إنني لن أقوم هنا إلا بأن أضم إلى محاولات أخرى محاولتي تطوير فكر متصوَّر من المرأة ومن الأنثوي .

فهـل سيكون من الممكن تصـور المـرأة بـدون صفـة غـير صفـة النقصان ، لأن الصفة الخاصة بالرجل تنقصها ، وهي الصفة الوحيدة الممكنة ؟ المرأة هي النسخة السلبية للرجل . ولأن « علم التشريح هو القـدر » ، فهل سيكـون قدر من تكـون إمرأة حـرمتانـا من الوجـود والكينونة ، إنسانية هزيلة ؟ أيمكن أيضاً إنكار أنه إذا كان فكر المرأة مختلفاً أحياناً عن فكر الرجل فيما يخص بعض مزاياه ، فإنما مع ذلك مساوية له في القيمة ؟

إن تفرد المرأة هو في كونها مشكَّلة من باطنيةٍ خفية وخصبة . باطنية معرضة للاختراق والإيلاج ، وطبعٍ مختص بالعنصر الأنثوي ، ومصدرٍ للمتعة . وستكون العلاقة الخاصة للمـرأة بداخليتهـا مرئيـة هنا من جوانب مختلفة .

وسأعمل قدر المستطاع على تحاشي خطرين : تنظير يجـدد المنظور الذكوري لفرويد ، وفي المقابل ، الانزلاق في تيار نسـائي يؤدي إلى

إنكار تركيب المرأة ونتائجه البدنية المادية . إذن إلى إنكار المرأة .

إن القضيبانية الصارخة للرجل تجر الفكر إلى التشديد على اختلاف داخلية المرأة . الأمر الذي لا يقصي الرجل من الأنوثة . تماماً كما أن المرأة علامة على القضيبانية . إن الحواسية والاستيهامية تحددان توزيع الثنائية الجنسية . ولكن الحتمية الجسدية تحث المرأة على توظيفات متميزة عن الإيلاج في المرحلة الجنسية التناسلية . تميزات تؤثر في علاقتها بالاستيهامات الاضطهادية ، وبالتالي بميولها المازوشية .

إن نتائج التباين بين الألم واللذة في العلاقة الجنسية تختلف جداً عنها عند الرجل . إذ إن القدرة على الانفصال ينبغي أن تكون أكثر إكتمالاً عندها منها عند الرجل لأنه يتوجب عليها أن تسمح بخروج طفل منها بعد اكتماله ـ إنفصال الأم / الطفل الذي تحمي نفسها أحياناً ، في مواجهته ، بالجنسية المثلية . وكم من السمات المهمة البارزة لدورها البدني المختلف عن دور الرجل والقابل للتأثير في أشكال تفكيرها والتعبير عنه .

إن دور المرأة ، مضاعف فيما يخص الجنسانية : كل شيء داخلي ومخفي فيما يخص التمتع ، في حين أن الأمومة ، التي تنتج عنه أحياناً ، تظهر نشاط هذا الداخلي وتخرجه جسماً ـ طفلاً . مكان عبور إذن ، هي المرأة ، للرجل وللطفل .

أحجية التحولات في التجويف الأنثوي : استيهامات خلق العالم والألوهية .

إن أكثر الأحاسيس المبكرة ، أحاسيس الغيرة والذعر ، تبقى مرتبطة

بتصورات جنسانية المرأة . وهـذه الأحاسيس مصـدر تخفيض لقيمة الأنثوية مثلما هي مصدر أمثلتها . إن داخلياً سرياً ، مـوهوبـاً بقدرة الحياة والموت ، لا يمتلك القدرة على الانفصال عن استيهامات كلية القدرة والاضطهاد ، إنه مصدر السادية كما هو مصدر المازوشية .

إن المرأة المسجونة في مداها الغريزي الذاتي والتصورات التي يمنحها لها تفاعل الداخل مع الخارج ، تجهد نفسها لتقليل شعورها بالذنب لتشكل من ذاتها ومن فكرها صورة جديرة بأن يعبِّر عنها . إن الداخلية المميّزة للمرأة تعتّم « لا تكميد » حياتها النفسية . كما لو أنها تستبقي لها المدى الجسدي الداخلي حيث تكنّ الحياة ، أن قيمتها الوحيدة هي هذه الميزة في أن تكون بلا فكر . فالأنثوي لن يكون إلا مادة .

إدعـاء ، ربما ، أن نتـوصل لمخـاطبـة الأنثـوي . فـالكـلام الآن قضيبي . غير أن التحليل النفسي ، وفرويد هو الأول ، قد حمل النساء على الكلام . فكـل تجلٍ لليبيـدو « الأنثوي » لإغـراءات المعرفـة ، لإعلاءاتها ، ليس فقط إظهاراً لفحولة الهستيريا ، فعند هذا الحد ، كل تعبير للفكر سيصبح مِراضة .

ماذا يقال إذن عن امرأة محلِّلة نفسية . إذ يمثل الأنثوي هنا مكان الاستقبال والتوالد . ألن تكون المرأة إذن محمولة ببساطة كلية إلى هذا النظام ؟ إن هذا المكان نفسه قد عمل مع فرويد عندما بدأ الإصغاء إلى المعاناة الهستيرية والتحديدات المفروضة على الليبيدو عند النساء . إن عِظم قدراته على التواحد أتاح له الاقتراب من فهم ما للأنوثة . وحتى لو توجب عليه التراجع أمام المخاطر ، اللاشعورية أيضاً بالنسبة إليه ، التي خاضها إلى هذه اللعبة .

الكلام كمحلِّل هو غالباً كلام إلى الأنثوي : التأويل ، القضيبي بعنفه ، هو أيضاً ، وبكلام آخر ، صدى للإيلاج ، استحضار لجزء أنثوي من الليبيدو . أن يكون المرء محلِّلاً ، هو أيضاً ، كالأم ، معرفة الابتعاد ، إتمام علاقة أنضجت مودتها وألفتها المريض المعالَج . وأحياناً ، خلال جلسة أو تفكير تنبثق صورة ، ذكرى ، شعاع ساطع ، إستحضر فرويد نفسه غناه الشعري عندما تعلق الأمر « بمعرفة أكبر بوساطته للأنوثة » . وهذا هو حينئذٍ ما يمنحه الأسلوب من شكل لتدرجات الفكر وظلاله .

القسم الأول

امرأة

الفصل الأول

أن أكون إمرأة بعد فرويد

« [. . .] ولكنها من عالم حيث
أجمل الأشياء لها أسوأ مصير » .
مالارب*

مؤاساة لـ « دوپريه »

أنا إمرأة ولن أكون أبداً إلا ذلك[1] . زهو لكوني امرأة ، زهو لمعرفة - امرأة . زهو لبحثي عن ذاتي في الجب المضطرب بمعاناة الآخرين . فهل ستكون كتابتي حقاً شبيهة بي ؟ أي سر في ذاتي سيظهر ولم أكن أعرفه ؟ اللا شعور أو الأنثوي ؟ هذه الأنوثة التي نوقشت كحق قابل للنقاش . « كيف يمكن أن يكون المرء فارسياً ! ؟ »[2] ، أو كيف يمكن أن يكون إمرأة ؟ السؤال نفسه . الجهل نفسه .

بداهة ، لم يحل ، منذ الفلسفة اليونانية ، سؤال التعيين . « امرأة » لا تعني كلية الشخص ، بل « رابط دائم » « ينطوي على صفة من

(*) فرنسوا دو مالارب (1555 ـ 1628 م) شاعر غنائي فرنسي . فتحت إصلاحاته الشعرية الطريق أمام الكلاسيكية . (المترجم) .

(1) Lacordaire : « أنا كاهن ولن أكن أبداً إلا ذلك » .

(2) مونتسكيو: Considérations sur les causes de la grandeur des Romains et leur décadance. 30

السلبية ملازمة لهذا « التدليل »[1] مفهوم الأنوثة يمثل بالنسبة إلي ظاهرة إستكشافية .

والحال أنه « يقال بوضوح شديد أنه إذا كانت المثلثات تصنع رباً ، فستعطيه ثلاثة أضلاع »[2] . ويتصور الرجال المرأة ، ويجدون بسيطاً وسهلاً إخراج قضيب لها . ثم تستحضر هذه الرئاية إمكانية مقلقة : إنهم يدافعون عن أنفسهم ، على مضض ، بإنشاء نظري : إدعاء ، خصاء ، نقص . كما لو أن كون إنسان ما إمرأة خطأ ، مرضاً ، ميلاً إلى عدم الوجود . « لا أعرف ماذا أفعل بـ +++ الأنثوي » هكذا كتب فرويد إلى فليس Fliess في الخامس من تشرين الثاني من العام 1899[3] .

ولحسن الحظ حلم فرويد : بأمه الشابة ، بأخواته ، بأخوات زوجته ، بصديقاته وبعض بنات أعمامه ، وبالجميلة غراديفا . والأكثر حيوية فيه ، بدون أدنى شك ، الشعور بوجود عند المرأة يختلف عن غياب القضيب . غياب شهير يغطي ويموه القلق الهستيري . طريقة أخرى في الوجود اقترب منها ، وهو نفسه قلق ومشغول إلى هذا الحد أو ذاك بالإغواء والإشباع الجنسي . وإذا حضرت الثنائية الجنسية الكلية في ذاته بقوة بحيث تبينها في صداقاته الخاصة ، والتي توجب عليه لاحقاً تعويض ما تثيره من يأس بأبحاثه على الوسواسية . وسيكون مجحفاً عدم الاعتراف ، فيما وراء الاستياءات وانتفاضات التمرد التي تستطيع

---

(1) أنظر : **Bion W.R. Transformation** عند ورود اسم مرجع مع تاريخ الطبع راجع البيليوغرافيا

(2) مونتسكيو : المرجع السابق

(3) D. Anzieu 1987. p. 437

إثـارتها الحـدود التي فـرضهـا عـلى المـرأة ، كم كـان رحبـاً مـدى فهمه ،وتواحداته ، وكذلك صلابة دفاعاته وجدواها . وهل سيكون لغز الرغبة الأنثوية ، ومحرض الحصر عند الجنسين ، قريباً جـداً من الانهيـار العصبي ؟ وهـل سيصبـح الكـوكـايـين الحيلة التي تسمـح بالانفلات إلى الفطرة الأنثوية ؟ والحال أن بعضهم حاول إتباع فرويد في متاهة هذه القارة السوداء . مع إحتمال أن يجدوا أنفسهم في منعطف حيث كلام الأنوثة يصبح تحدياً للحقيقة . ولكن الحقيقة ليست موجودة إلا في اللاشعور ؛ فالكلام غير الأمين والمخـتزل ما دام رمـزاً يحصر الكائن في أقسامه المعقلنة وحدها .

إختلاف غير لائق ، من قبل النساء ، هي هذه المحاولة للتكلم عن الذات بصفتهن نساء . محاولة أولى عند عتبة وجود هزيل إلى الأبد . مثل الطِرس المكتوم بيأس تحت شطبات الحيـاة التي لا تحصى . نقل غامض . تأويل بدون تجزئة . إنزلاق الكلام ، كما تنزلق في لوحات أشر Escher الأشكـال من شكل إلى الآخـر . سوريـالية الكلمـة ، إنزلاق مرتجل في صورة التجربة المعاشة المتجمدة في الرجل . لا المرئي ولا المسموع يكفي لقول المرأة . فهي كائنة موجودة . وتسعى لتعلن إسمهـا . كائن بـدون كلمات ، ضعف الأنوثـة تجـاه القضيبـانيـة . « [. . .] وهذا اللغز الكائن فيك سيندهش من لغزي ؟ »(1) .

علامة رزينة للما لا أهمية له ، هذه الـ e « الصـامتة »* الخـاصة

---

(1) P. Valéry, **La Jeune Parque**, Prologue, Paris Gallimard, 1936.

(*) الـ e الصامتة علامة المؤنث في الفرنسية تزاد على الصفة المذكرة لتصبح مؤنثة لكنها لا تلفظ مثلاً جميل (joli) وجميلة (jolie) . (المترجم) .

بالمؤنث التي تستخدمها لغتنا أكثر بقليل مما تحسن إستخدامه . خانتها الكلمات في طبيعتها نفسها ، وخانها حتى الشاعر الذي تعاني رغبته من كونه ليس إلا رجلاً . كيف ننقذ الجمال ، شهوة الوجود ، إذا كان الجسد يحصر الروح ويحدها ؟ «[. . .] إذا كان كل ما هو طبيعي شرعياً . . . »[1] فإن صخر الطبيعة حيث يستند المثال الأعلى يحدد أيضاً الجميل في الانسجام العابر بين الجسد والفكر . « أنا سوداء ، ولكني جميلة »[2] .

ويعقّد الشاعر خيط الجمال ، مثلما يعقد المحلّل ما ينتمي إلى الأنوثة . « المرأة طبيعية إذن هي منكرة »[3] . خوف وارتجاف عند التقاء الكلمة بالشيء . طبيعة المرأة ، غيرية الشِقّي . غاية في الاختلاف بين الرجل ، الراسخ في إصراره القضيبي ، والمرأة ، المتجانسة دائماً في غيريتها المزدوجة : مختلفة عن الرجل في كليتها ، مختلفة عن نفسها ذاتها بتغيراتها الشخصية . مختلفة في الآن ، علامة الزمن،الحياة التي تجري ،إيروس* (Eros) قاهرتاناتوس** (Thanatos) .

(1) Ch. Baudelaire, «Mon cœur mis à nu» œuvres complètes, Paris, Gallimard, «La Pléïade», P. 679.

(2) العهد القديم : Cantique des cantiques, Ancien Testament

(3) شارل بودلير . المرجع السابق .

(*) إيروس : إله الحب في الأساطير اليونانية ويشبه من وجوه كثيرة إله الحب عند الرومان آمور Amor أو كيوبيد Cupid . وكان في أول أمره إله الحب بين الأصدقاء ويصوره القدماء شاباً رائع الجمال . ويمثل في عمل النفس غريزة الحياة . (المترجم) .

(**) تاناتوس ابن الليل وتوأم هوبنوس (النوم) . يعيش في العالم السفلي ويطالب بأرواح الموتى . فهو إله الموت . وكان يصور في هيئة محارب مدجّج بالسلاح أو هيئة رجل عار يحمل سيفه . ويمثل في علم النفس غريزة الموت (المترجم) .

ويتأسف فرويد لقصر النظر الذي يفكر به الأنثوي . وكان يبدو فعلاً أنه ينتظر من النساء المحلّلات إضاءة أكثر توافقاً مع نظريته عن الليبيدو ومع فرضياته عن الجنسانية الأنثوية : كرفع للرقابة ، وللـ Verneinung حيث كان يشعر أنه مسجون ، كشق في « الغشاء السميك » . إن الاعتراف الواضح والجريء بلا يقينياته عن الحياة النفسية للنساء[1] لم يؤدِ به مع ذلك إلى حد الأخذ بأفكار لو أندريا (Lou Andréa) ، أو ماري بونابرت (Marie Bonaparte) أو هـ .دوتش (H.Deutsch) رغم أنه يمتدح كتاباتهم في المناسبات . ومع ذلك لم يكن يتجاوز أبداً حد احترام الغيرية ، كما تجرأ على قول ذلك لاكان (Lacan) : « [. . .] زميلاتنا ، السيدات المحلّلات [. . .] لم يعملن من البداية على تقدم قضية الجنسانية الأنثوية »[2] .

وسيكون تفوق الجنسانية محفوظ للأسياد . أي معنى يمكن إضفاؤه على لفظة « سيدات » في علاقتها بلفظة « نساء » ؟ إحتشام ؟ ملكية زوجية ؟ أو ببساطة هيمنة مدعية من رجولة الفكر ؟ أو أيضاً خوف من أن يؤخذ بعين الاعتبار نمط من التفكير مختلف عن النمط الذكوري ؟

إن تواضع فرونزي (Ferenczi) وبيون (Bion) الرزين في موضوع الداخلية ، ربما يقترح على « السيدات » الإذن بالتفكير على طريقتهن . إذن هل سيكون النموذج القضيبي النموذج الوحيد للفكر ؟ وحينئذٍ

(1) أنظر بعض الاستشهادات من فرويد في :

Françoise Dolto: «La libido génitale et son destin féminin» 1960, Société française de psychanalyse (non publié).

(2) إستشهد به L. Irigaray عام 1977 .

يمكن التوصل إلى معرفة هوية المرأة إذ يستبعد منها المركبات والمتعة ؟ ان هذه الهوية لن تعرف نفسها إلا في الكائن المرأة .

يتعلق الأمر بشيء بسيط أقل مما يتعلق بكلية تجربة معاشة . فنموذج الـداخلية ، الأنثـوية ، حتى لـو لم يكن إلى الآن موضـوع نظريـة ، يستطيع ، وفق رأيي ، تقديم جواب ممكن لبعض الأسئلة المطروحة من قبل جوهر الأنوثة . إن هدفي ، في العمـل الحالي ليس مـواجهة القضيبانية بالداخلية . بل تغيير تمثيل علاقاتهما بواسطة التعرف عـلى نوعية الأنثوي ، الذي ليس في الحقيقة إلا نوعاً من التفكير مشتق من وجود المرأة . قضية مهمة لأن تمييزاتها تبني الجهاز النفسي منذ العمر الأكثر إبكاراً .

ولا يجب أن يؤدي هذا النموذج إلى فكرة أن كل شيء يرجع إلى الأساس السجلي . إذ ان الداخلي الأنثوي ليس مجرد رحم . ليس أكبر من القضيب للمرأة ، فهذا الداخلي ليس فعلاً غريباً عن المعاش وعن كينونة الرجل . ليس كـل شيء واضحاً جـداً . وإذا كان فـرويد ، بمساعدة فليس (Fliess) قد أدخل في بنـاء الجهاز والعمـل النفسيين المفهوم ، البيولوجي رغم ذلك ، للجنسانية . وهذا رغم أنه تصدى له في تحليله الذاتي ، ثم في تجاربه العلاجية .

ومن الممكن إعتبار الأنوثـة كنمطيـة لحياة المرأة النفسية . نمطية جوهرية إذا سلمنا بأن علم التشريح محدد للإحساس الجسدي ، مهما استسلمنا لقدرنا الجنسي . نمطية توجد جزئيـاً لدى الـرجل ، سـواء أكانت ترددات تستمـر في الحتمية البيـولوجيـة ، أو كان بنـاء الجهاز النفسي يتـأسس على التعقيـدات المتـماثلة لأشيـاء الحب الأمـومي أو الأبوي . فليست الأنوثة إلا فعل الولادة بوساطة فرج المرأة . وهذا

تصور يخفي مجموعة من المؤثرات ، من الطرق الانفعالية ، المرتبطة بتقديمات فضاء الجسد الداخلي ، بالرغبة في الحَمْل وباللذة النرجسية في أن تكون ممتلكة كموضوع حب .

إن كتابات فرويد عن الجنسانية الأنثوية تجعله يستحق جيداً رد اعتباره لدى النساء . وقد جرت أفكاره ملاني كلين (Melanie Klein) إلى التمييز بوضوح بين التطور النفسي للفتاة وبين التطور النفسي للولد بدءاً من الأوضاع الأولى المثيرة للحصر والقلق . ومن بين اللاحقين لها ، بيون(Bion) وهو ذاك الذي كامل بشكل أفضل تجربة الشعور الجسدي بمحاولة التنظير النفس تحليلية للحياة النفسية ولبناء الفكر . والواحدة والأخرى ، ينبغي الإشارة إلى ذلك ، قد أخذا جيداً بعين الاعتبار الملاحظات المستمدة من الذُهان والتطور المبكر للفرد .

هل سينبغي أن نقول إن بدء عمل الأنوثة سيجر تشكيل الأنا من جانب تقلب حدودها ، من الكفاح ضد جنون العظمة ومن الصعوبة الأساسية لسيرورات الانفصال ؟ إن الشعور بالذات يقيم شيئاً فشيئاً ما من المناسب تسميته الهوية ، الشقية والجنسية(1) . تجربة تأخذ معناها بدءاً من المعطيات الحواسية التي تبذلها البيئة للقدرات البنيوية للصبي والتي ستوثقها اللغة .

لتصوير اللحظات الأولى من الحياة النفسية ، فرانس توستان (Frances Tustin) تقترح تعريفات ونظرية اللاتميزية الانطوائية . فالمعاني معادل لـ « وضع » ، بالمعنى الكليني* للفظة ، سابق لأوضاع

---

(1) أنظر Stoller . ترجمة J. Mac Dougall ، 1983 .

(*) نسبة إلى Melanie Klein (المترجم) .

كلينية وقادر أيضاً أن يكون مدرج فيها . وفي هذه الرثاية ، يستطيع تشوش المعاني الأولى ، في رأيي ، الارتكاز على المعاني الجسدي المرسّخ ، بالمعنى السببي ، بفضل البيئة . إن اللعب الديناميكي للإسقاطات ، التواحدات ، الاستبطانات ستؤدي شيئاً فشيئاً إلى التفريقات الجنسية .

وبشكل غريب ومثير ، وعبر مسالك فكر تبدو متباعدة جداً ، إنضمت فرانس توستان إلى فرانسواز دولتو (Françoise Dolto) حول المفهوم الأولي لصورة الجسد ، كأساس للهوية الجنسية . وما تدعوه ف . دولتو « لقاءات المرحلة الفمية ، والشرجية والبرازية مع موضوع اللحظة الليبيدي »هو بالتأكيد أكثر تأخراً بكثير في التطور النفس وظيفي من « الإحساسات المصورة » التي تشكل الآثار الأولى للهوية الجسدية لدى ف . توستان ، وتبدو له أساس الهوية النفسية : الإحساس يتشكل . والهوية الجنسية ، سواء أتعلق الأمر إذن بالمصير الليبيدي ، أم تعلق بالآثار التي تركتها الإدراكات الحواسية الأولى ، ترسو على صورة الجسد .

هذا المفهوم الذي أمدنا به پول شيلدر (Paul Schilder) ظهر بعده ، وبخاصة في كتابات المحلّلات ـ النساء . نتيجة للعلاقة الضيقة التي تنشئها المرأة بين مظهر جسدها المرئي الواضح ، القابل للتحول وبين المعاني المكبوت : عاطفة ذات ثقل داخلي مقنع و / أو مكشوف بالصورة المرآوية ؟ إن نقطة الانطواء الأكثر باطنية ، الأكثر خرساً ، الأكثر جهلاً ، ربما هي تلك النقطة حيث يُعَبّد الأنثوي . ويظهر العصاب عندما « لا يتشكل كنتاج » هذا العامل الأساسي للشخصية

(ب . فاديدا P.Fédida) ، وفق المعنى الذي تمنحه إياه البيئة العائلية المؤسسة لشروط التمييز الجنسي .

وإذا كان السلوك ، كما أشار إلى ذلك بيون Bion بعد فرويد ، هو تعبير الكائن الذي ، هو نفسه ، مصدر الفعل ، ينبغي الاعتراف بأن الرجل بحتميته التشريحية موجه نحو الفعل ، التحطيم ، الخارج . حصره وقلقه هو في قدرته على التصرف . وعلى النقيض من ذلك إذا حُدِّت الرتابة في العلاقة الجنسية ، تصبح المرأة مادة للذة الرجل ، وللإشباع الضروري لهذا الرجل للشعور بهويته الرجولية وتأكيدها . « المرأة ـ المادة » رغم الاحتجاجات التي قد تثيرها هذه الصورة في معناها المحدد ، ليست فقط تخفيضاً للذكوري المحوري . إنها صورة جزئية وسطحية للمرأة الشيء ، التي تشارك برغبتها الشخصية النرجسية في الجاذبية والفتنة . إن المرأة مقدر لها أن تغوي وتفتن ، وليس لهذا تتوصل إلى الإشباع الحبي .

وبالمقارنة مع تعبيرية الرجل العضلية ، البارزة جداً في المراهقة عندما تختلط بالبحث الجنسي ، يمكن القول إن لدى الفتاة « الأشياء تحدث من تلقاء نفسها »، في الباطن، تحت غلاف جسد تكفي تغيّراته المرئية لتسميتها امرأة ، وأحياناً رغماً عنها عندما لا يتبعها تطورها العاطفي منطقياً .

إنها في جهة العتم ، جهة حفظ الحياة ، جهة العمل الذي لا يُرى . والإدراك الحسي الذي تطلقه هو إدراك الغلاف الجذّاب لمحتوى مبهم ، إن لم يكن لفضاء انتظار . وحصرها إذ يُصف إلى جانب الإنتاج

الشهواني ، ومادية الحياة ، وعبء التغذية ومصادر المتعة ، يصبح عدمَ اعتراف بالقدرة على احتواء ، بشكل جيد ، فكر مجرّد والنشاط النفسي الذي تحدثه الرغبة في ولد مطلوب ومشتهى . وحينئذٍ سيكون الأنثوي اختصاراً للأنوثة . اختصار مصون بقدرة التفكير بشكل مجرد ، أكثر اختصاصاً بالذكوري لأنه مبتعد عن المادة . إعلاء للفعل مدعَّم بالوجود الذي استبعدت منه المرأة نسبياً بواسطة الصورة الاجتماعية التي نتداولها عنها . وهذه الصورة تختصر جنسانية المرأة بتحديدها في شكلين فعالين : الإنجاب ، الذي يجعل مفهوم اللذة الجنسية عديم الجدوى ، والبغاء ، الذي يفسد هذه اللذة ويلغيها .

إن الرجل يفتتح سلطته ونفوذه بامتلاك المرأة وإخصابها . لكن التنظيم الأنثوي لا يؤمن لهذا الفاتح نجاح تواصل لذته . من هنا إهمال هذا التقسيم ، وينبغي التسليم جيداً بأن الخطوة قصيرة وسهلة . إن النقص في التوافق الجنسي يحمل في ذاته نتائج ثقيلة لتحقق المرأة الليبيدي ، وهي مصدر أو نتيجة لمراضتها العقلية . في هذه الحالة ، يطلق عدم قدرتها على التحكم بلذتها ووجدانها نفسها إبانها في أغلب الأحيان سلبية أكثر مما هي إيجابية ، شكلاً من الحصر النفسي الأنثوي بشكل خاص . وبعض هذا الحصر النفسي يعود الى أن المرأة أكثر قرباً من رفضها . من عدم قدرتها ، من واقع جوهرها الداخلي . وإن الصعوبات التي تناوىء تطورها الليبيدي وتطلق مراضة الجنسانية ، تظهر بوضوح شديد هذا القرب من ذاتها .

إذن إن المرأة مدفوعة إلى السماح بتصغير الأشكال اللطيفة لحياتها الجنسية والمتعة المتعظة لصالح الوظائف المكملة للأمومة . ويحل

وضوح الحَبَل لبعض الوقت محل الرغبات غير المشبعة من قبل الرجل . إذن إن النرجسية التناسلية تضم وتخفف الثغرات المعاناة على مستوى النرجسية الجنسية بشكل دقيق . وعوضاً عن الشعور بأنها محبوبة ، وأحياناً أن تحب رجلاً ، ستحب أم المستقبل طفلاً وستشعر أنها محبوبة من قبله . إن الوسائل العلمية الحالية الموضوعة بتصرف المنجبات المتعاظمات تمنحهم حتى وهم أنهن لم يستطعن إبعاد الرجل من رغباتهن .

وعديدات هن النساء اللواتي يفلتن هكذا ، إلى حين من الانهيار العصبي الذي يلاحقهن . فالولد الذي لديهن والولد الذي تكنّه مقدر لهما الواحد والآخر انفصال مؤلم جداً . وتشارك مشاغل صيانة المنزل العائلية والخاصة بالتغذية ، حتى المختصرة ، أيضاً في هذا الشكل من الحب الذي يسهم في تدبير الحياة وحفظها . ولكن الإنجاب ليس سعادة المرأة ، إنه سعادة الأم ، والبرهان على اختلاف جديد . إذا كان واضحاً جداً أن الأنوثة لا تختزل إلى أمومة ولا إلى إنجاب (هذا ما سمّاه كريستيان دافيد Christian David « الأنثاوية ») ، ولا إلى الانتعاظ المهبلي ، فليس بأقل وضوحاً أن الأنثوي يتضمن الأنوثة . وإذا اتفِق ، كما قلت ذلك أعلاه ، على أن الأنوثة ليست إلا وضعاً للكائن ـ المرأة ، ستكون المرأة كائناً يضم مفهومه الأنوثة والأنثاوية والأمومة .

إن الأنثاوية تستدعي في الآن نفسه صور المخترقية والسعة . ولا تنفصل كذلك عن إستيهامات الإدخال ، والإمتلاك ، والاختناق والقدرة القاهرة للجسد ومع ذلك الفحلة . إذن مفهوم يقترب من مفهوم الثنائية الجنسية بواسطة إستحضار القدرة الكلية التي تثيرها .

وقد يكون لغز الحَبَل مصدر جاذبية لهذه القدرة الكلية أو مصدر رعب لهذا « الفراغ غير المحدود » الذي ، وفق ج . ماك دوغال ، تصله الأم بالمستقبل الهستيري .

اللحظة

إمرأة . أن تكون امرأة ، ببساطة امرأة . ليس سهلاً جداً . أمٌّ ، بكل تأكيد ، وإلا ماذا ؟ عاهرة ، طبعاً . إنجاب أو لذة الذكر ؟ بين كل هذا ، الفتاة الصغيرة التي تولد فتاة يتحول جسمها . الفتاة الصغيرة التي سبق أن تشوقت بدون أن تعرف إلى ماذا ؟ المراهقة التي تعرت جديدة ، التي تشعر بالصيرورة ، التي تجرؤ أن تحب . التي تنتظر حياة آخرٍ . الحياة التي تحتويها في شكلها المشوق ، الحياة التي تتفجر من غلاف جسدها .

أن تصبح امرأة . عبور إلى الحب ، عبور إلى الرجل المشتهى . من الرجل الذي لن يكون فعلاً محبوباً إلا إذا كان هذا العبور مصدر لذة ، ولن يكون إلا قليلاً .

لحظة هشة . توقيف شامل للأنوثة . نجاح غير مؤكد لصيانة شعلة . كل الأمام ، كل الخلف معقود في هذه اللحظة . هناء أن تكون فتاة ، وسعادة أن تكون أماً .

الفصل الثاني

إندماجات

الخارج / الداخل

إن الدفء الأساسي غير محسوس إلا بالحرمان المحتوم . سواد الداخل . صدى محمرّ . التحرك المعانى ، الشرس ، الملحّ . الكل الذي يثير ويقلق ، يتقلص ، يستدير نحو ماذا ؟ الطرد من الحياة الذي يتحقق بأية لهثة مصروخة ؟ أي فضاء متوقع للغلاف الواهي المخترق من كل جانب ؟ ركام الجسد المذعور والرخو ، الرطب والحار . الفراغ الجديد للعموم من دون سائل . الاقترابات المتصلبة لأجسام غريبة ، للهواء الذي يفعم ، للضجة التي تجتاح ، للضوء الذي يغلف . الصرخة التي تحرر . الألم الذي ينزلق على السطح كصدفة دبقة : ملامستها تعطي للجسد شكله . بعض الأشياء تتحدد من داخل منسي مسبقاً الى داخل معاش ، بدون خارج أيضاً . الحاجة العنيدة غير المشبعة آنفاً ، الجديد المعانى ، الصيرورة المقلقة . لقد وُلد الطفل .

الحصر الأول : الحاجة ، الوحدة . النزاع الأول : القوى الحية والفوضوية التي تتخبط فيما بينها نحو نظام عامل . الجسم العضوي يواجه استقلالاً سبق تأمينه ، وينضج في جسد الأم المكتمل . الجسم المحرِّك يجهل نفسه وينام ، باستثناء الحنجرة المردّدة والضاجة ، والهياج اللامجدي المتغشي في الأعضاء . الجسم الرقيق يندهش ، ويتفجر دورياً

ويفكر ملياً . الجهد هائل ومنهك في جمع بقايا الخارج في الداخل . نواة صغيرة باطنية تدور حول ذاتها ككبة غزل تتضخم بالخيوط في كل دورة ، مشدودة جيداً حيناً ، وحيناً تسمح بإفلات الكومة الجديدة المتكاملة بوهن جهد الولادة ، ألم متقاسَم مع الأم لانفصال الواحد عن الآخر ، هو ربما النموذج المبذول لجميع تطورات الكائن البشري . إستقلال جسم الطفل ، ما أن يقطع الحبل السري الذي يبقيه في الجوف المغذي ، يمثّل بدون شك الصيرورة النفسية والاجتماعية لهذا الطفل .

من بين كل الكلمات التي تفيض حولنا ، والراغبة في قول قلقنا البسيط في العيش ، بعضنا مع بعضنا الآخر ، تعود بقوة الكلمات التالية : استقلال الأنا ، ذهان ، تبعية .

إن العمل التحليلي الصعب الذي تبيّنته م . كلاين يقرّبنا من فهم أكثر حدة من أنا جنينية . رضى / خيبة ، حب / بغض ، سعادة / غيظ ، مواجهات مستمرة في الرضيع الذي سبق أن أظهر التعارض الجوهري للكائن .

إن الرد النبيل والسمح للأم على صراخه هو الذي يهدىء قلق المولود المطرود حديثاً من الدفء الرحمي . الرد الوحيد من ثدي مرضع سيعطي معنى لهذا النداء المطلق من باطن الرضيع ، وسينشئه ولداً رجلاً عبر تكاثر جسده المجهول من ذاته نفسها .

أيمكن تخيل الاعتراف برغبة إذا لم يكن غالباً وغالباً راضياً عند طلبه ؟ إن المسيرة الأساسية نحو تكامل التجربة المعاشة لا يمكن أن

تكون إلا إيجابية . وإبطال مسيرة مماثلة يولّد انقطاع الامتلاء والفراغ ، واسماً هذا الأخير بالموت . إن الاستمرار الليبيدي في مستقبل الـولد ينتج عن التعمير الداخلي عند كل رغبة مشبعة .

في ضروب الكبت الأولى ، الرغبة غير المشبعة تنضم بدون شك إلى حصر الولادة : غياب جـذري لباطن منتج للحياة . ويبقى داخـل الذات فارغاً مثل الخارج بعد الحياة الرحمية ، تختلط واحدهما بالآخر . اختبار أساسي ومبكر للموت . حياة مفرّغة في اليائس الحـانق لعدم القدرة على الوجود ، الغوائط الموظفة في الإحساس بإفلات قليل من كثافتها الباطنية .

الطفل ، الضعيف والمحتاج ، يكرر طلبه ويشعر بأنه يحيا عبره إذا أجيب عليه في أغلب الأحيان بالحصة المهدئة . وهل سيكون للكبت أسباب في الوجود قبل أن يتمكن الأسى من الدخول في مـوازنة مـع الإشباع الأساسي ؟ إن الطفل يجد بسرعة في ذاته ، وبشكل عفوي ، المصادر الموقتة الملطّفة لحاجاته . وتهدهده اللذة المتوهمة لفترة بالوهم ، إذا كانت اللذة الحقيقية قد سبق أن أفعمته . ويحمله وهن العالم المحيط به على إدراك نفسه في جسمه المتعطش ، وينفصل بعض ذاته من هذا الكل الناقص ، ويضعه على مسافة ، يضمه في خواء متسع للتأثرات الأولية . جسدي هو أيضاً داخل ذاتي .

وتسلّمه اللاأنا إلى فم متشوق إلى الامتلاء والشبع ، في الوقت نفسه الذي يُهـدهـد الكائن كله ، ويهتـدي بواسـطة شبه أنـا الى الحركـة والحرارة ، الوحيدتين المعروفتين قبل الحاجة .

إن الغـلاف ـ الجلد السريع العـطب يعيد التـماس الموطّـد الذي يؤسسه دفاعياً . والفتحة ـ الفم ، المحقق بواسطة السائل الممتص ، تفقد رعب الحاجة المقلقة ، الممثلة للفراغ ـ الموت ، الثقب في طمأنينة الأحشاء خارج التشنجات الجائعة . اكتشاف دائم للمخلوق الصغير جداً ، واحد من تمثيلاته الأولى للذة أو الحرمان . والإمكانية البدئية للتفريق بين مصدر هذه اللذة والجسد الذاتي . ولأنه مدمّر باستمرار من جراء الهجر المعانى بعد بـطن الأم ، فهو مثبت بـاستمرار في الشـك بالوجود بواسـطة الهبة الأمـومية . لكن الغيـاب الموقت لهـذه الهبة ، الحرمان الباطني ، يولّـد الوعي بهـذا الباطن كـما هو ، منفصـل عن موضوع الرغبة الذي يفعمه ويرضيه ، متحولاً إلى جزء من ذاته . تماماً كما كان في كليته ، جزءً في جسم أمـه ، ويشعر أنـه مصدر لذتهـا وموضوعها ونتيجتها .

وحوالى العام 1750 تخيل كونديّاك (Condillac) تمثـالاً يتولـد في إدراك الحواس . فرائحة الوردة التي بوساطتها يظهر الفيلسوف الحياة الحواسية لهذا التمثال ، تتوجه الى رد حاسة الشم ، لأنها ، من بين جميع الحواس ، الحاسة التي يبـدو أنها تشارك بـأقلّ قـدر في معارف النفس البشرية . « فليس لجسم التمثال وظيفة إلا حاسة الشم ، ولا لذة إلا رائحة الوردة . ومع ذلك وصف كونديّاك بأسلوبه نظاماً مماثلاً للعمـل النفسي الـذي نفـترضـه اليـوم : « فـالـرأي ، والتفكـير ، والرغبات ، والأهواء إلخ . . . ، ليست إلا الإحساس نفسه الذي يتحول بشكل مختلف » .

وأبعد من ذلك ، إن الطبيعة منحتنا أعضاء لتنبهنا بوساطة اللذة الى

ما ينبغي علينا البحث عنه ، وبوساطة الألم إلى ما ينبغي علينا الفرار منه . ولكنها توقفتْ هنا ، وتركت للتجربة مهمة حملنا على اكتساب عادات وإكمال العمل الذي بدأته .

إن الشعر التحلفسي* سيجدنا ميالين اليوم إلى اختيار النرجس أكثر من الوردة ، لكي نصوّر التجربة الأولى التي تخيلها كونديّاك . ولكن قرنين مرّا وأعادا التفكير بالأحداث مع فرويد . فالنرجس هو الزهرة التي تبقى باستمرار في كل واحد منا كرائحة ثمينة وهشة . إنها تطوي على ذاتها نظرة القلق والحصر وتبحث عن تطمين ذاتها بأن شيئاً لا يوجد خارج جسدها وذاتها .

أن يُرغب جيداً في إطلاق اسم رغبة أو ليبيدو على ما يظهر عندما ينقلب البشري نحو عمق ذاته . ودائماً من أجل روي عطش النرجس الذي يتأمله ، يطلب بعضه مع ذلك من الآخر الخارج عن حدوده اللحمية والجلدية . بالصوت ، والرؤية ، واللمس وحاسة الشم ، يشكل الإنسان من جديد ، وباستمرار ، صورته الخاصة . ويتكامل جدل الداخل / الخارج بواسطة النظام لذة ـ ألم ، أنا والآخر ، حتماً وبدون انقطاع . ويحمل النوم نفسه للحالم استمرار هذه الإوالية التي تؤسسه .

(*) التحلفسي Psychanalytique أي التحليلي النفسي . وقد نحتناه من (حلَّل نفسياً) ، جزءٌ ناهجين فيه طريقة القدماء الذين نحتوا حوقل من جملة ، لا حول ولا قوة إلا بالله للدلالة على فعل قولها . ويعطينا هذا النحت فعلاً هو (حلفس) أي حلَّل نفسياً ، ومن هذا الفعل الجاري مجرى الأفعال العربية يمكن إشتقاق كل الكلمات المتعلقة بالتحليل النفسي La psychanalyse (المترجم) .

ولم يكن المفكـرون يقبلون ، في عهـد كـونـديّـاك ، أن يعـرفـوا أنفسهم ، ويعترفوا إلا في امتلاء حياة راشدة وعقلية . وقد تخيل هو نفسه جسماً ونفساً طاهرين من أية تجربة . ومزايا العالم الخارجي منتمية بشكل خاص إلى هذا . ولم يعد إلى المصدر الطبيعي للحياة ، إلى ولادة الجسم نفسه ، ولم يمتلك أيضاً فكرة أن هذا الجسم وهذه النفس كان لهما آنفاً ماضٍ عندما سلمتهما الأم إلى أحاسيس البيئة الخارجية . ومع ذلك كان مرامه مماثلاً لمرامنا : إيجاد كيفية تشكل الداخلي في الكائن البشري ، عواطفه ، وفكره ، إنطلاقاً من المعطيات التي كانت في البدء غريبة عنه وخارجية ، والمعطيات الأخرى التي كـانت فطريـة فيه ، وعضـويـة ونفسيـة . إنـه يـرتـاب رغم أننـا لا نـولـد راشـدين ولا « فارغين » ، مثل تمثاله ، ولكنه لا يتصوّر علاقـة العالمـين الخارجي والداخلي إلا على المستوى النوعي للـ « تقديمات » .

إننا نولد بجسم عضوي عامل منذ فترة سابقة وجهاز نفسي بالقوة . وسيكون ظالماً وغير مجدٍ لوم عـالِمنا النفسي عـلى عدم إنجـاز مذهبـه التجريبي قبل أن يحين موعد ذلك .

إن افتراض « معنى واحد » للتمثال هو رؤية عقلية تغض النظر عن كلية الإنسان الحقيقية : فالموضوع الخارجي الذي يحدث الإحساس ، شعرية الوردة ، واحد من الحقائق التي تصبح شيئاً فشيئاً جزءا متمّماً من الحقيقة الخارجية للذات التي يكونها الطفل . ولكن يمتزج بها ما يحدث اللذة ، التي وصفها كونديّاك بالفكرية . مـاذا لديهـا من ممتع رائحة الوردة هذه ؟ التأثـر الأولي المرتبط بهـا ، الحقيقة الـداخلية ، استعادة للتداعيات السعيدة لماضي التمثال . فبدون الماضي أيستطيع

التمثال تقدير عطر ممتع أو كريه ؟ إنه لا يمتلك معايير للذته إلا مقياس استحضار هذا العطر ، علاقة داخلية ممتعة في بيئة وفي ذاتها .

كتلة واضحة وغامضة في استداراتها الصلبة والضبابية . ومنغلقة جيداً على ذاتها ، منذ الأزل ، حافظة لمجانساتها الداخلية حتى النواة الصغيرة العميقة المنتجة من ذاتها : اللعبة الأم . صورة البحث الداخلي ، الظاهر : المطابق لذاته ، للفارق القريب ، منفتحاً على ذات أخرى حميمة . خارج مصقول وملون ، مطمئن بصلابته المتجانسة . طمأنينة الابتسام ، لغز الداخلي الغامض تحت السطح بغير خشونة .

كل شيء يمكن تخيّله : تفاصيل توالداته الداخلية ، المتعدّدة والمتماثلة ، المدمجة بشكل مثالي ، المتنوعة في المظهر ومن دون تغيّر مقلق . ففي هذا التجويف المفتوح بواسطة ، أستطيع أن أرى أن آخذ وأرجع ، أفرغ وأملأ . بدون خطر ، حتى آخر بذرة صلبة ، شكل متماثل ، بدون فتحة . لم يحدث قط شيء آخر ، إلا التحقق الممكن بشكلٍ حصري دائماً والمشابه لنظام الداخلي . دمج مغلق ، محدود ، طيبه مغلقة مجدداً على المعروف المطمئن . لا منافسة ، ولا عاصفة في هذا الجسد بدون حركة ، بدون أعضاء ، بدون زائدة فطرية ، أعضاء مقعرة يستقر فيها الآخرون ، كل واحد يؤمّن للتالي مكاناً مريحاً ، متطابق مع حدوده الشخصية . فلا نزاع . ولا خطأ .

ولكن النواة المركزية ، الحاملة الصغيرة جداً للإكمال والإتمام ؟ هناك يبدأ البحث المقلق . هل تخفي فتحتها ؟ بماذا تحتفظ ؟ من أجل من هي هناك ؟ هي « ممتلئة » . لا تجويف . لا شيء بعد . اللغز فيها غير

محدود . وخطر اللايقين المهدد المتوعد . بالرجوع القهقرى ، يمكن إعادة تشكيل كل واحدة أكثر اتساعاً ، أكثر ضخامة ، وأكثر إرعاباً . الوصول الى هذه الأم ، الضخمة ، والملغزة . بماذا تحتفظ خلف ابتسامة وجنتيها الورديتين ؟ إنها تطلب الثأر الحاسد من محتوياتها المرضِية والمتعددة ، الغيرة من هذه الخصوبة الهادئة المنجبة في ذاتها . عدم فتحها ، الحذر . إنه فخ الإغواء بواسطة السعادة الهادئة للأمومة المكتملة ، للمرأة الممتلئة ، بالصور والأطفال ، بالعوالم المرغوبة وغير المعروفة .

يلعب الولد بالدمية الأم : يفتح ويغلق ، يسحب واحدة ويضحك من أخذها ، يعيد الأخرى ويسيّج الجميع في هذه الأم التي تهدهده بحنان بين ذراعيها . بوساطة الحقيقة الحواسية تعبر الرموز ، العيون والأيدي تهدىء الحصر النفسي في الباطن الأمومي . ويقوم الملجأ الذي تقدمه القشرة الملونة بإحياء هناء ما قبل العالم للطفل ، وحتى لو ، في كل هذه اللعبة ، ظهر أحياناً الحصر النفسي العابر من مفاجأة ممكنة : fort und da .

ويجد المعالَج المتمدد كذلك ، قرب المحلِّل ، الوهم الأمومي الانكفائي . المخيف المنغمس في ذاته ، حيث العالم الداخلي سينكشف . وسيعثران فيه على الأمور المرعبة والحلوة اللطيفة ، الموضّحة بلا انقطاع ، والمعاد دمجها نحو الخارج . والمحلِّل ، الشكل - الدمية الأم الذي فيه يرمي المعالَج ويستعيد دميات فراغه . إعادة إنشاء مرممة لكل صورة ، أكثر كمالاً وحزماً .

ألسي Elsi عمرها سنتان ونصف . ولأن لديها رهاب منذ وقت

مبكر ، خضعت لعلاج في غرفة مجاورة ، وأمها ، بقربي ، تحاول استعادة جسدها ، الذي ألغاه إثم رغباتها غير المسكّنة . ذات يوم ، ظهرت ألسي فجأة عندي : لقد أتت لتتحقق من أن أمها هنا فعلاً ، وحيّة . وبرهن لي مظهرها الضائع وحديثها القلق، بشكل واضح ، الطمأنينة التي جاءت تبحث عنها في فضائي . في ذاتها ، أمها ماتت ، مقتولة من الحسد . وكل مواضيعها الداخلية تحتشد في جسد دمية مقطع كانت تمده لي بلا يقين الأمل :. « أصلحيه سيدتي ، بشكل جيد من أجلها » . ثم التصقت بأمها . وكانت الأم والطفلة المتجمعتان في المكان نفسه ، تستعيدان في هذه اللحظة الدخول الممكن لجسديهما الواحد في الآخر ، في الرحم الخصب والمعاد اختلاقه في الفضاء التحليلي . فما وراء الانتها المعلّل لهذه اللحظة ، كانت اللذة العفوية تجمعهما ، متحدرتين الواحدة في الأخرى .

إن تشوش الداخلي /الخارجي للمعاش عند حافة غابته تتحدد شيئاً فشيئاً بنقاط حادة : المعابر تتحول . ولأن الجسم الكلي ماض هو نفسه ، فقد عانى داخل / خارج الأم ، محفوظاً ومنزلقاً خارج الثقب الحار .

إن الإدخال المطلوب للثدي يهب حياة ، والحياة لذة عندما يستعاد الحار المنساب في الباطن من نسقه المنظم نفسه. ويستقر الإيروس عند حافة الشفاه . على سطح اللسان ، في البلعوم وفي تشنجاته الملطّفة . إن إنزلاق الحليب في الفم ، والحلمة في اللثاث يجمّع في نقطة واحدة إمكانية إعادة خلق باطن شهواني مثل ذكرى ذاك الباطن حيث كان الجسد يعوم . وتسعيد حاسة الشم وتقرب الحضور الأمومي والطعم

المغذي . وتتوقف الحياة على هذه التجربة الأولية للرضى المنشود عبثاً أو المحصول عليه . وينتشر الألم بسرعة في كلية الانفغار غير المشبع للفم والغريزة المولودة مجدداً بيأس عاجز : الصراخ والغضب تحل في الحلق المختلج محل الدفء المهدأ بالشبع والامتلاء .

في الجسد ، لا يوجد الإيروس إلا عند عتبة الداخلي حيث تدوي كل لذة عضلية أو سطحية . ويضاعف اللمس والإمساك مرحهما . وكل قطاع قابل للإثارة الجنسية ، بدوره بواسطة السيرورة نفسها ، من السابقة التي تُضعِف وتضم ، تأخذ حياة وشكلاً خاصاً . إن وحدة التجربة تتجمع في أنا : هذا الذي ينزلق في جسدي بمخارجه الراغبة ، يعطيني امتلاء . هذا الممتلىء جداً أيضاً الذي يفر ، غائط ، بول ، قيء ، وصراخ ، المرمي في اللذة المقلقة للتسلية ، يتركني بشكل غريب بكراً ومجددة .

قريباً ، يحشد الولد في الكلام آخر نمط للعبور بين جسده والعالم .

لقد ركّب البشري على نحو يجعل مصيره أن يكون مخترقاً بالعالم الخارجي : لنعترف بحق كوندياك في أن يتخيله إذاً مسلّماً إلى الإحساس . فالحواس البشرية هي بقدر منافذ مفتوحة على التطفل كما على اللذة . والغلاف نفسه العائد للجسد ، الحسّاس كله ، يسبب إمكانية ثقب مقلقة . وإذا كل الخارجي يمكن أن يكون لذة ، الكل كذلك يمكن أن يكون خطراً ، والداخل يجتاحه المعتدي . وتمتزج الجدلية الحواسية مباشرة بالمعاش الداخلي لدى الرضيع ، لتشكل الاستيهامات الأولى . ويتطابق المعانى الحشوي مع المعانى الحواسي ، ينضاف إليه ، يخلط المدرَك والمرغوب ، بالحس والجسد الشديد .

والشاب البالغ ، الممتلىء في عضلاته ، الممتلىء في بروحه الفاعلة المسؤولة كل يوم ، يقوده الحب إلى استعادة الجدلية الشهوانية للمعابر من جسد إلى الآخر . وتحيّر التقاءات الأجسام الرجل والمرأة ، الأم والأب ـ الطفل ، وتجمع في ذاتها كل مشتت في جسد الآخر .

العودة إلى الحالة السابقة الموجودة في الأنا ، كما افترض أفلاطون سابقاً ، محرض نفسي وفق فرويد ، التأمت الدائرة على اللذة ، أو على الجحيم . اللذة والحصر يتلامسان عند كل تنفس .

جحيم الذهان ، جحيم الجسد المثقوب في حدّه المتروك للعدائية الدائمة المتدفقة من الأعضاء والأشياء . جسد مخترق من كل مكان ومهدد من كل المنافذ الطبيعية في رغباتها نفسها . فالذهاني هو سان سباستيان يحييه بلا انقطاع صدم السهام، نفسه، السهام التي تقتله . غلاف ممتلىء بالألم العضوي ، باللارضى الفارغ للحاجات ، بموضوع لذته نفسه . من كل فتحة من جسده يبقى ممكناً الخرق ، والاغتصاب والإفراز المميت والمستنفد للمادة الحية : « ما أعتقده عنك فظيع . وسيخرج نخاعي من عيني ، وأذني ، وأنفي . أنت تقتلني بمحادثتي . حتى لو كنت لطيفةً . لا يستطيع الداخلي الوقاية من اللطيف . أنت لا تعرفين كيف هو هناك . هذا متأخر جداً » وبضربها الصدر والرأس اليائسين ، تتقدم هذه المراهقة التي فقدت الشهية للطعام نحو الرغبة عبر انهيارها العصبي .

ولكن بالنسبة لآخرين إن اللذة الراضية تنزلق على الجسد وبالحاسة : شمس ، موسيقى ، عطر ، غذاء ، ونعومة العيش وإذا كان الجسد في ذاته يعمل ببساطة ، فإنه يتوصل إلى « هذا القسم من

الإيروس الملتفت نحو الموضوع » (فرويد) .

بخلاف اللمس الذي يخص الجسم كله ويحدث قدرة التحرك ، فإن الحواس قد تكون أولاً مكان الغزو . الشم ، السمع ، الرؤية تتنبه عند الولادة ، وحتى حوالى السنة ، لا يبدو الطفل مميِّزاً الداخلي في ذاته من الخارجي ، إنه يميّز ، في حوض ملوّن ، أصباغاً مختلفة أكثر مما يميّز أشكالاً . عالم ذو تدرجات لونية حيث الأشياء ليست إلا صوراً لونية ومتحركة غير محددة بخطوط وأحجام . وهكذا يبشر صوت الأم الطفل بالحضور الذي يجمعه إلى هذا الكثيف الملون . إنه مخترق بالمعطيات الحواسية ويسمح لنفسه بالامتلاء . ويرى نفسه مدرِكاً . فيتعرف على الرائحة ، والصوت ، واللون . ويجمع هذه الاحتكاكات ويجعله مجموعها واحداً . وفي بعض الأشياء من كائنه يتنظم اللا ـ أنا الذي يجابه أثناء كشف نفسه هذا المدرِك الآخر الذي سيكون أنا .

لقد أسعدنا أن نكتشف في كتابات هذه الجدلية ، المستخدمة على نمط قريب جداً من التحليل . إذ تتبادل السيرورات ذات الحساسية الخارجية والسيرورات ذات الحساسية الداخلية بناءهما الدائم لبناء الذكاء والشخص في الآن نفسه . ويتركب البشري من الخارجي الى الداخلي إلا إذا كان ذلك من الداخلي إلى الخارجي .

لقد طلب الملك داوود* ، الذي يلاحقه أعداؤه ، من الله مساعدته . ووصل سريعاً أمام مدخل كهف يخفيه نسيج عنكبوت .

(*) داوود: ملك إسرائيل (نحو 1015 ـ 975 ق . م) قاتل العملاق غولييت ومؤسس القدس .

واجتاز داوود النسيج واتخذ ملجأ في التجويف الطبيعي . ووصل الأعداء سريعاً ولكنهم وجدوا الستار العنكبوتي مشكلاً من جديد أمام المنفذ ، ماحياً كل شك بعبور حديث لقد أنقِذ الملك وحُرِّر . ومثله ينغلق نسيج اللاشعور أمام الرغبات ، تاركاً إياها تغيب عن الوعي في صحراء المكبوت . فداخل الأنا ، البشري مسجون ، معزول عن العالم الخارجي ، عن الأخطار الأخرى والمتشوقة . ففي عمق هذه الأنا المتوحدة المنعزلة يسترد الألوهية النرجسية والمحررة للقلق والحصر . وتنسج إلى الأبد ، حشرة الأنا العليا خيوطها الحامية بين الأخطار الخارجية والأنا ، وأيضاً بين الغرائز الجنسية المقلقة والأنا ذاتها . وبلا إنقطاع يستقيم التوازن بين القانون والرغبة ، بين العالم الخارجي الذي يقسر ويهدد ، والعالم الصغير الداخلي للكائن الحي . إن الأغلفة المتعاقبة تخفي في نواتها النهائية برعم النرجس المزهر .

إنني متحررة في حصر العيش ، ولا أكون كذلك إلا في هذا التأمل المستحيل لأنا مسترد في حمى الكهف الأمومي . باطن مغلق على باطن : عدة إلى ينابيع الحياة التي يستطيع الموت أن يصبح صورتها .

لعل فرويد، كاتب فيما وراء مبدأ اللذة ، قد يؤسس هذه المحاولة لاسترداد باطن ممكن لجسده الذي كان يشعر بداخله العدائي والقابل للانجراح يتجزأ ويتلاشى عندما تنبجس فيه الحقيقة الوحشية .

الاهتداء إلى الله ، في عمق كل منا ، في النار العميقة . ملجأ خيالي للداخلي المنظم أخيراً خارج متناول التعديات . مسجون وحر : أنا ، وحيد ومحصور ، ولكن حائز على القدرة المسخرة للأنا العليا ، أنا مرمّمة

لـلاشعور بـلا نهاية ، حـرفي ثروات مخبـأة خلف النسيج العنكبـوتي للكبت .

هنا ، اليوم ، لا يوجد داخلي . هذا الصمت . . . أنا لا أنام . أشعر أن لا شيء هناك . لا مدرَك ، لا كلام ، لا عضوي . الجهد ذاته ، لأكون حسَّاساً بجسـدي الخاص الحـار على الـوسادات : لا شيء . أنا ؟ سائل الحياة غير محسوس لأنه يمضي وحده ، منظماً جيداً ، بلا رائحة ، ولا لون ، بلا رائحة . ولكن إذا فتحت عيني ؟ مستعيداً الداخلي في الخارجي .

التعرف على المكان ، تذكر أنني موجود .

جيد بملجأ ، في اللاشعور ، المكبـوت . منسي من الأنا عمـداً ، موضوع « جانباً » ، لا أستطيع بعد أن أكون ضائعاً . سر عميق ، سر أقل شمولية من مجاملة الأنا لا يتركها تفهم .

المحلّل الفاضح ، مرآة الخارجي : إنه يعكس صورة ، صدى . ذاك الذي ينظر يرى نفسه من الداخل ، مع نظرة آخر . وهم المرآة الذي يبقى على السطح ويغلق السر على ذاته .

من أين المضي نحو الباطن ؟

بالإغواء . الصورة التي ينشئها المعالَج ، بمهـارة ، بقلق ، لذاتـه وللمحلّل المرآة . الصورة المصلَحة بلا إنقطاع للمحاولات الخجولة أو الجريئة . صورة الذات ، بقايا من المثـال مختلطة بأجزاء من الدنيء الخسيس . أيها سيتغلب ؟ إغواء المحلّل أو فتنـة سره ، من الجانب الآخر من المرآة . السر الحقيقي .

« لقد أحبطت وأوقفت الإغواء . كل ما كنت أقوله كان يحتوي على روعة مخصصة لك . لقد رددت ببساطة جملتي . هذا لم يخترقك . أنت لم تقع داخلاً » .

ولكن داوود دلف داخل الكهف . لماذا يختبىء ؟ المحلِّل والمعالج بينهما سر . خلف الغشاء الشفاف الذي نسجته الحشرة ، كل امرىء يجد نفسه وحيداً مع لا شعوره . في باطن خادع ومطمئن ، حيث يحتمي الأكثر سراً . ألن يكون هذا كذلك بين هذه العنكبوت المجاملة والمهدِّدة ، وذاك الذي تحميه بكل خيوطها ؟

إن اللحظة الأصلية ، المرئية عبر أية مرآة ، مودّة جانية يعمل المحلِّل ، مثل مريضه ، على إعادة بنائها . عدم القبول بامتناع السر . الكلام الهادي ، المماثل للصورة بل مسافة ممكنة ، يطلق بالخارجي الباطن الذي لا يطاق . هناك سر ، محبوب ، بلا نقطة مناسبة : تصور وحَبَل مشتركان لدى المحلِّل والمعالَج . متراكمة هي المواضيع الخيالية والأغذية المكوِّنة للكائن المتحدر من تصوراته .

ويصبح مكتب المحلِّل الجسم الذي نسعى ، كلانا ، إلى إحياء الحقيقة الخيالية لتصورنا فيه . وإذ نتعرف في كل منا بالحشوي والمتذكر ، يحدث أقاربنا مجدداً فينا لغز رغبتهم المنجبة ، مشهد أولي معاد إبداعه هنا ، في هذا المكان المفضل الممتاز الذي تسمح لنا به ، في كل منّا ، وبيننا . وضع من الأريكة إلى المقعد المريح ، تعريف مكاني لكلينا ، منضجاً أشكاله الباطنية نحو الميلاد التأويلي .

كيف المضي إلى الداخل ؟ بالسرقة أم بالاغتصاب .

خلف النسيج ، وحده معي . المعالَج وحده مع أناه ، مناقشة متواطئة ومتعددة الأبعاد . ينغلق الباب عليه وعلي . خلف الباب : وحيداً في جسم الأم المعاد إنشاؤه . فضيحة ومخاطرة للرغبة المتعرف اليها حتماً .

تعرية الباطن ، العثور فيه على مواد الرغبة ، إبعاد النسيج للدخول ، الرؤية ، الأخذ والفهم .

« لقد حلمت ، قالت لي امرأة مرتكبة هفوة ، أنني كنت آخذ كل الثياب من منزلكِ » . كانت تريد بتسميتها التحف .

وقال رجل : « أكره التحف . إنها غير مجدية ، إنها تقلقني ، سأرميها كلها عندما أرى بعضها . أحب غرفة فارغة وعارية . أشياء من زجاج . . . . زجاج ـ إناء ـ مهبل ـ الأشياء تجعلني في حالة غضب ، حالة غضب منك . . . كنت أود أن أكون ولداً وحيداً » .

خلف شكله الظاهر ، يحافظ كلانا بأمانة على العلاقة الثمينة بداخله ، نعرض على مرآة المحلِّل المحايدة الباطن المتنكر : « اللباس قناع : يناسبني جيداً بشكل محز » . بحيث إنه يكشف ما يخفي : الخزي . وتحت الخزي ، أكثر عمقاً أيضاً ، المحاولَة السارقة للرغبة : « أنا أسرق ، قال لي شخص آخر ، الحلويات في المحلّات . أخشى أن تجدها لتوك في أناي » .

غلاف شهواني واجتماعي ، ثياب من اللحم أو من الصوف ، غطاء محبوب وواقٍ من العدائي . الذي منه المحلِّل . تهديد مخيف من الباطن المخترق ، المثقوب، الممزق ، الممطوط . نحو الكنز الموارى في أكثر

الأماكن عمقاً ، النـواة الدميـة الصغيرة جـداً . التي لا تقسم ، ولا تستبدل . المادة النهـائية لـلأنا ، للحيـاة ذاتها . في المكـان التحليلي يتلاشى الملجأ الحميم ، والمناسب كذلك . كثافة معتمة متمردة بتحد مرتد على اليد المشينة . معرّاة ، نعومة اللوز المقشر ، التي قد يقطعها المحلِّل . « كانت أمي تتطلب تبرجاً خاصاً تتفحصه بدقة ، على كرسي الحمام . . . خفت دائماً من الحوادث يتعرض لها أولادي . كما لوَ أن هذا الخوف كان ينبغي أن يرى مع اغتصاب باطني من قبل أمي . إنها « تلامس » أطفالي في نفسي ، وتستطيع تدميرهم ، أخذهم مني . كما أخذ منها أخي الميت . . . . أتيت هنا آملة إيجاد أم تصلحني من هذا الاغتصاب » .

والأخرى ، عبر دموعها ، المعبّر بها وحدها منذ أسابيع : « حوالى السنة الثالثة عشرة ، كنت أشكو من إمساك حاد ، وكانت أمي تضعني أيضـاً عـلى المبـولـة . . . . و . . . . كـانت تتحقق ، كـما أعتقد ، من عذريتي . . . وعندما وصلت إلى هنا استعدت شيئاً من هذا . . . . » .

إن عهود القابلية للانجراحُ تكشف بقسوة بالمعاناة المجزّأة . لذة في الأثيم نحو ولادة مفترضة . حَبَل شفهي ، تذكر غير قابـل للانتهـاء للذات وللآخر .

تحت جلد المخمل ، قد تكون الثمرة مرة أيضاً . وحدة من الكرة ، والأسف ، وتـأنيب الضمـير ، مقبـول بهـا بصعـويـة بقـدر مـا هي مرفوضة . بناء مزعج للفضاء غير المحـدد . مستند إلى ذاتـه فقط ، بالآخر ، اقتراب وئيد خطوة خطوة ، كلمة كلمة . دمية أم متجددة في

لا نهاية الداخل اللاشعوري ، مغلقة ثانية على سر الذات ، ومفتوحة لسر المعالج . خبز يومي للمحلِّل .

* * *

پاندورا* الضاحكة ، النظرة ، الأذن و . . . . اليد ، معلقة فوق علبتها اللغزية ، في لحظة لمسها ومعرفة تحدي النواهي الإلهية . أقل ضحكاً ، ولكن ليس أقل حشرية ، مستبدلة وظيفة اليد بوظيفة الكلام ، أشعر أنني نوعاً من پاندورا أمام كل معالج . ليس فقط القادم الجديد الى عريني ، واضعاً تجاهي على المقعد الشعائري كل متاعه الباطني وزيّه الخارجي الجلي ، الذي ما زلت أجهله . ولكن كل معالَج عائد إلى كل جلسة . ماذا سيخرج من هذه العلبة ذات الشكل البشري ، القريبة مني والغريبة في الآن نفسه ؟ أي هبوب سيندفع إذا سحبت قليلاً أيضاً هذا الحبل الذي أمسكته من غطاء لاشعوره ؟ سينبغي علي التقدم معه ، محروسة بماضي الشخصي ، في هذه المتاهة المشكوك بها عند الانطلاق فقط .

إمتلاء الجلسة
امتلاء المعالَج
فراغ الانتباه العائم
المعالَج الذي يملأ أذني
لاشعوري مع صداه

(*) پاندورا المرأة التي خلقها هيفست انتقاماً للآلهة من الجنس البشري بسبب تفضل پروميثيوس عليهم بالنار . وقد أعطيت پاندورا علبة فتحها رغم تحذيرها فإذا بجميع الأمراض تنساب منها لتصبح قدراً مسلطاً على بني البشر . (المترجم) .

معالَج لا يطرد الآخر ؛ إنهما يتكاملان ويحلّلان أنفسهما في ذاتي . وسريعاً أحدهم سيبنى ، في مكان الجلسة ، بين هذه الحيطان الأربعة الصغيرة ، هذه الأريكة ، هذا المقعد المريح وهذه الأشياء ، علبة الجواهر حيث يتمنى أن يرتب أمام عيني الجواهر التي يستخرجها من فمه . مكان مترف هو مكتب المحلِّل ، مكان فضيحة كذلك . من هناك ربما نحن إثنان ، وواحدنا للآخر حتماً ، في هذه العلبة حيث ستعصف كل الرغبات وكل أنواع القلق والحصر . وضع ناعم وشائك ، بحده جرحنا أنفسنا للتو لأن في الخارج سيجتاحنا إعصار المستحيل ، إعصار الوقت ، إعصار السرعة ، إعصار الفعالية .

إن **الوجود الحلفسي** (Psychanalytique) يحتوي إذن منذ البداية على داخلي . ولا يرى هنا تلميح مفرط الى هذا الداخلي الذي يمكن أن يقدمه اللاشعور . فالجزء الأول من هذا الوضع ، هو ربما لا شعور الداخلي . فداخلي المكان ليس إلا خارجي الممكن تحليله ، خارجي الوجودين الواحد مع الآخر : خارجي الوجود وداخلي التملك .

هل سأتوصل إلى أن أشرح لنفسي ما يخص هذا العرض ؟ اللعب الكلامي للتحليل النفسي ، سواء استقر على الوجود أو أن هذا الوجود يتعلق به ، أو بالاثنين غالباً ، هو دائماً جدلية . لأن الكائن البشري في نهاية المطاف له حتماً داخلي وخارجي ؛ ولكن ماذا يوجد أولاً ؟ البيضة أم الدجاجة ؟ بعض الجهد الذي يمكن القيام به لتحقيق أمنية خلط كلينا من جديد دائما في سبيل هناء وهمي ، لن يتوصل إليه إلا بالولوج إلى الموت أو إلى أغماط من الذهان . وقد واجه فرويد دائماً الأنا ـ اللذة ، بالأنا ـ الواقع ، وكان التركيب منهما صعباً لأنه يتضمن الموت .

مثل هذا الولد الانطوائي ، بدون كلام ، كل ابتسام ولطف ، الذي يندهش عند قدومه من الحديقة حيث تمطر بغزارة ، لعدم سماعه أو شعور أيضاً في غرفة اللعب ، القطرات على مظلته أو على وجهه . بالنسبة إليه ، الداخلي لا يبدو بعد قادراً أن يكون إلا الخارجي ـ رفاهية التمييز أولاً رفاهيته . إن الفصل لم ينجز ، ولم توضع الجدلية قيد العمل . فوجودها نفي للحقيقة: لا يوجد أنا ، ولا أنت ، ولا الآخر . الكل في واحد وهو لا يوجد ، معيناً بغلاف محدد ، بحدود من الإحساس ، من التملك ، من الكلام . إنه داخلي / خارجي منتشر ، بدون ألم ، بدون رغبة . إنه يبقى غير منفذٍ (مشمعاً) كما لماء السماء ، لوضع المحلّل . كما لو أن رغبة المحلّل ، المتروك ليدرك نفسه لما يرغبه حياً وآخر ، لم تكن تقدر أن تكون إلا في مطلق مدوّخ ، راسخ . هذا الولد قد خرج إلى الأبد من ذاته ، توارى في ما وراء لا شعور بلا روح .

ماذا يفيد إذن بالنسبة اليه القانون الذي يحترمه في بعض أشكال الإطاعة ، والنظافة ؟ إن لم تكن الرغبة ، المدرجة في كل لحمه ، في العيش رغم الجميع ؟ لكن لا شيء إلا اللحم ، رغماً عنها ، القريب جداً من مخاطرة الموت بدون معاناته جيداً .

من جدلية الداخلي / الخارجي الى جدلية الحياة / الموت لا توجد « خطوة » قط ، لا يوجد إلا إنزلاق مستمر . وهذا الانزلاق ، أستعيده في الهدوء القلق لحجرة عملي كمحلّلة . هناك ، لا يعود الوقت هو الذي يعلق طيرانه . محلّلة ، أرى الآخر في ذاتي ، ليس بصبر ، مع رغبة . ببساطة ، أريد أن أراه في ذاتي ينبت من تلقاء نفسه المسيجة

أيضاً في القوقعة غير المثلومة للاشعور رهيب .

خلق الوضع الداخلي للمحلِّل ، سأعلق ظهور رغبتي . وسيتوجب عليّ مواجهة هذه الإزالة للذاتية التي يفترضها التحويل : إستعادتي في الأب المهين الخسيس ، الأم المنحرفة برقة أو القاسية بإفراط ، الإخوة المتقمّمون من منفذ مستحيل للحب وكثير من المسوخ الآخرين أيضاً ، المسجونين فيه من خلال مريضي . ولكن مهما كانت القشرة ، قد تكون الثمرة لذيذة . و ، داخل ذاتي ، المحلِّل ، انتظار نضج هذه الثمرة الغريبة يسلمني إلى نفوذ الصبر والآمال ، إلى العنايات اليقظة كما إلى أكثر الانفصالات تحرراً .

في مصفاة فكري حيث تلتقي رغبتي ومعرفتي ، أكلم نفسي بنفسي : نصف التحويل خلاصتي . وهكذا أعلن رغبتي ، إلى ذاتي الخاصة ، وإلى كل هؤلاء الذين يعرفونني محلِّلة معهم . الرغبة التي تخصني أنا أولا بقوة : من خلاله أعيد خلق هذا الآخر ، هذا المعالَج ، في مكان ما من ذاتي حيث أكون مشابهة له . فبواسطته أجد ، برؤيته يحيا الآخر كل مرة جديدا ، جزء جديداً من أشيائي المهشمة ؛ بقايا أثرية تقودني ملاذ متدفقة إلى حشدها . لا أستعيد إلا في ذاتي ، في ما وراء الآخرين والكتب ، إعادة البناء هذه ، بوصة بوصة ، لداخليّ يتصل بداخلي ، مرتقياً ببطء نحو مصدر الحياة . وصوري تحتشد حول ما يستحضره المعالَج ، أشيائي الداخلية والتدرجات التي أضاعفها عند قوس قزح تداعياته الخاصة . بينه وبيني يشب شيئاً فشيئاً هذا التبادل الذي تسمعه آذاننا بشكل موسيقي كتأدية عزف . موسيقى تغني أو تصرّ ، ألحان بصوتين حيث الأصوات المنخفضة والحادة تتراكب وتتشابك ، إيقاع

يصعب بلوغه بالكلمة الملوثة أبداً .

دوار «باندورا» ، سيتعرف عليه المعالج أيضاً أمام الخطر الذي سيحدثه تحرير المكبوت . والغلاف الرقيق للأنا ، المغلق جيداً على الأنا العليا ، يخشى الخروق المخادعة للذكريات والرغبات والأحلام .

إن المحلّل هناك ، يشكل جزءً من خارجي ملزم ومطمئن ـ وقابل لـ ـ على الأقل هو هذا المستحب ـ سد ثغرات الحصر بالتأويل والتفسير .

إحدى المعالَجات تركت نفسها تغرق في حصر أمومة مستحيلة : « جنين ، في ذاتي ، سيكون هذا كعنكبوت تلتهم كل الباطن ولا تستطيع الخروج إلا بقتلي » .

معاناة محظورة في هذا المكان من بيتي هذا المرأة توجب أن تستعيد فيه أجزاء رحمها المذنب أو ديبياً ، أجزاء اللذة الأبوية والمستقبل الأمومي . وفي القالب الأنثوي المعاد خلقه بالتأويلات ، سعت الى استعادة العضوية الملغاة لحياتها كإمرأة . وحتى لو ثارت الرغبة المنحرفة لرؤية إخفاق المحلّل في علاقة ناجحة مع مريضته . علاقة ملوّثة لهذا الذنب العائد لداخلي معاش بلذة . بحيث كلمة كلمة ينبغي تحليل وإعادة تأويل ، جزيئة بعد جزيئة ، هذا الداخلي المتفجر مثل رمانة ناضجة ترمي حياتها المدماة . ولإعادة إحياء بعضها ، بسيتوجب على النبتة أن تموت في بعض الأوضاع . وهذه الإهمالات الظاهرة للماضي صعبة والخوف من عدم انغلاق القشرة على الجرح ، أو العلبة على

الأسرار ، يضع في إضطراب عنيف الوعي بأن يكون ذاته عبر كل معاناة .

* * *

حلم المعالَج . مسلّم لآذاننا . عيوني وعضلاتي تشكل صوراً . ويشكل المعالَج في ذاتي وبعيوني وعضلاتي رائحة ، ذكرى . صدى في حياتي . رغباتي في خطابها . فيعطي غذاء لذهني . وفي عمق حياتي ، هوية المعانى تتعرف عليه . تواصل غريزي ؟ تداع . المعالَج « يتداعى » . ويتحد المحلِّل بالمعالَج . ويصير الحلم حلْمي إلى حد ما : باطن ، ولكن متروك خارجاً ، على بعد - مسافة الممتدة من المقعد إلى الأريكة . الجنون المستعاد لحسابه والمحافظ عليه خارجاً .

لأنه ، كما يقول هارتمان (Hartmann) : « الوقائع أكبر من اللاشعوري » . من أعمق أعماق الداخلي ، يتفجر الكلام الملائم . وإذا غاب عن الآخر ، تماماً لكي يردم هذا الصدع الكائن بين المعبّر واللاشعوري . ينطلق كلامي الخاص ، منزلقاً عبر المسام الكلامية لمريضي ، من ذاتي إليه . وسيضع منه حليباً ، أو دماً ، أو منياً ، أو هواء . أو مادة ما أخرى محوَّلة من قبله ، جزء مرفوض كفضالة وجزء محفوظ بمادته الخاصة .

إن المعالج ، المرافق بالمحلِّل في عالم الباطن ، حالماً أو مدركاً ، مفكراً أو متذكراً ، يخضع لحاجته الخاصة لوحدة جوهرية . فيحشد ، في التجربة الكلامية النوعية الإنسانية ، تجربته المعاشة جسدياً وعقلياً . وبما أنه مرهق بين الكينونة والمِلك ، القول والعمل ، التصرف

والخضوع . يكتسب بواسطة الرموز الكلامية السيطرة الجدلية بين ذاته والعالم الخارجي . وكل حقيقة توجد بالكلام ، بالخروج منه أو بالخضوع له . إن الوجود يستمر في ما وراء الكلام ، ولكن الرجل ليس رجلاً بدون كلماته .

إن التحليل يغرقنا شيئاً فشيئاً نحو داخل الكلمات ، ويوصلنا إلى كلمات الداخلي . لعب داخلي للفضاءات المجازية ، الرياضية وشعرية العواطف ، أنواع الكبت الغامضة الملموحة ، بالكلمة المقطوعة والمعاد بناءها في سياق الجلسات .

عالم شاب بالرياضيات من أصدقائي ، أثبت عبقريته ، شرع في التصورات المتعددة الأبعاد للفضاء بثقة ولذة رائعتين . وقد روت لي أمه أنها تذكر كيف استسلمت ، قبلَ أيام من ولادة هذا الولد البكر ، لإحدى ألعابها المفضلة : الأرجوحة . معيدة الأحاسيس اللطيفة التي شعرت بها عند خفة الوزن الطائرة لجسدها الشخصي الحامل جسد الولد .

* * *

لقد طرح فرويد كحدث ثابت بناءه الهندسي للجهاز النفسي . وسواء إن ترددنا بين صيغته الأولى أو الثانية ، أو أخذنا جزئياً من الأولى ، أو من الأخرى ، فإن الكليانية العامة سمّرت ، بالنسبة لمحللينا الحاليين ، في نظام ثلاثي نرتب أنفسنا وفقه . صورة مطمئنة للباطن حيث المخيلة تتخيل نفسها ، درجات مرتقية نحو الشعور الفاعل ، وعليها تتحرك الأشكال الثلاثة المحددة للشخص المفكر .

جيد ، الأمر هكذا ، وتتبقى لي التطورات ، غير المنجزة أبـداً ، والممكنة دائماً ، والمتعقدة في تشابك الزمن والفضاء .

الوراثيات حتمية ، لأن هذا نصيبنا المشترك . في الـوراثيات وفي الـدينامية ، لا شيء ثـابت ولا منجـز . رئـاية نمـوذجيـة للداخـلي والخارجي ، المشكلين للأنا عبر دينامية تبادلاتهما . إن الحياة تفترض طاقة متحركة ، في الزمن أولاً ، ونحو هدف أيضاً .

إن الرؤية الاقتصادية المتضمنة فيه من تلقاء نفسها ، تؤمن توازن النتائج العاطفية لعلم الظاهرات الإنسانية . وبما أن الكائن البشري موضوع في العالم كما هو ، ومشكّل من جسد ونفس في حالة ما ، فإنه يكـد ليؤسس نفسه بشكـل مختلف عن الأشياء المـوجودة الأخـرى ، ليشكّل نفسه ويعيد تشكيلها بـاستمرار بـين مخرجـين ، الأول إيجابي والآخر سلبي ، في الزمن ، والفضاء ، الوجود واللاوجود بإعادة دمج مستمر لزِنة من المؤثرات بحساب معقد لهناء الجسد : كينونة جيدة في جلده ، كينونة جيدة في العالم .

وتتطور حركات جدلية ، تعد معناها ، مؤسس الأنـا ، من باطن الجسد نحو الخارج ، من البدني إلى النفسي ، من المعالَج إلى المحلِّل ، كما بالعكس . يؤدي التأليف الشخصي والتحليلي لكلٍ منهما إلى إنشاء مؤيّد من أنا راشدة عند المعالَج ، ومن التأويل عند المحلِّل .

تأليف جارٍ في الزمن ولكنه دائم أبدي ، وعلى الدوام غير منجز : حَبَل دائم للأنا حتى الحدود البدنية لإنجاز مميت . إن الجسد بـداية الوجود ، على ما يبدو ، مهما كان حلم الفيلسوف ، وهو كذلك النهاية

رغم أوهام الأديان :

وأنا ، بمحض اختياري ، لم أرجع هنا علاقاتي إلى غريزة الموت . ويسمح لها الكثيرون بالبروز في ذاتهم لأنهم يريدون بخبث دسها كلها لي ، الى درجة أنهم لا يخطئون : فإنني لا أتنكر لها قط . وعند التعرف المستمر عليها تحت العصاب ، والحياة نفسها ، احتفظ لها بمكانها المحتم . على أن أمنح هنا الإمكانية المشروعة للتمني أو على الأصح للحياة من أجلي كما من أجل مريضي .

ما أستطيعه في ذاتي ، لا أتركه يتلوث بالموت . ففضاء المحلّل المفيد الخلق ، إذا اجتاحه الموت ، يصبح فضاء ذهانياً أو منحرفاً . وأي شخص معالَج لا يستطيع الخروج حياً ومستقلاً من جسم كهذا .

إمرأة أنا أولاً ، قبل أن أكون محلِّلة ، وحتى إن كان المحلل رجلاً ، فإن كل محلِّل يستعيد جيداً في مكان ما نوعاً من الأنوثة التي تجعل من الممكن له الإصغاء إلى ما هو هنا محور المسألة . فالمحلِّل يخفي في ذاته ، الرجل أو المرأة ، بماذا ينتمي إلى تجربة مريضه المعاشة . عند ترك الموت يهيمن على رغبتي ، سواء اتخذ شكل عدوانية أو غياب ليبيدي ، أسيمكن ولادة أنا مختلفة عن ذهاني أو ولد مولود ميتاً ؟ إن الاجتياح من قبل الموت سيقودني إلى إجهاض تحليلي . في التحليل كما في الحب ، ليس الأمر إلا التملك الطافح للذات ، الحية والراغبة ، الذي يتيح خوض مخاطرة أن يكون متملكاً وقتياً من قبل الآخر ، بدون خطر كبير بالضياع . لذة في اللحظة الثمينة التي لا يزال الحصر فيها من المحلِّل والمحلَّل ، والتي تحترم فيها حدود كل منهما وتتجاوز . امتلاء الفضاء المعاد إكتشافه .

سـواء وصل المـوت بوسـاطة الجسـد نفسه أو بـوساطـة العدوان الخارجي ، فإنه يدرك في وقته الباطن النهائي . إنه إبتذال القول أن الوضع البشري هوَ وضع دفاع دائم ضد إبـادة الحياة ، دفـاع مادي ودفاع عاطفي . ولكنه إبتذال جوهري ؛ وهم عبثي ضد إبادة الحياة ، دفاع مادي ودفاع عاطفي .ولكنه إبتذال جوهري ؛ وهم عبثي بتوازن القـوى : ذات يوم ، كـانت الحياة أكـثر قوة من العـدم ، ذات يوم سيكون الموت أكثر قوة من الحياة . وبين هذين اللحظتين يتشكل عالم صغير ، مسيج بنسيج جلد ، مثل الدمية الصغيرة ، الثقيلة والصلبة ، المحبوسة في نسخها المتماثلة المتراكبة المتدرجة في الحجم . إن الحياة فيها مركزة بإحكام في صلابة الخلايا ، في « هذه القطعة الصغيرة القاسية الموجودة في الباطن » (N. Sarraute, Le planétarium) . ودائماً تحت بعض الأشكال ، بعض الأشياء ، يمكن الولادة فيه . فـلا شعوري الجدة الدمية هو تقريباً نواة الحياة هذه المستردة في الأنا وفي الأخر ، حول ما تتكـدس عنده الكثـافة والأحجـام ، العضويـة والعضلية ، والحركات الدائرية للفكر والمؤثرات . نهاية مشتهاة للإنشاءات المتدرجة عبر لا نهاية الفضاءات التحليلية .

روائح

عطر . إحساس أول لجنـين الأنا : رائحـة جسد أمـومي . متعة بدئية ، إختراق لا ينعكس . تذكر لداخلي الجسد ، غلاف منقلب على نفسه . جلد أثيري يطويه الهواء المتغلل . الداخلي المعاد ابتكاره . لا وجود لسد ممكن لهذا الانزلاق الأمـومي نحو البـاطن . رائحة دم ، جلد ، حليب ، ثـدي . رائحـة أب أيضـاً . الـرفض للمحتـوم ،

للتوزيع ، المكروه المتنفس ، النتن غير الصالح للتنفس : الربو .

الـولادة مجدداً في غبـطة العـطر . عنصر أول للمعلوم ، للرغبـة بالحفاظ في ذاته على : أم متعرف عليها . أثرها المحسوس محتفظ به في النَفَس ، في تبعيـة الحيـاة . تسـامٍ . المـردود المحســوس الـذي لا يوصف .

عطور نساء . مشروعية الارتباط الأول ، الأثر الصالح للتنفس ، المجنح ، الذي يجر الصور . ورغم رفوض الجسد الأمومي . روائح الجسد ، الباطن المقلق ، اللغز ، العامّي أو السـامي ، متحولـة إلى أرائج أزهار وأوهام . نيسان مجـدَّد . ما وراء الانفصـالات الضئيلة جداً ، المرأة المعطرة تنضـم إلى أمها ـ الزهرة ، الدائمة ، المغضبة . أثر لطيف للحضور العنيد ، منقوش في الأغشية المخاطية . جلد متنشق لشريك الحب . يرتديه أحياناً برشاقة رجل . « هناك وضوح العـطر الذي هو أكثر إقناعاً من الكلمات ، من المظهر البصري ، من العاطفة ومن الإرادة . ويمتلك وضوح العطر يقيناً لا يقاوم ، ويدخل فينا كما يدخل إلى رئتينا الهواء الذي نتنفسه ، ويملأنا ، ويعيد ملأنا كلياً ، فلا يوجد وسيلة للدفاع عن النفس ضده »[1] .

سڤرين (Séverine) ، شديدة الحساسية ومصابة بالربو ، حافظت معي ، في ضميرها الباطني ، علاقة عدائية بشكل مخيف ، وبشكـل نهائي مفسوخة بإعجاب سلبي وبتوهم لطيف . وهي تخلط إنتظار مَعْ الصورة المنيعة التي شكلتها عني . وهي ، معظم الأحيان ، صامتة ،

---

(1) P. Süskind, 1985. p. 121 .

منغلقة في غموض بدون رغبة . نرجسة غير مفتحة ، بدون عطر ، بلا تويج . ولا نبع قريب : لا شيء يشم ، لا شيء يعرف .

لقد وصلت يوماً ، مرتدية كالعادة بطريقة كئيبة ، ولكنها معطرة بإفراط ، فظة أو منحرفة . وقد سعلت لهذا الهجوم ، إذ إجتاحتني رائحة امرأة فاحشة ، مخترقة الجسد ومفكرة بهذا القضيب المجنح بلا لطافة . بخلاف الصوت الضائع ، المالىء بقساوة فضائي بالكره الأمومي الخانق ، خرق الاضطهاد التنفسي انتظاري الانسجام ، عمر فكري ببخار مقزز . التحويل . كنا نحلم بالشعوْر بالعذوبة نفسها .

عين وجلد

« لا تتوافق الكلمات فيما بينها ، ولا مع موضوعها : إختلال هو خسارة الهوية »(1) . والاختلال كذلك في الفرق بين بشرتين : تلك التي تَلْمُس وتلك التي لُمِسَت . فلا تطابق حقيقي . وإذا ولم يكن هذا ، ربما ، في هوية المرأة مع ذاتها ، تطابق عابر بين عضوها الجنسي وجسدها الخاص الداخلي . فلا اسم لهذا الفضاء المثير جنسياً ، لا كلمة لقول المعاني منه . . . . وحدة الاتصال ، الداخلي مع الذات ، مع يد ، غريبة أحياناً ، مع العضو الجنسي لمتطابق آخر للحظة مع الرغبة . انتعاظ . لا شيء مرئي . فقط أن تلمس وأن تكون ملموسة . ونشر اللذة في الجسد كله .

ملامسة ماذا ؟ اللامحدود واللا مراقب الجسدي لفضاء مثار ، وتقريباً كلياً ومباشرة في الداخلي . داخلي ، بل وخاصة بالانعطاف

---

(1) Sami-Ali 1984 . ص 5 .

البـظري . فلا عضـو جنسي مرئي ، خـاصة من تلك التي تحمله . والاتصال الوحيد باللمس ، بالمعانى الملموس وبالاهتزاز الداخلي . على هذه القاعدة الحواسية يتشكل موضوع داخلي أساسي (Esther Bick) حول ما يستطيع حينئذٍ أن ينبسط غلافاً جلدياً ملمـوساً ثم مـرئياً ، بتعميم من اللمس الى الرؤية . فالمرأة تتشكّل من غلاف ، مركّز على هذا الموضوع الداخلي غير المحدود . وسيحتاج النـرجسي إلى مرآتـه طوال حياته : من الرشيم إلى الزهرة ، ثم أيضاً حتى الذبول . تأكيد بعين التطابق الدائم لـ«فضاء. لا معقول »[1] خاص بالتجربة المعاشة الداخلية مع الصورة المرآوية . كما لو أن المحتوى كان ينبغي أن يكون مؤكّداً بمظهر المحتوي .

فهل ستكون الذات الفطرية إزدواجية مسبقاً ، أو أحدية فقط ؟ أو أيضاً إتصالية حسية ؟ أن تحشد في نواة واحدة لا متميزة الـداخلي / الخـارجي ، المحتوي / المحتـوى ، كـلاً وأجـزاء ، لمسي وبصري ، غريزة حيوية وغريزة مميتة ، أو أن ، على العكس تماماً ، تكون أولاً نضال الأضداد وأن يكون إنغلاقها محدد بالانفصال الأساسي للولادة . إنفصال هو آنذاك مميّز كنموذج للفكر الثنائي ويعكس مسألة اجتماع الضدان . مسألة مثل مسألة إنجـاب المرأة بـوساطـة المرأة ، مسـألة الاختلاف في المماثل . ثنائية في وحدانية الاستمرار . إدمـاج هندسي للسِّعات .

عنـد أول لحظات الحيـاة ، في الفضاء البـدني النفسي للفتاة كـما

(1) المرجع السابق .

للولد ، يأخذ الشيء شكلاً بواسطة المعاني الداخلي الفمي والشفهي ، المختلط أو الممزوج بالمعاني الكلي الجسدي . بطريقة قريبة من طريقة ف . توستان (F. Tustin) أعتقد أن حصر أن تكون ميّالة إلى البحث ثانية عند تشكيل موضوع داخلي سيصبح مصدر العلاقات الغيرية . وقد يكون شكله الأول محرّض من تقارب السطح الشفهي مع التجويف الفمي حيث اللذات الأولية للعلاقة تختلط وتمتزج . وربما أيضاً ، سابقاً ، الموضوع الداخلي الأساسي سيكون منتجاً بوساطة استبطان اللمس الإجمالي المحسوس في الباطن الأمومي .

وستقوم المنطقة الفمية بتركيز المعانى الداخلي / الخارجي ، وإمداده بالمعاني ، وتحويله شيئاً فشيئاً إلى ذاتية ، وتمييز الموضوع المدموج للذات الدامجة وتشكيل تصور متماثل أولي للأم الحاوية . ويتنظم الغلاف النفسي على قاعدة المعانى الكلي عند الاتصال بالجسد الأمومي ، وريث الاتصال الرحمي الذي يحل محله الاتصال النشيط والداخلي للأعضاء الفمية مع الحلمة . وتدرك العين عين الأم ، أول مرآة (Winnicott) . وسريعاً تحل العين واليد جزئياً محل الفم وتشكل طوبولوجية جديدة بفضل إجمالية لمسية ، بوساطة « قربها » المكاني والوظيفي من أعضاء الحس المستقبِلة . إجمالية تنزع إلى توحيد الذات في النضال ضد الانفصال . وتفرّق الذات لتوحّد مجدداً بلا انقطاع . ويتركب الفضاء شيئاً فشيئاً من هذه الإدراكات الحسية الآتية من الخارج والمستقبلة في الباطن تحت أشكال متجاورة . وتندمج المشابهات بتحويل إتساع الأشياء الداخلية وشكلها ، وبتجميعها في نسيج حواسي يستبطن نفسه .

وعنـد الفتاة ، تستخـدم جنسنة (sexualisation) الادراك الحسي المعانى الداخلي . والكل تم تركيزه في الفضاء الداخلي . وعندما تحتك بالنظر بالقضيب الذكوري ، منذ العمر الأكثر حداثة ، يعرف فضاء عينها أن القضيب هو موضوع رغبتها . رغبةَ جنسية قبل كل شيء . وهذا ما لا يعرفه ، ربما ، الولد الصغير في العمر نفسّه . وهذا الذي لا تمتلكـه الفتاة ، تعـانيه أولاً داخليـاً . وهذا الـذي تفتقده بـالنظر ، تستعيده بالفكر . إنه في منطق الأشياء ، وفق الاستكشافات الجنسية التي قامت بها على نفسها ، وفي حلمها بامتلاك هذا القضيب ، هناك حيث تشعر بمكانه : في الموضع نفسه مثل الصبي . ولكن في الواقع ، يحدث في ذاتها التباس بين رؤية القضيب ، والمعانى تجاه القضيب ، الذي يحدث الرغبة في امتلاك قضيب ، أولاً كشيء لمتعتها الخاصة ، إنها تشعر بنفسها غلافاً في صلتها بمتعة اللامغلف . فضاء مغلّف لنقطة قابلة للإثارة من قبل الموضوع المثير الفضاء ، فيها مقعّر . إنه نداء ، غريزة نحو الداخل .

إن شدة اللذة التي يشعر بها بدخول الشيء في النظر ، تسقط على الشيء الذي يطلق اللذة بنقل الأحاسيس اللاشعورية للإيلاج . وفي حين أن الفتاة ترى فوراً في القضيب الذكوري موضوع لذتها ، وتسعى بالتأكيد لامتلاكه ، يُجَنّ به الصبي ، ممتلكاً ربما في العمر نفسه بشكل أقل وضوحاً الجنسي المعذّب ، والرغبة التي تظهرها الفتاة وغياب شيء مماثل من جسدها هو على وجه الاحتمال أحد مصادر استيهامات الخصاء عند الجنسين .

إن إسقاط الأحاسيس اللمسية الداخلية على شيء يعـرفه النـظر

يحدث عند الفتاة توحداً كلياً للذات بغلاف اللذة الذي تكتشفه في نفسها. وتصبح كذلك بشكل واعٍ سطحاً من الأغواء المرئي المرصود للصبي الذي تتشوق إلى مشاركته في القضيب. إغواء هدفه امتلاك الشيء المرغوب أولاً تحت الشكل الوحيد المعروف منها: شكل غلاف لذة. وتستطيع هذه السيرورة بذل سبب للأهمية المعطاة من قبل المرأة إلى زينتها، إلى الانتشار المبكر للطافة عند الفتاة الصغيرة، إلى السحر الذي تحسن بذله قرب والدها والعديد من الأشخاص الآخرين. إثارة تساوي بين موضوع رغبتها وشك هذه الرغبة الذي تعكسه الأنا الراغبة.

خطر، غير أنه مثل ذاك الخطر الذي تتجشمه النظرة الغاوية نحو موضوع الإغواء. فضول، حسد مخفي تحت السعي إلى المعرفة. وتتعرض الفتاة الصغيرة للخطر، أكثر من الصبي، من الصدمة المرتبطة بالنظر: إن رؤية الأعضاء الجنسية المذكرة البالغة توقظ الرعب المضطهد المرتبط بشعور عدم تناسب الأجسام، عند نقب فضاء خيالي غير مرصود أيضاً لاستلام هذا الموضوع، هذا الشيء، ليس فقط في الواقع البدني، ولكن كذلك في جرم الرغبة الممنوعة. والرؤية المرتبطة بالرغبة، هي مسبقاً، إيلاج بالنسبة إلى الفتاة.

هذا «الحادث» الصدمة الكثير الوقوع يسم الفتاة بمشاعر العجز التي تستعاد تحت شكل البرودة الجنسية، العُقم أو أيضاً الكف الفكري. وإن العمى أو العادات الهستيرية هي بلا شك ظاهرة مرضية يمكن أن تكون مرتبطة بالرغبة في أن تكون مخترقة بالنظر. وعندما تنضم الكراهية الدفاعية للنظرة إلى التقديمات اللمسية، فإن

الممنوع المرتبط باللمس يسبب إشمئزازات من نسق الخَلْفة أو أيضاً الدفاعات الاستحواذية للتنظيف ، للرفوض الخوافية ، أو لاستحالة إدارة ريشة للكتابة .

هذا الموضوع المحسوس الذي به تتحدد المرأة، وتتميز بلغز اللمس الداخلي ، باللذة الخفية ، يعينّ الأنوثة بنقطة التقارب حيث يصبح الرمز ملازماً للمادة . ويستخلص الترميز من الحي مادته السطحية المدركة بالحواسة . وينقل الرمز فقط الإشارات الحواسية المرسلة من الموضوع والتي تقدمه أو تتيح صفة خاصة للانفصال : الإشعار . فالرمز يثبّت المعطيات الخارجية باستخلاص الصفات الشكلية الجوهرية للمادة . وينقص القلق الذي تخلقه المعطيات الغابرة للحواسية ، ويعبر عن بقايا الكبت عندما يقوم هذا الأخير بالتصرف بفضل واقية الإثارة .

وهكذا ، تصبح الخصوبة رمزاً ربما لأنها تثبت in utero أثر علاقة الرجل بالمرأة ، أثر اجتماع المختلفين ، أثر توحّد الشخص . وتلغي أهوال الموت بقلب تصور المعطيات الوقتية للحياة .

إن الرمز خلق مطمئن للأنا التي تعمل كمخرج مشترك بين الأشخاص و ، وفق جونز ، لأنه « يمتلك مدلولاً ثابتاً »[1] . فيقلل « الشيء » إلى أكثر تعابيره بساطة مستخرجاً من حسيته الأجزاء الأكثر قابلية للتعبير : الرؤية واللمس مصدرهما . ويستدعي مرأى الغلاف البطن . إستحضار بصري ، وأحياناً حتى سمعي ، لاتصال مرغوب ، ويحتفظ الوضع على مسافة رمزية بالمعنى المكبوت للعلاقة مع الموضوع .

---

(1) Ernest Jones, 1916, cité par H. Segal, 1987 .

قد يكون المعنى المحفوظ مفهوماً مثل شكل مستبطن للموضوع ، ومموه بدقة بوساطة الكبت ومسقط بشكل لا شعوري ، في سُماته الجوهرية ، على شكل قابل للإظهار والإبانة .

وعلى حد قول علماء الأثريات وعلماء الإجتماع ، فإن أكثر الرموز المكتشفة قدماً مرتبط بإحكام بالأشكال الأمومية التي يبدو أنها تتحداها . ويعكس الترميز الالتقاء مع الشيء : فيستبدل التماس الحواسي بالتماس العاطفي والخيالي . ولا يبقى من الشيء المتأمَّل إلا الحد الأدنى من خصائصه المحسوسة ، القابلة لأن تثير بشكل مؤلم إستحضار الغياب ، هُدْب الثقب حيث تختفي الأنا ، إما بمتعة الشيء ، وإما بلا حضوره . ولكي يحل الرمز النزاع النفسي للداخلي الذي خلقه الشيء هكذا ، ينضم الى الظاهرة المرضية في الجسم المزيل للهستيري . وعلى العكس من ذلك ، في التطور الطبيعي ، الاتصال الجسدي المفقود يخلي المكان للكلام .

وتستخدم مشاعر الخصاء غالباً التعابير الشفهية . وسأذكر فقط الأكثر إعداداً : التسمية ، القول ، الكلام . فاللامرئي غير قابل للتسمية . فمفهوم الطفل ، المخفي في جوف اللغز الرحمي يؤدي بالنسبة إلى امرأة إلى إنجاب ثمرة حب حي ، جزء من الذات قابل للاقتطاع ، وتتشكل صورته التكافلية بشكل طبيعي في فرد يفصله التقدم الطويل للتواحدات والانفصالات . لكن الرجل المنجب ، لكي يُتصور والداً ، ينبغي أن « يتعرف » على الطفل وله حق اللجوء الى هذا المفهوم المعقد الذي هو النبوة . تسمية طفل باسمه الخاص يمثل للرجل الخيط الذي يربطه ببذاره الخاص ، المستثمر من قبل

امرأة . فلا شيء من المرئي ولا المحسوس في هذا المنفذ المباشر لحركة رغبة تستطيع نتائجه البقاء مجهولة من الشريكين . يقين الأم . نتاج ظاهر ، صريح . مقيد بالامتلاك العابر لجسم حي مستقل . زوال حيازة دائم ، إنفصال متواصل ، مرئي وملموس . معاناة الأم . رباط رمزي علاقة الحب يُكسبه إسم الأب للطفل ، المولج كذلك في القانون والمعروف في « مثلثيته » . وبواسطة جانب النبوة ، يجد الطفل مدخله إلى فضاء داخلي خيالي مشكل مسبقاً ، سيساعده نظره وسمعه على جعله مستقلاً عن الاتصال مع الجسد الأمومي .

صور

كلار (Claire) لا تحب المرايا . إنها مترددة في اكتشاف من هي تجاهها . إنها لا تحب صورتها لا في ثوب ، ولا في بنطال . واختيار الثوب يسبب دائماً توقفاً طويلاً على الشكل ، واللون ، وملامسة النسيج . تبديل وإعادة تبديل . تغييرات. « كما لو أنني كنت أخاف من رؤية امرأة في هذا السطح الصقيل ، في حين أنني أشعر ببروز جسدي المغطى بغشاء كاذب ، أو بقوقعة . أحب السلاحف . رؤية نفسي ، هي رؤية نفسي مسطحة ، ليس مثلما يراني الآخرون ، وليس كما أشعر بنفسي . هذا خطأ . لن أستطيع رؤية نفسي . هذا مثل عضوي الجنسي لا أرى منه إلا هذا الذي يستره .

الفتى الأول الذي عرفته ، الذي ربما أحببته ، عرفته في العتم . وكنّا نمارس الحب في العتم ، كما لو لم يكن يريد رؤيتي كذلك . ومن جهة أخرى في الحاضر أيضاً ، لا تصلني اللذة إلا إذا لم أر شيئاً ، إلا إذا كنت داخل أناي ، مركزة فقط على مشاعري ، تلامس الجلود ،

الأعضاء . ما من صورة ، فقط ألوان ، حية صاخبة ، تتحرك وتتمازج » .

نظرات

خط البتلة الذي تحدده الزرقة ، بين الزهرة ولا شيء . رسم دقيق ، من الهش إلى الغياب . وجنة طفل حيث بزغ الوردي تواً ، متقزحةً بنظرة زرقاء كالزهرة . تويج حياة ، جزم إطار . من العين أو من البتلة ، ممن أنا أكون الأم ؟

سجف غامض . لمعان . منعرج من الماء هادىء . حد متحرك وشفاف على لحم الشاطىء ، منزلق بالتبادل رأساً على عقب بشكل لا نهائي في ميدان ارتعاش ضوء . رغبة مشبعة . الآخر مستأنف دائماً بشكل مختلف ، منظور ملموس مجهول ، وغير ملتبس فعلاً ، فقط مستغرق في العزلة بنفسه .

الشيء المرئي ، عندما ينظر إليه ، يصبح سلبياً ، مبتلعاً في فضاء العين . نبتات دوار الشمس التي رسمها ڤان غوغ* ، التجمهرات الغريبة لـ دووانيه روسو** ، المساحات الشاسعة الطبيعية المقزّزة لپولوك ، درب رودان*** . وكم من غيرها ، أصبحت أموراً من

(*) ڤان غوغ رسام هولندي (1853 ـ 1890) أكثر من رسم المشاهد الطبيعية والوجوه ، تميز بحدته ولونه (المترجم) .

(**) هنري روسو الملقب بالجمركي (Douanier) رسام فرنسي (1844 ـ 1910) مؤلف مشاهد ذات طابع ساذج شعبي وألوان متناغمة . (المترجم) .

(***) أوغست رودان نحات فرنسي (1840 ـ 1917) ترك منحوتات كثيرة منها المفكر ، بوابة الجحيم . (المترجم) .

امتلاكي الباطني . أعيد تشكيلها من مواد ذاتي . العين مرآة الروح ، مرآة أمومية ، المحتوي الأول . سلبي ولكنه حي يصبح فيه الموضوع . منظور ، مستبطن ، متكامل في الأنا . مثل ربة الجحيم[1] لـڤاليري* الذي « يتلألأ ، مرتبطاً بهذه السماء المجهولة [. . .] » عندما يصغي في ذاته إندفاعات الرغبة / الأفعى : « أو بخطر من نظرتها الفريسة ! » .

وهكذا أطلق عليهم إسم « الثقوب السوداء » للفلكيين ـ شعراء علميون معاصرون ـ هي مصدر للضوء . « عيني السوداء عتبة مساكن جهنمية »[2] . والباحثون إذ يجهلون محتوى هذه الفظاعات الكوكبية ، يتنشطون ، فيما وراء أحلامهم باللانهائي ، يتخيلون لها أشكالاً وتحريضاً داخلياً . « السواد ليس أسود جداً »[3] . بـ « درجات مجولة » ، الصورة البصرية تنبسط على المتعذر وصفه ، المتعذر قبوله . هذا سر الرسام ، هذا جهد الشاعر . جهد المحلل أيضاً المصغي إلى الحالم .

لا تقوم العين إلا بتغليف المدرك ، بإخاطة الشيء برشاقة الأنا ، مهما كانت رقيقة . العين تخترق ، هذا الإختراق متبادل . العين مخترقة بالشيء . التداخل البصري مصدر دينامي لتواصل استيهامات القدرة . إنها تفتح المنفذ إلى الحواسية غير القابلة للتحديد أبداً ، إلى

---

(1) پول ڤاليري (P. Valéry) مرجع سابق .

(*) پول ڤاليري كاتب فرنسي (1871 ـ 1945) مؤلف في الشعر والنثر (المترجم) .

(2) المرجع السابق .

(3) المرجع السابق .

أحلام الباطن التعاظمي في ما ستكون موحدة ومتضادة مبادىء الحياة والموت : « المسيح ، كتاب حي يقرأ داخل الذات »[1] . لقد خلق الإنسان الرب على صورته ، صورة مثالية . القدرة الكلية للنظرة تنقل العالم الى داخل الإنسان .

وتطلق التجربة الغريزية البحث واستثمار الأشياء الخارجية التي تسند إليها بشكل لا شعوري قدرة إشباع الحاجة المعاناة . أول معنى معطى للمعاني من قبل النفسية الحديثة ، وتظهر الغريزة إذن كأول حدس للعيش ، لنشاط داخلي إلى ما الجواب المدرك ليس إلا احتمالاً له وسلبية . إن قابلية التأثر الحواسية هي من هذا الفعل الموضوع بسرعة في علاقة مع الحركات الغريزية التي هدفها أن ترى ، أن تكشف العين من جفنها لتدخل في تواصل مع الشيء ، لتوجه العين نحو الشيء ولتشعر باختراق العين الأنا بالشيء المرئي . العين ، المغلقة ، تحفظ الصورة ، أثرها في الكتلة السحرية للذكرى . ومن المبتذل الكلام على شراهة النظرة ، كما لو أن العين كانت تمثل منفذاً واضحاً لقابلية التأثر ، للدمج ، بطريقة الفم نفسها .

إن قابلية العين للانفتاح والانغلاق بفضل حركية قصوى ومتعمدة تحملني على اعتبارها كواحد من أبكر ممثلي إمكانات الانفساخ داخلياً / خارجياً ، أنا / لا أنا . وهو كذلك ، بلا شك ، عامل شعور الداخلية بهذه القابلية للإنغلاق إرادياً تجاه التحريضات اللطيفة أو العنيفة للبيئة . ويأكل الانطوائي ولكنه لا يرى . ومع ذلك ينظر إلى الأشياء

---

(1) Sainte Thérèse d'Avila .

التي يختارها . والجفن وعمله يصوران مقدماً غلاف الأنا في المساحة النفسية ، مع إمكـاناتـه بالانفتـاح نحو الخـارج ، واحتجاز الصـور المشـاركة في تـركيب صورة ذات ، والنـظرة ، في الآن نفسه ، أداة تماس ، واستبطان وتقدير مسافة . وسيط بين الفم والأذن . وبعد دورة طـويلة وتحولات متعـددة ، يركّب الكـلام النظر والسمـع بـوظيفتـه الإدراكية والبث البُعدي .

وعلى النقيض من الإدراك البصري لسطح الأشياء ، يحوّل إقفال العينِ العينَ إلى عضو للإدراك الباطني . وتستثمر إلى حد كبير كمكان لقابليَة التأثر وبلا شك ، من هذا الحدث ، ترتبط بالأنوثة بتمثيلات داخلية الغريـزي[1] . في حين أن تجـربة الإشبـاع تحدث بـالأحرى تمثيلات دائرة نحو الخارج ، النشيط ، النعوظ ، المذكر .

وتشعر الفتاة بطريقة واضحة بالدفعة المتشـوقة منـذ عمر مبكـر ، خلال السنة الثانية من حياتها . ويختلط النداء نحو شيء خارجي عندها بين الحاجة الفمية والحاجة الجنسية . كالكلمة في فمها ، تدعها تدخل فيها نظرتها إلى الأشياء الكفوءة المحدثة للمتعة . وحوالى العامـين ، عندما تكون قد تبينت باشرة وجود القضيب الذكوري ، تخلط مشاعر الرغبة في أن تكون مخترقة بالاستياء لعدم امتلاك وسيلة لـذتها هـذه أيضاً . ويصبح قضيب الذكر بالنسبة إليها السمة البصرية التي تحددها من الخارج ويقوي التأثرات الأولية والاستيهامات المرتبـطة بداخليـة

(1) في ثلاثة أبحاث على الجنسانية : « تحولات البلوغ » يذكر فرويد العين كمنطقة للإثارة الجنسية . وإذا رافقتها اليد في علاقتها بالجسم ، تحدث الإثارة توتراً جنسياً يبقى إتمامه إفتراضياً .

المعاني الجنسية . غير أن ، جسدها ، المرئي من الخارج ، لا يبدي ، وهو المطلوب للإثارة ، أي تحول معادل للانتصاب عند الصبي . وعلى الأكثر إثارة مطلقة تحيط بالنقرة المثارة وتخفيها .

وتستطيع الفتاة الصغيرة أيضاً صنع إقفال كلي القدرة على العالم البصري ، الذي يقاوم الإيلاج . وهذا السياج على باطنها المتشوق قد يكون شكلاً من الشبق الذاتي ، متحدّر من التعاظم الطفولي وتستطيع أيضاً الانسياب من الجنسية المثلية الطبيعية التي تربطها بأمها . وهكذا تحمي في ذاتها أمها الحقيقية من الإيلاج من قبل الأب وتحتفظ في الآن نفسه بالجسم الأمومي والقضيب الأبوي . وإذا عملت ظروف تتطورها على أن يستمر هذا النمط من السياج ، ستتألم الفتاة من تركيزاتها الهستيرية . وتكون بعض البرودات الجنسية والتشنج المهبلي عمليات نقل لنشاط مفرط بصري للطفلة الصغيرة :

جيزل (Gisèle) تتردد منذ طفولتها الأولى على المتاحف وصالات عرض اللوحات حيث كانت تصطحبها والدتها . ثم تبعث عرابها إليها ، الأكثر شباباً ، وبلا شك حبيب أمها ، والذي كانت هي نفسها مغرمة به بشغف وبشكل عذري . لقد كان موضوع استيهاماتها الاستمنائية . وهي تحب ، حالياً ، رساماً . لكن علاقتهما تبقى « سطحية » . فجيزل غير قابلة للإيلاج . إنها تتألم من التشنج المهبلي . وقد قالت لي أنها « لا تستطيع إغلاق عينيها » عندما يداعبها حبيبها . فهي تحافظ بالمراقبة البصرية على مراقبة تنازلاتها . فعدم إغلاق العينين يتيح لها أن تبقى مغلقة . فتحقق التباس ثقبياً بين العينين وعضوها الجنسي .

إن المرأة صفحة بيضاء يأتي الرجل ليخط عليها علامة المصير . والنظرة ، المخصصة للسطح الجسدي ، عنصر مكوِّن للهوية الشكلية ، السطحية . ولأنها مخصصة للقاء عين أخرى ، فهي تناوب تواصل عن بعد لسلسلة واسعة جداً من التأثرات الأولية . إنها أيضاً فتحة إختراق لأشياء البيئة . وبواسطتها ووفق استثمارات اللحظة ، تستطيع الأنا تملك هذه الأشياء ، وتحوِّلها إلى أشياء من الاستيهام ، وتقدر منها مزايا الشكل ، واللون ، والاتصال اللمسي ، فضلاً عن الغرابة . إنها نقطة التفاضل والتواحد ، والتمييز بين التحقيق الواقعي والاستيهامي ، مصدر للإنشاء الخيالي .

إن العين ، على مستوى الوجه ، تلتفت أيضاً نحو الباطن . ويشكل النظر الجوهري من التصورات ، حتى لو شاركت هذه باستبطان الإثارات الناتجة عن الحواس الأخرى . فالنموذج البصري ، في نظرية التحليل ، أساسي . ربما لأن فرويد كان حساساً بشكل خاص تجاه الرؤية ، وهذا ما جرّه إلى تقدير وفهم معنى الاحتفاظات البصرية المستخدمة من قبل الحلم . واللغة نفسها ، في أحلام فرويد ، كانت غالباً مكتوبة ، إذن صورة بصرية أكثر منها سمعية . وهذه الأهمية العظمى لإصلاح اللاشعوري هي بلا شك لإعادة ربط بالأولوية ، بالنسبة إلى اللغة ، للاندماج والاستبطان بواسطة النظر .

العين والجفن

العين تدرك ، العين ترى . خارج يوجد ، واقع حتى مستقل عن الذات يأتي لينضم إلى هذا الأخير . واقع بعيد ، مختلف عن اللمس .

العين بدون جلد . تتعلم . وقريباً تعرف : لون الأم ، تدرج عينيها ، شكل الأجسام ، كبر الأشياء . العين تنظر . تدير نحو الذات حصة الإدراك المختار بالتأثرات الأولية . حصة المعرفة المنظور إليها باللاشعوري . حصة البصري محفوظة بالكبت . الرغبة تنظر . العين تصبح فماً . وتدمج بشراهة هذا الذي ، من المعرفة ، يطلب إليه أن يصبح من الأنا . ويأخذ النرجسي من النبع صورته الخاصة المتلاشية . الجريان في الأنا ، تبعية شكل . والمساحة المنظورة تدخل في الأنا ، تتحول ، تنطبع . مثل قماش رقيق سيصنع العقل حبكته . العين تكمل الجلد ، تخلق المسافة بين الجسم والأشياء . مسافة جديدة للمعاني ، غياب الاتصال أول ملموس . وينتقل الملموس في العقل ، وتلامس الأشياء العين الباطنية . أول إدراك مختلف للداخلي .

داخلي مغلق بالجفن . سياج بدئي ، أول نفي . حرية مفتوحة للمعالَج من قبل فرويد في النوام كما في التحليل . إنكماش على الذات ، عودة نحو تصور الداخلي وصناعة الأفكار . نفي ممكن للواقع الخارجي ، تحول للمحلِّل وللوضع . العين المغلقة على الحلم ، العين الباطنية . العين المغلقة تحفظ الذكرى ، تطبع المنظور . العين ـ الفم ، تتذوق ، تهضم وتحوّل المنظور . إنها عامل الاختيارات الأولى ، النخبة .

إن النظر يحيد ، وأفضل من الفم بكثير فرفض الرؤية سهل : جفن يقع مجدداً على التثاؤب البصري . العلامة مرفوضة . الملموح ليس مرئياً ، نرسيس* في النبع ـ المرآة خالقة ذاته لم يرَ أبداً إلا صورته

(*) نرسيس (Narcise) إبن إله النهر سيفيس . كان فتى وسيماً فاتناً أحبته فتيات عدة لكنه =

الخاصة . المعنى الوحيد المعطى للحياة ، حد المتعة المنقلب على ذاته . جنسانية مثلية أصلية .

« إذا لم يخطىء البصر ، النظر نفسه ، منحرف بسهولة »[1] . ويبقى على السطح . لا ترى القضيب . نرّ فقط الداخلي يقين الذات الوحيد . تجويف محتّم ، مماثل لذاته مغلق على الداخلي . فاقد نفسه في الثدي قبل أن يوجد : خطر الذهان .

إن الفتاة تهستر جسدها الخاص بالمعنى المحتكر للنظرة الأمومية إلى الأب . إنها ترى نفسها قضيبية في عين أمها . وتركّز في ذاتها كل الاحتدام الظاهر : الرعاية ، الدموع الغضب ، الانزعاجات . عدم استعمال الإثارات الداخلية يجعل الرؤية القضيبية لا تطاق بالنسبة إليها بخلاف الكائن نفسه . فتحاول العودة الى النظرة الأمومية إن لم يوجد ثديها ، لصيانة البنية النرجسية الأولى التي لا تستطيع أيضاً الكبت ولا التحويل . هستيريا قديمة ، حتمية ، يعانيها الصبي الصغير نفسه ويهجرها لقضيبيانيته .

العين ، خليفة الفم المدرّبة ، تفصل الذات عن الشيء وتستبق مسافة الانفصال الفعلي . ويقوي الجفن المغلق شعور الذات ، قدرة الانسحاب ، قدرة النوم . الانكفاء على الشهوة الداخلية بقدر

رفضهن فغضبن وطلبن من الآلهة معاقبته . وعطش يوماً فانحنى ليشرب من النبع فرأى صورته منعكسة فيه فعشقها وداوم على النظر إلى وجهه حتى مات ونبتت في المكان الذي مات فيه زهرة النرجس . (المترجم) .

(1) J. Mac Dougal, 1983 .

الانكفاء على الإثارة المعذبة .

وتحدث الرؤية المقيدة لعضو المرأة الجنسي مخاوف واضحة عند الرجل تجاه ما يبقى متوارياً . هذا الفم الذي يعيد غلق شفاهها ، هذه العين التي تختبىء بين جفنين يسببان تواحدات مبكرة ، تقويها تلك المسقطة على الباطن المخفي بهذه السياجات الهشة : المعانى العضوي والتأثرات الأولية الفطرية المضطهدة المرتبطة به تأتي لتضم نماذجها المتماثلة الى النماذج الشفهية والبصرية. والإستيهامات الذهانية للطفولة الأولى التي وصفتها م . كلاين قد جدّد نشاطهاالتحليل الأنثوي وأسقطت على باطن الجسم الأنثوي ووظيفته الجنسية . ونادراً ما يتبين الرجل من الوظيفة الأنثوية إلا ما هو مرئي منها : الحمل والولادة . فالمرأة في نهاية المطاف ملتبسة بالأم . وهذه الصورة الأخيرة تجمع الإعجاب والرعب : إذ يمثل باطن المرأة القدرة الكلية على الحياة وعلى حضور عضو الرجل الجنسي الذي تشعر بالانجذاب إليه . فالمنافسة الطفولية للطفل تجاه الأم الحاملة طفل الأب استيقظت ونشطت .

إن التقدير المفرط للخفي يظهر هنا . « ما الذي تدعيه النساء ولا أستطيع إدعاءه ؟ » . هكذا تساءل أندريه (André) ، خلال تحليله . لقد تحقق بحسد أنهن كن يمتلكن جميعاً تجربة الأمومة ، التي يستطعن الكلام عليها فيما بينهن . وكان يضيف إلى هذا التحقق أنهن كنّ يملكن أيضاً التجربة ليس فقط لامتداد ثمرة الرغبة ، بل لأن يكنّ مخترقات جنسياً وليس على الطريقة الشرجية . فالجنسانية المثلية الذكورية كانت تظهر حينئذٍ ، في أثناء ملاحظات أندريه ، كالرغبة في المحافظة على

جنسانية ثنائية قادرة كلياً ووهمية، لكنها كذلك مثل الالتباس الفاحش للشرج والمنفذ المهبلي . لقد كانت المتعة اللواطية فيه مختزلة إلى أنوثة مموّهة ومحقّرة ، كانت نوعيتها كذلك منتقضة ومفهوم التجويف الداخلي مقموعاً . وكانت تذكرني ردة الفعل المغتاظة عند هذا المعالج بالغيظ الذي عاناه فرويد كرجل وأب ، والذي لاحظه عند تعميمه[1] .

إن وفرة تصورات الالتهام ، التشويه والتحول التي يحدثها الحمل والولادة ، مصدر للمثلنة والكره ، للتنافس والافتتان . ومثلنة اللغز الأمومي للحمل والإنجاب ، فيما هو مرئي منهما ، تحدث تصرفات دينية معروفة جيداً وقديمة قدم العالم . إنها ترمز إلى المخاوف ومحاولات السيطرة على ضروب القلق والحصر التي يثيرها الجنس المؤتمن للغز . إن الإبهام الجنسي للألوهية المنجبة ، في العهد القديم والجديد* تترك مكاناً صغيراً للصورة الأمومية ، فيهوه لم يكن له زوجة . إنه أب ، أم كلي القدرة . والثالوث الكاثوليكي (الأب ، الابن ، الروح القدس) يقدم صورة ذكورية للمشهد البدائي الذي يؤدي إلى تجسيد الكلمة الإلهية . ومع ذلك شُعر في القرن الأخير بالحاجة المنطقية إلى تسليم مكانها إلى صورة أمومية ، بشرط المحافظة عليها عذراء .

وبالمقابل ، بدا الجسد المدمّر ملهماً طقوس تلقين الحضارات التي اعتبرت الأكثر بدائية ، وبلا شك لأن تقاليدها الدينية تبرز الكره

---

(1) سيغموند فرويد ، 1905 ب ، ص 59 . ملاحظة (أضيفت سنة 1920) : « في هذه الحالات النموذجية، تتحقق من غياب ، عند المرأة ، لتقدير مفرط جنسي للرجل ، لكنها لا تفوت تقريباً أبداً من إظهاره تجاه ولدها الحقيقي » (التشديد من قبلنا) .

(*) أي التوراة والانجيل (المترجم) .

الأصلي للأنوثة . والرجل ، مدفوعاً باستقامة جنسانيته ، يميل إلى مشاعر الحسد تجاه السيرورة الخفية للمخصوبة الأمومية . وبدلاً من جعل المرأة شريكة، يجعل منها منافسةً ويحاول بوسائل شرعية إنقاص قدرة رغباتها تجاه الأنثوي والأمومي. وتتوجه حركاته المخرّبة إلى الأجزاء المرئية من عضو المرأة الجنسي ، وأولاً إلى البظر ، الذي يعتبر ، كما هو معلوم من قبل فرويد ، كمطالبة مستمرة بقضيب مجهض ، اليوم . وبتر البظر ، المطبّق في حضارات عدة ، يرضي ، على ما يبدو ، استيهامات خصاء الأم القضيبية . وهذا البتر يطمئن الرجال على نتائج التواحدات الأنثوية التي تجعلهم يعانون من حسد القضيب والإذعان السحاقي . ويفرض الرجل على الأجزاء الظاهرة من عضو المرأة الجنسي الخصاء الذي يخشى منه على أعضائه الجنسية الخاصة . ولبعض العشائر عادة القيام بتطبيق البتر على يد نساء أخريات ، كأن ذلك للبقاء بمنحى من الجرم المرتبط بهذه الممارسات .

ولكن يبقى هذا الفم المغلق الذي ينبغي انتزاع شفاهه ، طية الفم التي كل الجسم مثار بها ، شبق مكثف ، نداء القضيب المنتصب . فم ملتهم للقضيب الذكوري ومقلق باللذة نفسها للإيلاج التناسلي الذي يضم رغبات مضطهدة . وبتر الشفاه ، المكمل إجمالاً لبتر البظر ، يبدو أولاً مخصصاً لحرمان المرأة من أعضاء ظاهرة للإثارة الجنسية ، ولحرمانها من كل متعة . ويحاول كذلك إلغاء عروض الأسبقية الجنسية على الفمية لأن الليبيدو عند الرجل متجمع في القضيب . ويؤدي بتر الشفاه الى تحرير الفتحة المهبلية وإلى تكثيف البحث الليبيدي فيها . ولا شيء حينئذٍ حاضر فيها غير النداء القلق للرغبة ، إلا فض البكارة الشعائري

المنخفض القيمـة بالنفـوذ الشرجي الذي تسقط فيـه . لذة الإيـلاج المنتقم ، لذة القوة المندسة في فتحة بلا حواجز ، عين بلا أجفان . عين ثابتة للذة الذكورية ، فيها يغوص الرجل ، ومنها يرى إنبثاق الحياة .

ليزت (Lisette)

ليزت صحافية ومصورة عمرها خمس وثلاثون سنة ، عانت كثيراً من اكتشافها أن الصور وتبعيتها تلازمها . وكانت الذكريات البصرية محفوظة حية في ثبات ذاكـرتها التي تـود احتواء الأبـدية . وفي تقنيـة عملها ، تتمتع بقلق من المظهر المتدرج للنسخ التي تغير صبغية الصورة بطريقة غير مطمئنـة لها . وكـانت هويتهـا الباطنيـة خاضعـة لتقلّب النظرة ، لا شيء مؤكد : لا الشكل ولا اللون ، إذا لم يكن هذا هو التغيير الذي تشعر بأنها تنزلق فيه وتضيـع . وكانت النسـخ السلبية للصـور التي تأخـذها ، بـالنسبة إليهـا ، اليقـين الـوحيـد ، ملكهـا الحقيقي ، قوة ذاتها . فهي تثبت الصورة من دون شك التبدّل . وقد سخر منها معاونوها لتملكها بشكل مسعور الفيلم الذي تحوله فيلمها ، مقابل نزاعات عديدة مهنية .

لقد جاءت ليـزت لرؤيتي لأنها تتـألم من وحدة ثـابتة كصـورها : خلاف مع عائلتها ، لا رفيق ، ولا طفل في حياتها . وكل مشروع من هذا النوع سيستلزم تشوشاً شبيهاً بتشوش الصورة البتوليـة المتحجرة التي تـركبت منها ، التي لا تستـطيع تخيـل سيرورتهـا بـدون خشيـة التفتت . فهي كائن لا ـ امرأة . الأمر الذي لا يعني لا خنثى ، ولا رجلاً ، ولا مرفوضة جنسياً . مثل الزهرة العقيمة ، التي ذبلت قبل

الثمر فالطفلة ـ الفتاة التي لم تنضج وغرائزها أنزلت حملها بقلق الوجود .

ولا نبالي كثيراً بمعرفة أية روابط لصورها قادتها إلى هذا الطريق المسدود . فهي نفسها صورة لهذا النوع الأنثوي السلبي ، الذي بالنسبة إليه المجهول المتحرك في الذات لا يمكن الاقتراب منه . وإذا اجتازت المتعة البصرية الأولى كلها فإن حياة الشيء تصبح مهدِّمة . لقد بنت ليزت نفسها على إنكار اللامرئي ، المستثمر بقدرها ما هو منظور ، والملحّ جمالياً بغيابه . في نظرها ، أنها تضيف العدسيات المرئية المتعدِّدة لآلة شرهة ، تجمع الصور التي تخضعها في هذه العلبة لتحفظ بنيتها الخاصة المعروضة هكذا : بنية موجزة متتابعة لفيلم فوتوغرافي متحيز تجاه الذكرى .

لقد كانت ليزت متألمة من الجمودية الضرورية لأشيائها الداخلية . وهذا كما لو أن حياتها كانت تزوبع قسرياً حولها بدون الإمساك بها . وهكذا تحافظ على توازن هش بينها وبين أشيائها . ووحدها النسخة السلبية لصورة ذاتها تشكل قسماً ثابتاً من شخصها .

أما بالنسبة إليّ ، أنا المحلِّلة ، سأكون لوقت طويل ، وربما دائماً ، العلبة التي تودع فيها هذه النسخة السلبية لكي تحميها في الجمودية المعقَّمة .

التجويف

« إن سيطرة المشاعر البصرية ، واقعية أم خيالية ، كبيرة بحيث تؤثر بقدرتنا على التفكير . ومن الممكن أن أكون ، لتجنب أن أكون تجريدياً

إلى درجة أن لا أفهم بعدها ، واقعياً إلى درجة أن أكون خادعاً »[1] .

وهكذا ، نعتقد أننا نتعرف ما هو الجنس والجنسانية وفق ما هو مرئي وظاهر . ومن اللامرئي ، يستنتج الرجل أن بعض الأمور ناقصة . فيرجع فيها إلى ذاته . إلى علم التشريح الذي يحدده ، إلى البصري ، واللمسي ، إلى الخارجي ، إلى النعوظ .

وكما أن فرويد استطاع التحقق من النظريات الطفولية للجنسانية ، يبدو لي من الممكن القول أنه أنشأ أيضاً نظرية ذكورية للجنسانية ، الأمر الذي لا ينقص من قيمتها المرجعية . والبرهان على ذلك الاستعادة الدؤوب والبنائية بين المحلِّلين اللاحقين له ، الإناث كما الذكور .

إن غياب القضيب عند الفتاة يحتم عند الصبي مخاوف خصاء حقيقي تشجع استيهاماته . وهذه الإنشاءات الاستيهامية التي تبررها المعاينات البصرية ، تعني أن ذيلاً جوهرياً قد ينقص . وتفتقد الفتاة عضواً جنسياً : ينقصها قضيب . نتيجة ذكورية تماماً . من هنا التفكير أن الفتاة الصغيرة ، التي تقوم بالمعاينات نفسها ، تشعر بهذا النقص ، وليس هناك إلا خطوة ، تجاز بسرعة .

بكل تأكيد ، تتحقق الفتاة بفضول من وجود قضيب لدى الصبي . وهو حضور يوظف مباشرة . ولن يكون هذا إلا بالتحقق البصري للإرسال البولي الذي يبقى عندها أيضاً غير مفهوم ، إلا أن يكون هذا برهاناً ظاهراً لفوهة إفراغ ومنطقة أحاسيس . كبت ، ربما ، ولكنه

---

(1) W. R. Bion, 1980, p. 10 .

يعطي معنى وتماسكاً للمعاني الجنسي المبهم المتموضع في الباطن ، في غير المسمى من جسدها ، في اللاقضيب . قبل كل تقدير « اختلاف » يحملها على الشعور بأنها مختلفة . وليس بالضرورة الشعور بنقص مكان للأحاسيس الجنسية . فاكتشاف الآخر أكثر من الغرابة يمكنه إثارة الحسد، تحت أشكال مبهمة. وبدون شك ركيزة للتطور من الجنسنة إلى الجنسانية . وفي حين أن خوف فقدان جزء من الذات ، لدى الصبي ، تقترحه مباشرة المعاينة البصرية للاختلاف . ليس لدى الفتاة شيئاً ناقصاً وليس لديها شيء للنقص . « [. . .] وإذا عثرنا على الدوام عندها على عقدة الخصاء ، أيمكن فعلاً الكلام على حصر خصاء في حالة يكون فيها الخصاء حدثاً قد سبق إنجازه ؟ »[1] .

وفرويد ، بوصفه جانباً إعتراض الخصاء « المنجز » ، يتحقق بدقة من أن مفهوم الخصاء يظهر عند المرأة بشكل متفرع من تشكيل هويتها الجنسية . والفتاة منغمسة بشكل أكثر مباشرة في المنافسة والمطالبة منها في خشية الخسارة. منافسة مع الأب باتجاه الكينونة : الكائن الحامل القضيب ، موضوع جنسي مفهوم لأنه مرئي . منافسة باتجاه التملك : تملك هذه الزائدة التي تعطي معنى ، بالنظر ، لما تعانيه فقط داخلياً حتى الآن ، تجريد منجز للبظر ، ليس مكتشف دائماً حتى الآن . منافسة مع الأم باتجاه الكينونة والتملك أيضاً الملتبسين بوحدة الرغبة للأب . أن تكون المرأة التي يزوّدها الأب باللذة وتمتلك بتصرفها هذه الوسيلة للإرضاء ، مثل الأم . وتبدو لي الرغبة بالطفل ، في الوضع الأكثر إبكاراً ، ملتبسة بالرغبة بالقضيب المدمج بالمهبل / الفم ، من

---

(1) س . فرويد ، 1926 .

حيث هو مادة جزئية للمحتوى الأمومي الأنثوي المتواحد . محتوى تأتي تكامليته لتؤكد وتقوي شعور قابلية الانفعال وشعور الداخلية الجوهرية والمبكرة لدى الفتاة الصغيرة مثل المعانى الفمي الذي يختلط به في البدء .

ويمكن لنظرية الثنائية الجنسانية أن تعمل كفرضية مؤسسة لقسم مشاعر الخصاء . الذي يحدده التشريح . وتبدو هذه النظرية بوضوح متحدّرة من بقايا الفكر المتأصلة في لحمنا ، الى الحد الذي تسمح به بتوضيح البحث عن الهوية والأخذ بعين الاعتبار الحقيقة التفاضلية في الآن نفسه ، وأخيراً بحث عن توأمية متكاملة .

ومع ذلك ، كما لاحظ ر . زازو[1] (R. Zazzo) بدقة ، لم يكن التوأمان أبداً متماثلين ، إلا بالتشابه الخارجي للمظاهر الجسدية . ويضغط حصر تشابههما بصرياً بقوة في جصورات الانفصال والتفاضل لدى التوأمين المتماثلين وراثياً . ويُظهر إستيهاميهما أهمية ضخمة لسيرورات التواحد الجنسي المثلي والتفاضل .

وتقربني رئايتي لنفسية أنثوية متأثرة مباشرة بالتركيب الجنسي للمرأة من فرويد مع ذلك ، ومن جراء أنه يعتبر الهستيريا كنشاط مفرط عقلي مرتبط بتصورات الأنوثة . تصورات ، الرجل نفسه أيضاً ، معرض فيها ، إلى حد ما ، في الواقع في إنشاءاته الاستيهامية الذاتية المتحدرة من التواحدات الأنثوية والأمومية المبكرة ، ثم من مخاوف الخصاء .

لقد اكتشف فرويد ، بداهة بنية العصاب الهستيري بالعمل المشترك

(1) R. Zazzo, 1989 .

الذي أنجزه ، مع بروير (Breuer) أولاً ، ثم بالتحليل الذاتي خلال علاقته بفليس (Fliess) . وقد أتمت مراسلته التعبير عن هوى محب أنثوي تماماً ملتجىء خلف الهموم الفكرية والإعجاب الذي يكنه لصديقه على الصعيد العلمي . ويبدو أن فرويد ، في الواقع ، هو في هذا الوضع ، متواحد بالرجل المخصي الذي ستكونه امرأة متعطشة للمتعة ، وعاجزة من جراء غياب القضيب . وقد طالب بالخصوبة كلذة فرويد بتعابير مفاجئة حيناً بالنسبة إلينا بقدر ما هي كاشفة .

إن إكتشافه للمراضة المميِّزة للهستيريا يؤكد لي وجود مصدر غريزي وبصراحة أنثوي ، ويجعل يقينه أكثر ضرورة أيضاً التوكيد الواقي للتفوق القضيبي . وفرويد ، المأخوذ في حدة حبه شبه التحويلي لفليس ، ينسب إليه القدرة المثالية « بسد طاقة العضو الجنسي الأنثوي »[1] . طاقة مقلقة للرغبة ، ما دامت منتجة بمعزل عن شدة الذكر . ويظهر فرويد الحاجة الى الاحتماء من الخضوع الذي يشعر به أمام الرغبة الجنسية بالمرأة . ويبدو حينئذٍ أنه ينسب ، بطريقة إسقاطية ، شعوراً بالقدرة الجنسية إلى الأنوثة ، صدى الهموم بخصوص Coitus interruptus* . وتبدو صلته بفليس كعلاقة غرامية لواطية دفاعية بين الرغبة المشتهية الجنس الآخر ونتائجها الواقية .

وخلال مدة « حبهما البريء » ، نسب فرويد إلى صديقه قدرة فكرية ينتظر خصوبتها الحقيقية . وزوّدته نظرية الحقب الجنسية المقارنة عند

---

(1) « رسائل إلى فليس » ذكرها ديديه أنزيو ، 1987 ، ص 440 .

(*) الجماع المنقطع .

الرجل والمرأة بعدد من الأفكار عن ميوله الخاصة الهستيرية وتواحداته الأنثوية . ولكن قدراته المتسامية ستتيح له الحصول على استقلاله وعلى التحرر من تأثير فليس . وآنذاك سيتعرف على أهمية الجنسانية المثلية في البنية الذهانية لفليس ، عندما سيشكل هذا الأخير نظريات شبه هاذية بمناسبة انفصالهما . وقد كامل فرويد بما فيه الكفاية ميوله الخاصة الأنثوية لاستخدامها في إنتاج نظرية صلبة للجنسانية .

جنفياف هاغ[1] (Geneviève Haag) لاحظت عند الأطفال الذين عمرهم أقل من سنتين حركة يد وصفتها كحلزون أو لولب . وهذه الحركة الطبيعية لفتحة نحو الخارج تنطلق من نقطة مركزية ، نحوها يمكن أيضاً أن تنقفل . وهذه الحركة ، الراسخة أكثر ما يكون في البيولوجي ، تظهر قدرة إنفتاح نحو الخارجي وتمايز إتجاه المنفذ إلى الخارجي ، بدون خطر التفريغ أو الانفجار ، واتجاه الانكفاء على الذات ، نحو الداخلي كمكان محمي بحد الحركة نفسه . وتبدو لي نقطة انطلاق اللولب منتمية إلى أيقنة الأنثوي . أصل وهمي في الفجوة النفسية ، يمتد كوضع حسب الأصول لتشوش الداخليات وينضم إلى الدوال الشكلية لـ د . آنزيو (D. Anzieu) .

إن الوضع حسب الأصول للانتشار الباطني ، المتجمد في التصورات الأمومية ، يدل على مفهوم النموذج ومفهوم خطي تدرج النساء . إنه يبعد الثلث الذكوري و ، من هذا الواقع ، يلحّ على

(1) تواصل شفهي (Communication orale) . باريس ، 1988 . « الرسم ما قبل التصويري للطفل ، أي مستوى من التصور ؟ » صحيفة التحليل النفسي للطفل ، عدد 8 . باريس . أول فئوية ، بدأت بالظهور ، 1990 .

السمات السلبية ، وحتى المضطهدة ، لأمومة المرأة وتناسليتها .

ويبدو لي اللولب كالسابق ، عند الطفل الصغير جداً ، دالاً على ضرورة التمييز عن « النموذج » بالبقاء كما هو . على كل حال ، هذه الاشارة ، عند الفتاة الصغيرة ، تأخذ بالضرورة هذا المعنى ، مع البقاء تماماً ، على وجه الاحتمال ، مختلطة بشبكات الجنسانية الثنائية . ويستطيع مفهوم « الهيجان البدائي » لـ ف . توستان إعطاء صورة للانفصال الأنثوي والذكوري : هيجان الذات نحو الباطن عند الفتاة ، ونحو الخارج والعضلي عند الصبي .

ويستدعي الخط الذي ترسمه الحركة اللولبية أيضاً الانفصال بين صفحتي الجلد الخارجية والداخلية ، الصفحة الداخلية بكونها تلك التي تنشر تجويف الأنوثة في الجهاز النفسي . والتجويف ، باطن سياق النفس ، يفصله كذلك خط العمق عن الأنا ، في نسيج الأنا نفسه .

وهذا التمييز ، بنوع من الحجاب أكثر قرباً من طية موبيوس منه إلى الطية الورقية الواضحة ، يمكنه عرض الحركة التي ستتسرب إليها الرابطة بالمشهد البدائي بواسطة أثر الأب . والنسيج الأمومي الذي ينتج الجهاز النفسي مطبوع بهذا الأثر في قوام الاستيهام . ونقطة رسو اللولب عند الفتاة الصغيرة هي نقطة أثر الأب ، رفض هذا الفراغ الباطني الذي ينسب إليه على التخمين غياب القضيب : فلا معانى ، لا وعي للذات الأنثوية ، وبالتالي لا فكر إن لم يكن لا حسد تجاه القضيب الخارجي المكتشف في هذا العمر عند شخص آخر . هذه النقطة الأولية للذات الأنثوية تستمر في تصوراتها عند المرأة وتأتي بلا شك ، في

تطور طبيعي ، لتحل محل هذا « الجزء المفقود » (ج . هاغ) الذي يسبب الذهان بشكل عام ، بل ربما الهستيريا أيضاً . و« الجزء المفقود » محفوظ في التدرج الأنثوي الطبيعي في معناه كتجويف منقول من الأم إلى الفتاة ، وموظف في موارد المتعة والخصوبة .

* * *

وإذا أردنا فعلاً اعتبار الرحم ، والمهبل الذي يؤدي إليه ، كالمعادلين الجنسيين الأنثويين للخصيتين والقضيب ، يمكن أن نتصور كذلك كمعادل رمزي للقضيب المنتصب ، التجويف . تجويف ليس نقصاً ، ولا فراغاً . منفذ ليس كذلك ثقباً ، هاوية بدون نهاية . وهذه فتحة نحو عمق يحدده غشاء . مكان لذاته ، قادر على نشاط ذاتي ومستقل . وعاء ، حجرة ، منتج أو مخرّب ، تماماً كقضيب منتصب ، بأشكاله المختلفة . وفي التجويف الجنسي الأنثوي القابل للإثارة تتفجر الغرابة المقلقة ، اللامرئي ، السر ـ وأحياناً المعترف به . مكان الاختلاف والغموض القابلين للانعكاس . نهاية الاتجاه ، جيب كارثي[1] ، تغيير أصلي حيث الرغبة تولّد الحياة . والاستيهام القضيبي يوفّق فيها الأنثوي المتشوق مع الأمومي لملئه أو لسدّه . ليغطي به كل الفضاء الخيالي ، فضاء الرغبة غير المشبعة .

ويحدث الجرم الذي تكشفه اللذة المحصّلة الدفاع ويجعل من التجويف الأنثوي مقر الوسواس ، إخفاء الأشياء المشتهاة ، المرغوبة

---

(1) بناء على أحد الأشكال الرياضية للكارثة وفق رنيه توم René Thom .

والممنوعة . فتحة بلا توقف ملتفة إلى نتوئها . همّ أساسي للتجويف الأول الأساسي المتعرف عليه في مرآة الفجوة الأمومي . ما يتوجب على الهستيريا الجانية ، الانهيار المخفّض القيمة ، الوسواس الخادع ملأه بالريح ، بالكلام الهاذي ، بالفكر الهاذي ، التي لن تبلغها أي تحوّل ، لا بفضالة صلبة ، ولا بمادة حية من جديد متشوقة . تجويف للسدّ ، للإخفاء أو أيضاً للتمجيد . تجويف شهي حتماً ومرعب ، إختفائية الرغبة .

« لا شعوري آخر ، ما سيكون للمرأة ؟ »[1] سؤال ؟ سؤال رجل ؟ « أو إذا لم يرجع للأنثوي ، جزئياً ، هذا الذي يعمل تحت إسم اللاشعوري ؟ »[2] . وبالتأكيد كيف يستدعي هذا التجويف الأكثر أنثوية قلبياً والأكثر تجاهلاً من البشري المتعقل ، تجويف الحياة هذا ، هذه الزاوية الصغيرة المخبأة السريعة التأثر بلغز التعشيش المتواصل للكائن ، استعارة أو صورة من اللاشعوري . إن لم يكن اللاشعوري نفسه . كاتدرائية في فضاء ضيق حيث تدوّى أصداء الممكن في ثمانينات الحياة ، ولادة وموت ، حب وعنف .

---

(1) Luce Irigaray, 1977 .

(2) المرجع السابق .

الفصل الثالث

مازوشية

أدويج (Edwige).

الفتاة (ست سنوات) تملأ المغسلة ، التي سدّتها . بادىء ذي بدء بمساعدة ممرضتها . إنها تشرب الماء ملء شدقيها . وعندئذٍ ، وبوحشية ، تشرع بتقطيع وتمزيق حلمة الرضّاعة التي غمستها فيها ، رامية نظرة انتقام فاحشة إلى ممرضتها . وهذه الأخيرة تشعر أنها تتمزق بين أسنان أدويج ، بنظرتها أيضاً . ثم تغمس الفتاة في الماء الذي تحتويه المغسلة ، محتوى قلم التلوين (feutre) الذي « خلَعته » فتمتلىء المغسلة بسائل أحمر فاقع . حينئذٍ ، بهدوء ، وبمتعة سادية ، منفِّرة ، يائسة ، أمام الممرضة المصعوقة ، تترك هذا الجسم الصناعي ، هذه الرضاعة المشوهة يدمى بعناية ، نقطة نقطة ، على الأرض .

رفعت أدويج عينين شبه زجاجيتين وفارغتين نحو وجه ممرضتها التي تمكث قربها ، بكماء ، جامدة ، مسحورة . وصاحت الفتاة : « لا تلمسيني ، أنت تؤذيني ، لا تتكلمي » . ثم ، فجأة ، استدارت وأطلقت ، نبرة اجتماعية ، لازمة مألوفة : « هذه ليست مشكلتي » . وتركت ، تحت عيني الممرضة ، بركة دامية . وعند باب الغرفة ، رفعت عالياً جداً نظرها ، ومثل أليس Alice ، صاحت ، متوجهة إلى ممرضتها المنتصبة إلى جانبها : « ولكن توقفي عن الكبر » .

لقد كانت والدة أدويج ، مضطربة سابقاً من هذه الفتاة الصغيرة عندما ولدت : ولم تكن تعرف ما تفعل بها . ومنذ بعض الوقت ، صار لأدويج أخ صغير .

إنني لا أشك في أن أدويج لو كانت بالغة ، فإنها ستفتح قبضتيها . وهي أيضاً قادرة على نقل قساوة حياتها إلى لعبة رمزية . وهذا بفضل الطفولة . وسيكون لدى أدويج الكثير من الصعوبة للتخلي عن حالة العطف هذه . كانت تعاستها في مواجهة الأنوثة في عائق بدون مخرج حتى الآن من جراء أنه يخلط مستويين مستوى الرؤية المستحيلة للعضو الجنسي الأنثوي ، ومستوى وضع مازوشي مؤلم مرتبط بهذا الشكل الذي لا يمكن تصوره .

في بعض أسس المازوشية عند المرأة

مغتصبة ، مضروبة ، حامل ، مخدوعة ، مهانة ، مباعة . ولكنها دائماً امرأة . فـ « الشرط الأنثوي » يثير « العضو الجنسي الذكوري » . باب دائماً مفتوح . ممر للذة والعنف . حدود ممنوعة تنتهكها الحياة . التباس بين الحب والموت ، الحسد والرغبة .

المرأة ، مازوشية ؟ ولكن كيف لا ؟ أينبغي أيضاً تحديد معنى هذا الوصف المخفض القيمة بدقة .

« [. . .] واحدة مع الرغبة ، كنت الطاعة
طاعة مداهمة ، مرتبطة بهاتين الركبتين المصقولتين ؛
من حركات سريعة سريعة كانت أمنياتي تمتلىء .

وكنت أشعر بدافعي يكاد يكون أكثر خفة »[1] .

دافع في أيامنا أيضاً مفهوم بشكل سيء جداً وهذا الذي استطاع التفكير به فرويد لم يغير سوء التفاهم هذا ، مازوشية : « [. . .] تعبير عن كينونة المرأة »[2] .

وفرويد ، بدراسته هذا « التعبير » « عند الرجل [. . .] بناء على المواد التي أتصرف بها » . لقد تعرّف في « الاستيهامات المازوشية [. . . .] على وضع مميّز للأنوثة ، وبناء عليه فهي تعني أنها مخصية ، تعاني الجماع أو التوليد »[3] . فيتعلق الأمر إذن بـ « مازوشية مثيرة للجنس » ستجر سمات الأنوثة فيها إلى توظيفها .

ودائماً مساواة الجنسانية وعضو المرأة الجنسي مع الخصاء الخيالي للرجل . غياب ، حرمان ، نقصان القضيب . لا كائن ـ امرأة . إستيهام ذكوري ، « ممثّل نفسي » للغريزة الجنسية عند الرجل في أشكالها الخاصة .

لقد قلت سابقاً : إن وضعي النظري يعكس فكرة أن العضو الجنسي ليس الجسم كله وأن الفرق بين الرجل والمرأة لا يكمن فقط في غياب القضيب عند هذه الأخيرة ، ولكن على الأقل سواء في وجود مجرى ووجود تجويف جنسيين . وبهذا المعنى الخصاء الذي تخيله فرويد

---

(1) پول ڤاليري : مرجع سابق .

(2) س . فرويد « المشكلة الاقتصادية للمازوشية » في : العصاب ، الذهاب للانحراف ، Névrose, psychose et perversion . 1924 .

(3) المرجع السابق .

سيكون الحرمان من عضو خارجي يمكن للمرأة أن تحصل على صورة له ، ولكن ليست الحاجة بالقوة . ويرتبط الشعور بكون المرء مخصياً ، عند المرأة ، أكثر بالخشية من اختناق أو من حرمان من عمل الحساسية المهبلية والخصوبة الرحمية .

ويوجّه مفهوم الخصاء فرويد نحو مفهوم الموت ، تحت شكل « ثبات لاعضوي» يضاد ويخرّب عمل الليبيدو ، ويقترب أكثر من شعور الخصاء عند المرأة . حصر الخصاء في داخل الجسد الذي ، برأيي ، يدفع الرجل إلى إنشاء دفاعات ضد الصورة الأنثوية الحاملة الخصاء والموت ، من خلال فرضه على النساء ، في العالم الاجتماعي ، إكراهات مؤسسة على القوة العضلية وبمثلنته ، في العالم الأخلاقي ، جزءً من الأنا العليا مخصصاً لتقوية مشاعر الذنب والدونية. وهكذا يخضع الرجل المرأة لسادية امرأة قادرة على كل شيء والتي تثير مخاوف وعلامات مرضية مثل البرودة ، والعقم والوسواس . فليست المازوشية الأنثوية إلا أحد انزعاجات الأنوثة التي وصفها لنا فرويد .

وينبغي أن نعترف فعلاً أن المرأة ، بإيعاز من بنيتها التركيبية الجنسية ، قد أطلقت خضوعها للقوة ولرغبة الرجل . ومن الممكن أيضاً البحث عن مصادر هذه الحالة بالفعل .

إن التأكيد بأن المرأة كائن ناقص وضعيف ، خاضع للمعاناة وفي الوقت نفسه لجنسانية الذكر ، يبدو لي مفهوماً مرتبطاً بـ « الميل العام إلى الجحود » . إذ يتشكل هذا النمط من الدفاع « ضد الحصر الاضطهادي والذنب اللذين يظهران عندما لا تستطيع الغرائز المخرِّبة

أن تكون مسيطرة عليها كلياً »[1] .

فالحصر الذي يثيره عند الرجل العضو الجنسي للمرأة وأسرار الحمل يولد عنده ، والحاجة إلى إنكار الجنسانية الأنثوية ، والرغبة في السيطرة عليها .

وتسبِّب الجنساية الأنثوية استيهامات الخضوع باستحضار الإيلاج الضروري والآلام المصاحبة لتوليد الطفل . ومن هذه الصور تحدر مفهوم « المازوشية الأنثوية » . وهذا المفهوم مشترك بسهولة مع مفهوم « المازوشية المثيرة جنسياً » وملتبس معه .

وإذا أخذت بعين الاعتبار ، كما يتوجب ، تجربة النساء المعاشة ، تبرهن التجربة العيادية بسهولة أن الآلام البدنية لفض البكارة والمخاض هي نادراً مصدر للذة . ولكن إذا كانت الاستيهامات الاضطهادية المبكرة متكاملة بشكل طبيعي ، فإن هذه الآلام عفوياً وسريعاً تُنسى لتفسح المكان لقسم من اللذة يسمح به الفعل الجنسي وحياة الرضيع . وعلى العكس من ذلك، عند الرجل كما عند المرأة ، مفهوم المازوشية مثل « تعبير الأنوثة » يبدو مرتبطاً بتصورات الجنسانية المشبعة بقوة باستيهامات السادو ـ مازوشية الأولية ، التي عزّزها البلوغ بتحويلها إلى دفاعات للأنا العليا .

ويبدو الانحراف المازوشي مرتبطاً بتكامل سيء للعدوانية المبكرة المرتبطة بغموض دائم للمناطق المثيرة جنسياً وإذن للأنماط الجنسية . فصعوبة تغيير الموضوع ، المفهوم كعدول عن الاتصال الأمومي ،

(1) Mélanie Klein, 1957 .

يتدخل كذلك في هذه المِراضة . ويبقى الشخص إذن خاضعاً لسادية أم قادرة على كل شيء ومضطهدة ولا يستطيع الحصول على إكمال رغبته الجنسية إلا في الخضوع لهذه الصورة .

جوزيت Josette هي البنت البكر لثمانية إخوة وأخوات . ومنذ نعومة أظفارها اهتمت بالأكثر صغراً من إخوتها . إنها تكره وتحتقر أمها ، ولكنها تعاني في الوقت نفسه نحوها من إندفاعات خضوع وإعجاب تجرها إلى أن تضحي في سبيلها بوقت فراغها. فتخرج معها، بدون لذة كما تقول ، أخرى غير التخفيف من جرمها . وقد وجدت منذ قليل من الزمن صديقاً جعلها تتحمل خدمات جنسية تلعنها وتشكو منها . ولكن الحدث الذي فاجأها ، هو أنها تتمتع ، على الرغم من أن العلاقات الجنسية لم تأخذ أبداً الشكل الذي تتمناه . واحتقار الصديق للعضو الجنسي لجوزيت بدا لهذه الأخيرة محزناً ولا سيما عندما أصغت باكية إلى الصديق يروي لها كيف يمارس الجنس مع نساء أخريات .

ليست جوزيت منحرفة . وبانت مازوشيتها الحزينة بسرعة في علاجها ، مرتبطة بصورة أمومية مرتاعة لأنها مهاجمة بمشاعر الحسد منذ الطفولة الأولى . وتحويلها الأبوي ، ثم أيضاً الأمومي الممثِلن . حماها لوقت ليس بالقصير من المخاوف التي أنهتها جيداً بإسقاطها عليّ بكثير من الحصر . فهي تحتقر الفتحة الأنثوية مع أنها موظفة بكثافة ، وكل حمل مبعد من مشاريعها . كره للإنتاجية الأمومية ، استيهامات تستحضرها على الجماع غير المنقطع للأهل ، رغبة في أن تكون محبوبة مثل الأم ولكن خوف من أن تنجب أولاداً سيكونون آنذاك أدلة على ارتكابها المحارم ، وحملوها على إيجاد شريك هو أم سادية أكثر منه صورة لأب محب .

الـ « معبر » الأنثوي

والحال أنه بحق فعلاً يميّز فرويد الأنوثة بـ « تحمل الجماع ، أو الولادة » . ويشير كذلك إلى مفهوم الشق الذي يمنعهم مفهوم الأنوثة . وينبغي ، كما أعتقد ، أن نضيف إليه مفهوم المعبر فالشق الفرجي ، في الواقع ، مكان عبور لا يمكن السيطرة عليه مثل عضلة عاصرة وهو ، من هذا الواقع ، يحدد خصوصية المشاعر المتموضعة فيه . وكذلك إذن التصورات والمعنى الذي يضفيه عليها . ومع أن التوظيفات المثيرة جنسياً للمنطقة الفمية قد خلقت انفعالاً عصبياً مباشراً ، وليس هذا إلا بتحرك الأشياء في إتجاهي الشق ، فإن الاختلاف المهم يتعلق بإقفاله .

ينبغي أولاً الإلحاح على التمييز[1] بين القناة المهبلية والكيس الرحمي . وإن تلبيس أو إلغاء الحساسية المهبلية[2] يعود إلى إنكار المرأة لصالح الأم . فليس الرحم منطقة مثيرة جنسياً . والحَبَل بطفل غير محسوس تماماً ويمكن إنجازه خارج لذة المرأة . وعلى العكس من ذلك ، ولادة الطفل ، تكرس فيه الحقيقة المحسوسة ، أساس قسم كبير من الاستيهامات التي هو موضوعها . فالحساسية الجنسية للمرأة متموضعة في المهبل وفي المناطق الخارجية التي تجاور الفوهة .

---

(1) درسه بطريقة دقيقة د . برونشويغ (D. Braunschweig) وم . فان (M. Fain) ، 1975 .

(2) في سنوات الثلاثينات ، كارن هورني (Karen Horney) وميلاني كلاين ونساء محلّلات أخريات دعموا ابتسار (إبكار جنسي) وأهمية توظيف المهبل عند الفتاة . ذكر ذلك ج . شاسغوت ـ سميرجل (J. Chasseguet-Smirgel) ، 1964 .

ومثل الفم ، الأنف والعين ، المعبر المولوج فيه يعمل في الاتجاهين . وعلى العكس من الأذن ، والفتحة البولية والشرج . والبث نحو الخارج الذي يحدد تصورات الطرح والإنتاجية ، وتصورات العلاقة مع الوسط ، موظف أيضاً جنسياً من قبل المرأة . ومع ذلك يبدو بوضوح أن التوظيف الجنسي للشيء يتم عند المرأة في اتجاه غريزي مهيمن نحو الداخل ، في حين أن عند الرجل ، الغريزة موجهة فقط نحو الخارج . ولكي يصل الرجل إلى الرغبة المحرمة ، ينبغي أن يتخلى في ذاته عن « نقطة التجربة الخارقة التي هي مقموعة كلياً والتي في كلية الواقع لن تكون أبداً بالنسبة إليه نقطة الاستدلال »(1) . خصاء اللذة الفمية التي لم تعانيها المرأة . فهي تنقل هذه اللذة مباشرة إلى المنطقة التناسلية وتحفظ السمات نفسها .

والجسد الشقي للمرأة موظف من الخارج الى الداخل فيما يخص التوظيفات التي يمكنها الامتداد من الاغتصاب الى الانتعاظ* وإلى الحمل . وإن الهدف المزدوج للمزاوجة ، لذة وإخصاب ، يضع المرأة أمام مبدأ الواقع : بالسعي الى الانتعاظ ، تحصل على الطفل . وللأولى كما للأخرى في نهاياتها ، فهي معرضة للعنف القضيبي ، الذي ينبغي على جسد القضيب تحويله من أجلها إلى رغبة إيلاج وإرضاء . وينبغي على الكبت أن يكون قد أوقف المشاعر المبكرة للاضطهاد للسماح ببلوغ الاتمام الطبيعي للمتعة .

---

(1) Lou Andréas-Salomé (1927/5/20) ، 1970 .

(*) الانتعاظ : ذروة اللذة الجنسية .

وتدخل العدوانية تجاه القضيب ، إلى حد كبير ، في الاستيهامات التي يؤسس لإندماجها الواقعي على يد المرأة في الفعل الجنسي . وعودة الاستيهامات المتوحشة ، بوساطة تقدم التواحدات الإسقاطية المرتبطة الجنسانية الثنائية ، هي بلا أي شك واحدة من مركبات الموقف المازوشي الأنثوي . وحجز موضوع اللذة داخل الجسم حقيقة أنثوية . والتحول السادي ـ شرجي ، الثانوي ولكن الاضطهادي لقدرة حفظ الموضوع ، من السيطرة على نفسه ومن التحولات الذي قد يعانيها ، هو الوسيط الضروري للتصورات الأنثوية للعمل الداخلي والحمل .

ينبغي إذن التأكد من أن فرويد كان محقاً أيضاً عندما ربط المازوشية « المثيرة جنسياً » بالمخاوف الطفولية للالتهام ، باستيهامات الخصاء ، بالسلبية وبالغرائز الجزئية . ولكنه لم يذهب الى حد تصور حالة المرأة الموضوعة أمام ضرورة توظيف ، بشكل إيجابي ، الاستيهامات السادية المبكرة للإيلاج ، لالتهام الثدي والقضيب ، الألم الجسدي المرتبط بالرغبة تجاه الموضوع ، للمحافظة على الإضاءة الشهوانية لقسم من الوضع الاضطهادي الأكثر إبكاراً .

وقد تؤثر المرحلة القضيبية بشكل خطر، على حساب التصورات الأنثوية ، في أشكال هذا التوظيف وتوزيع الغرائز الجزئية التي تؤسس له . إما بتضخيم هذه التصورات وكذلك بإطلاق المِراضة المازوشية والسلبية الهستيرية مع سعيها إلى المعاناة . وإما بإضمار والسماح بسيطرة القضيبانية مع نتائجها الوسواسية ضد لذة منقوصة القيمة .

وتتضمن تبعية الجنسانية الأنثوية للإيلاج كذلك قدرات تكامل

موضوع داخلي جيد ومن قبل حركات اضطهادية ينبغي أن تصبح إيجابية ، ومعناها ينبغي أن ينعكس : مثل الالتهام ، والابتلاع ، اللذين يوظفان الموضوع بحدة . وتسمح قابلية الانقلاب للتوجه داخل/ خارج للذة الفمية في أن تكون منقولة مباشرة إلى التناسلية، الموضوع الشرجي مفهوماً كوسيط تمثيلي للذة الإبعاد. والكلام الأنثوي الموظف بسرعة في التطور الوراثي ، يحمل سمات ، حتى في نتاجه الكتابي ، المشاكل التي تمثل في نسق التضادات أنوثة / قضيبانية الموضوع .

إن تجاوز الحد الذي ترده الفوهة الجنسية الأنثوية ، على وجه الاحتمال ، إلى تصورات الممنوعات . التصورات التي تثير جزئياً لذة المرأة في نطاق ما يكون هذا الانتهاك جزءً متكاملاً لتعددية الأشكال المرتبطة بالعمل الجنسي للمرأة ، وحيث لذة عبور الحد جوهرية لها .

ومن الممكن فهم أن الإثارة المظهرة نحو الذكر ، التي تسمى دلالاً أو حتى هستيريا ، متحدرة من الضرورة الأنثوية في الحث على الإيلاج ويمكن أن تذهب حتى الحاجة إلى معنى مؤلم ، سيوصف حينئذٍ بالمازوشي .

إن التجربة النفسية للفراغ الداخلي يمكن أن تكون مؤسسة على التهيج الجنسي الأنثوي الذي يؤدي الى رغبة الإيلاج . وجاذبية التجويف هذه نحو القضيب بمزيته الغريزية ، تشبه التوتر العلومي . وتصبح المعرفة آنذاك تواصل التجويف والقضيب . فتلتبس الهوية في هذه النقطة مع القضيب الوالج ، الشبيه بمحتوى اللذة إذا كان وافياً

بالمرام لها ، وغير متميِّز في الحدود التي يلتبس فيها مع الأنـا ـ اللذة .

بمقدار ما تفترض الفضولية شهية مدى داخلي للمحتوى الذي هو خارجي له ، يمكن أن ننسب إليه صفة الأنوثة . ويحث المدى المتفتح للمعرفة على الإيلاج من قبل القضيب الذي ينتظر الاحتواء . وتبدو غـريزة التـأثير إذن نشيـطة في السمـع والنـظر ، فـالأذن كـالعـين ، المسحـورين بشيء شهي يحصرانـه في فضـاء مغلق ، ولكن كـذلـك يدخلانه في حاوٍ راغب . وتستطيع بعض العلاجات الطبية الجلدية ، في هذه الرثاية ، أن تكون مفهومة مثل نتيجة نية لا شعورية في تثبيت نظر الآخر على سطح الجسد لاختلاس الإيلاج المرغوب منه . وهكذا تنطرح ثانية مسألة القضيب الجمالي الذي صوره ملتزر (Meltzer) : أهو أكثر جمالاً في الداخل ؟

ويستطيع مفهوم « الدال الشكلي » إعطاء فهم نظري ـ عيادي للذة الفوهية التي اعتبرها مختصة بالأنوثة . وتفترض هوية المرأة ، في الواقع ، في بنائها الطبيعي ، توظيفات لـ « ثقوب » الغلاف الجلدي أكثر تناسلية مما هو ضروري عند الرجل . وستمنحهم الذكريات الحواسية المبكرة معنى مثير للجنس : فالأنف ، والفم ، والأذن ، والعين والجنس هي كذلك ثقوب عبرها يدخل الإيروس في المرأة . والمكوِّنة الدينامية لهذا التوظيف يمكن تعليمها لدى الطفل الذي تصوراته الأولى الرمزية رسوم حدود في مساحة (خطوط ودوائر) .

وتكشف التحويلات الجنسيـة عند الـرجل في الآن نفسـه التباس المناطق المثيرة جنسياً والحدود الفوهية ، إنكار الوعاء المحدد بالفوهـة الأنثوية ، أو أيضاً التباس الوعاء مع هذه الفـوهة ، وتـوظيفاً فـائقاً

للإيلاج القضيبي الذي يشير إلى الطابع الدائم للسادية الأولية المسبَّب من اندماجية حلمة مضطهِدة . « أصير امرأة » كتب جوهاندو (Jouhandeau) لأنه ، باللواط ، كان يكتشف « الاستمناء الإيجابي » . ولم تكن تصورات التداول وقذف الجسم الشرجي محضرة بشكل كافٍ لتتيح ترك الحسد المدمر نحو المحتوى الأمومي والتحول التناسلي لهذه التصورات .

وفي سجل قريب ، المكوِّنات المنحرفة لمعاناة فقد الشهية إلى الطعام تبدو لي أنها تشكل دفاعاً ضد رغبة الاغتصاب الفمي ، وفي الوقت نفسه ضد تدمير الشيء المرغوب بدمجه الحسود . وحينئذٍ سيصبح تجاوز حد ممنوع ، لأنه مجنسن منذ التصورات الأكثر إبكار ، مصدر لذة ملتبسة بطريقة واضحة جداً مع الاستيهامات الاستنهائية ورغبات إيلاج القضيب الأبوي . وتشغل الأنا العليا الأمومية ، المرعبة والمدمرة لأشياء اللذة ، في هذه الحالات الفضاء الداخلي لصورتها غير المحدودة .

وبالمقابل ، النتيجة الطبيعية للذة المعانى عند الإيلاج ، تسترد بلا شك في إصغاء المحلِّل النفسي . وتبدو المرأة ـ المحلِّلة مستعدة سلفاً لمنح المعالَج غلافاً ـ إطاراً يتجمعان فيه ويهاجمان بشكل طبيعي تماماً الأشياء التي تحويلها سيستدعي النزاعات . ويتحقق الإعداد المسبق بين التحويل ونقيض التحويل مثل الإعداد البويضي الذي ستكون ثمرته شخصاً جديداً .

Hilflosigkeit : أوريديس* (Eurydice)

لحن الـرجل يـرشدك إلى مصـيرك . وإذا أردت حفظ وهم أنك محبوبة ، لا تنظري إليه . إنه يقودك إلى الجحيم . لحن صوته ، كلمات حبـه ، فتنته العـابرة : أخـطاء . إنها الغنـاء الجهنمي الـذي تحـوّلـه حواسك .

كيف لا تؤمنين بذالك ؟

بالكاد كنت تفرين من جهنم ، أعادتك خطواتك إليها . تحترقين باللهب الغريب عنك .

ينبغي أن يسير أمامك ، ظهر مولىً لسعادة ، منك يتفجر الضوء . شرط حلمي : بـين الأرض المزهـرة والكهوف المـظلمـة . فضـائـل السلام ، أهوال اليأس . وبلا إنقـطاع على الخيط المـريب للذرى ، السقوط على آثار الخطوات ، مفضـوضة بـاللذة أو مجزأة بـالحصر . أبدية ، تقدمك بين الضوء والظل ، مبعدة عن ذاتـك دائماً عـلى يد الرجل المغوي ، لا شيء إلا الحلم بذاتك . مرغوبة مجهولة .

كيف تتعرفين على نفسك ؟

ستعـودين إلى الأبد . بـين اللحم والموسيقى هـا أنت خيـاليـة : تعتقدين أنك محبوبة ، لست إلا مشتهاة . مدة أغنية .

ضائعة بلذتك .

(*) أوريديس في الأساطير زوجة أورفيوس التي ماتت فحزن عليها زوجها حزناً شديداً ، وهبط إلى العالم السفلي لاستعـادتها . فـأعجبت الآلهة بـألحانـه وأغانيـه وسمحوا لـه باصطحاب زوجته إلى العالم العلوي شرط ألا ينظر خلفه فأطاعهم إلى أن وصل إلى الباب فنظر خلفه ليتأكد من وجود زوجته فاختفت في الحال (المترجم) .

الأسود الداخلي يبقى ميدانـك ، المروق بـأمواج الـدم ، بزمجـرة الأهـوال والاقتلاعات . . . أنت تؤلهين النار ، حدّاد الموت ، مخادع الحياة . لحن الحب لن يتوجه أبداً إلى ما وراء الضفاف المعتمة إذا لم تعتقدي بالحب .

جريان ، حجز

لا تدعي الأشياء تفلت . وسواس . تدميرها . خواف . ضياعها نهائياً . إنهيار عصبي . كيف ، بدون إفلاس الهوية ، يميّز شخصه من الأشياء المكوّنة التي تحدده ؟

كيف لا تسلّمها إلى الأم ـ المنافسة بلا تحفظ ؟

الفـوهة الأنثـوية تعمـل كذلـك نحو الخـارج ، مكان خـروج : جريانات ، ولادات ، إخراجات وإنزلاقات بخارج الجسم . حليب ، حيض ، طفـل . وفرة تبـدلات الجنسانيـة في مظاهـرها الأمـومية . إفراغات لا يمكن السيطرة عليها ، جسم منفلت باستمرار، فوهة غير مسدودة أبداً ، إلا مؤقتاً بقضيب اللذة . أو أيضـاً بألم الانسـدادات المراضية (Pathologiques) . إنفغار يحاول تمويه الحيـاء الغامض . وظائف تعيد إنتاج الحياة ، تفرغها أو تـتركها تفلت . دمـوع العضو الجنسي . تفريغ رهيب إذا لم يكـامل الاضـطهاد الـداخلي للطفـولة الأولى ، واضطهاد الأم الكلية القدرة والمخصِية . أجزاء من الذات ، حية أو ميتة ، مهجورة ، ضائعة .

تواصل السائل ، سيلان بدون تحول ظاهر ، فم ـ حالب ـ مهبل . إسـالة الجسم الـذي ينـزلق بـلا تحفظ . جمـل إطـوائي بـالتغـيرات

الـداخليـة ، إصـابـات ولـذات . شعـور وحيـد بمعـبر بـين العـالي والمنخفض . السائل يخلق المجرى .

لكن الحصر من الضياع إلى الخلاء كذلك مُجلى عنه مع الشيء . إبتعـاد الذات مـع الأمـومي . فـرج منـه تفلت الأم . ممتـلىء جـداً بالأمومي . إجهاض الذات ؟ إكمال الأمومي فيما وراء ما تبقى المرأة فيه .

إحتفاظ وداخلية

خاضعة لمفارقة الإفراغ من فوهـة مثيرة للجنس : أسيكـون هناك أيضاً أساس لما نسميه مازوشية ؟

كل شيء ينبغي في هذا الحد أن يصبح متماسكاً على مرأى من الحصر المستحضر . مثل الجماد في يـد الذهـاني . محفوظ في نقـطة الارتكاز المنيعة ، علاقة المحسوس بالجسدي التي بدونها كل شيء يفلت مـع السائل . يدر غلاف لصـلابة الجسم . مـع الجسم الفمي ، الجسم الشرجي سيكون نموذجه .

منزلقة في المجرى الرقيق ، حلمة ـ الحليب ، مادة كـل إشباع ، تنقل اللذة من خلال الجسم . يشبث بها الليبيدو ضمن التحولات ، التخريبات والخسارات المحتومـة . وينضم إليها سريعاً الأنف والأذن والعين : الاستيهام يتأسس مع المعاني .

إيلاج ، إنزلاق الى الـداخل : كيس اللذة والحصـور يتأسس في الاتصال داخل / خارج الجسم الأمومي . من الخواء الذهـاني ينبت

النرجس : ما يبقى داخليا ، ما يعاني خارجاً ، ليبيدو يبقى في فضاء الأنا .

الغائط والطفل : قطعة من الذات تورِّد ألم ولذة الانفصال والبقاء سلبياً رغم الجسم المفقود . لا تحتفظ المرأة أبداً بأي شيء : إنها تعيد إنتاجه . إمرأة أصبحت أماً ، أم في كل إمرأة . نفايات ، طفل . خليط موت وحياة . أحياناً ، للأسف ولد ـ نفاية .

متحولة إلى أم بوساطة الرغبة الضرورية بالحفاظ ، في عرينها ، على النتاج الجنسي كما الفمي . فضاء داخلي متغيّر . منغلق على الجسم ، حاضر أو غائب ، نرجس في زرع دائم ، الضوء والماء يسيئان إليه بسهولة .

قدرة مرعبة هي التي يحتفظ بها هذا الداخل ، يحصرها ، يخنقها ، يبدلها . سيطرة على نتاج اللذة ، أثر الرجل . آلام كما الإجهاض : تخلٍ عن الثمرة الحية للذات . ثمن اللذة ، معاناة حريتها .

يروض الذنب الحسد كوحش رهيب . هذه غير الذات . . . . ملتهمة الثدي ، القضيب المنتصب . مخربة بقدر ما هي منجبة . هضم ، حمل . خاضعة لجسدها . لا لذة بدون استحضار الأمومة . معاناة لذة صنع طفل.. مرهقة حينئذٍ سلبية وأحياناً فظة بالإثهار الأمومي الذي يخضعها لواقعها . الرجل ، فقط مرتبط بمبدأ لذة بانتعاظه . إمتلاء ، بينما أنا المرأة مشغولة بحياة مزدوجة ، ومع ذلك أنا . جسم ينشأ من أنا ويقودني إلى إستحقاق الانفصال : تجربة جوهرية للحياة . منافسة الرجل ، الذي ينبغي بكل تأكيد إمهاله

للانتقام بتصورات المعاناة لعدم القدرة على التأكد من أنه ينتج أيضاً الحياة عندما يعرف جيداً إغداق الموت .

متعة ربما أن تعاني من أنك امرأة قبل البكاء من أنك لم تعودي كذلك .

ملكية

جذّابة ، مولوج لها ، ممتلكة . باطن مستثمر للغاية . أرض مسورة فردوسية تخفق فيها الرغبة . أسف جهنمي . محتقرة لأنها مدنسة . منتقصة لأنها سهلة المنال للجميع . بدون سياج يحدد إلا بالممنوع ، إنتهاك أزلي . حد مثير لباب غير مغلق . أخدود رغبة « مرعبة بهدوء »[1] . مكان الجسارة الرجولية . مصدر كل الجبهات كما المثالية الأخوية لامتلاك حلم التدمير : لا منافسة بعد الآن ، ما هو لك هو لي . أساس العبودية . ولكن ماذا ستكون الحياة بدون السراب الموحّد للغوص نحو الأنثوي الغامض ؟

« هدوء مخادع »[2] .

مشتراة ، مباعة ، مادة ومكان الملكية . مرجع الرجل المشبث بالأرض . امتداد لا يدرك إلا بسعادة كونه محاطاً فيها . وعاء مخضع لبرعم الهوية . امتلاك مشتهى ينشر الرجل تصوراته في غزواته للانهائي . امرأة ، تدافع بغيرة عن حقها في أن تحكم وحدها مداها ، مدى معتم للذة والمستقبل .

---

(1) بودلير : الجنات الاصطناعة (Les paradis artificiels) .

(2) المرجع السابق .

أرض مهزومة في مساحاتها ، في قممها وملاجئها . بحر خطر مجهول تحت تموجها المغوي والخصب . سماء شاسعة يعج فيها الانبهار . ذهاب للبحث عن القمر والاحتفاظ به في الذات ، لامعاً ووهمياً . الحفاظ على امبراطوريته .

إمرأة ، وهم الملك .

الاستعلاء للحظة بهذه العودة الأزلية الى الموضوع الضائع إلى الأبد : القبول بتصورك حرة .

إمرأة غير مكتملة أبداً : غلاف فارغ ؟

لدي الوقت
كل الوقت
كم هو طويل الوقت

م . دورا*

إمرأة مشكّلة حول الفسقية الرحمية . مركزة على إثارة مكان المتعة والخصوبة . ثدي داخلي ، صورة معتمة للذات المقطعة في رأس ـ بطن حيث تتكدس الأعماق . قبة ليلية (بودلير) . فكر ذات موزن على يد المجهول والمتوقّع لبنية متحركة سجينة .

من بروز النهدين إلى الإياس** ، من خلال الطمث ، الحمل والولادات، حقبة المرأة جنسية ، ليست خطية ، ثابتة ، بل تطورية بالتقلبات والتحولات . مقوّمة ، مصححة ، متعطشة ، متغيرة صورة

(*) مرغريت دورا : كاتبة مشهورة (المترجم) .
(**) الإياس : سن اليأس (Ménopause) .

ذاتها خلال التجارب الانفعالية التي تسببها البنية الشقية للجسد .

على هذه الخلفية المحسوسة للخاصية الأنثوية يتطور التـوازن بين محتوى المتعة والخصوبة ، وحاوي الإغواء وقابلية التشكل . لذة وتحول مرتبطان حتماً . وليس الأمر مختلفاً بلا شك أن تكون امرأة محلِّلة ، م . كلاين ، التي استخدمت ، بشكل خاص تماماً ، المفهوم الفرويـدي للموضوع الداخلي . كل موضوع ، في الرئـاية الأنثوية، قـابل لأن يكـون مستقبلاً في بـاطن ينتـظره[1] . ولعبـة التغيـيرات المتبـادلـة ، الاندماجات المحبة أو الاضطهادية تدرّب على هذا المفهوم للموضوع .

وتعيش الذكرى في أجساد النساء .

ويختبر الجرح الأنثوي نفسه في استحقاقات عدة : غياب القضيب ، غياب الثديين ، سيلان الطمث ، فض البكارة ، الولادة . وأخيراً ، الإيـاس . خصاء أخـير وحاسم . اختفـاء الخصوبـة وعـلامـاتهـا . انسحـاب الأمومة الممكنة ، إنسداد المغارة الخصيبة ، وربما حتى الشك باستمرار مكان الإثارة . أية هوية تبقى للمرأة ؟

لقد إلتقط فنانـو النهضة (Renaissance) في جمـاليتهم هذه الميـزة الخاصة لحياة النساء . واختاروها كتصوير لفـرار الوقت تحت شكـل « خيلاءات » . طفولة ، شباب ، نضج ، شيخوخة ، كلها مسجلة في جسد المرأة بخطوط تحدد فترة من تطور المرأة ، من عقليتها .

إن قابلية تشكل الجسم الذي فسد ، تنتشر في الأنا . ويتشـابك ضعف الغـلاف الجسـدي عـلى الغـلاف النفسي . ويتعلق الانهيـار

(1) J. Lanouzière , 1989 .

العصبي بإزالات الحياة الجسدية . انتقاص نهائي : السطح الهش الحامل الإغواء يتبدل ويفسد مع مواعيد الخصوبة . وتظهر شيخوخة القدرات المنتجة بصغر الفتنة المثيرة للجنس . ماذا يبقى من المرأة ؟ لم تعد أماً محتملة ، أهي بعد ما زالت إمرأة ؟

إن المراضة (Pathologie) ترصد هذا المدى الرهيف لتجاور الجسد مع الأنا . ومثل استئصال الرحم ، الإياس (خصاء حقيقي في الحالين) يخاطر بإطلاق خفض الثقة بالذات ، عودة إلى الحركات الاضطهادية المبكرة ، فطم معاني ثانية من قبل الداخلي الأمومي الذي يمكن أن يجر اختفاء الشهية الجنسية وأحياناً البرودة .

والمرأة مأخوذة بين مبدأ الواقع ، الذي يربط بدقة لذة الحب بتفريخ حياة أخرى ، ومبدأ اللذة ، الذي يحمله على السعي الى المتعة ، تتشكل حول قدرتها على الحمل : لواجب العدول عن ذلك . قصاصات أخيرة ممزقة للقدرة الكلية الطفولية ، المخبأة على يد الفتاة الصغيرة ، على مر الزمن ، في التجويف المنجب . وليست الخسارة في مجرد الخصب . إنها خسارة « المكان حيث لذة الكائن البشري تتطابق نرجسياً مع هوية الشخص »[1] . وكذلك في أكثر الأحيان بسحاب الرغبة ، زوال استثمار الذات في نظر شخص آخر ، إختفاء معنى هذا المدى الممتاز الذي فيه ، لوقت على الأقل ، تقدّمت الأمومة على الأنوثة . ويصبح الشيء المجهول المختفي موضوع يأس . إستيقاظ الحسد المخرِّب للبطن الأمومي كما للقضيب ، حاويي اللذة ، لأنه

(1) F. Dolto, 1964 .

أحياناً بالرغم من عمر متقدم جداً ، يستطيع الرجل أيضاً تلقيح امرأة شابة .

بين الإيقاعات والتغيرات المرتبطة بالجنسانية ، ليست المدة الأنثوية خطية ، بل تطورية . الهرب من المدة سعي ذكوري ، ويعقد عدم الاستمرار الوظائفي للجسم الأنثوي رباط الزمانية ، والمرأة سواء أرادته أم لا ، تعيش في القبل والبعد ، إلا إذا جهلت ذلك بالمراضة . « وبعد الضربة » يأخذ بالنسبة إليها معنى جنسياً قد يرخي ثقله على العرين الأمومي .

تكـون . تكـون النفس ؟ تكـون الشخص . استمرار جـدلي للدينـاميكية النفسيـة عند المرأة . شعور بـأن تكون امـرأة ، مختلفة وجديدة في إتصالها عند كل تجربة جديدة لجسـدها . وخـارج الزمن الحقيقي يختلط الأنثوي والوراثي لبناء دينامية بسيشه* : بـوضوح ، حتى وإن جزئياً ، الأمر نفسه كذلك للرجل الذي لا يفر كذلك إلى العضوي ، إلى الأمومي ، إلى الاضطهادات الداخلية للصور المبكرة . أليس اللاشعوري مكتوماً في التغيرات الرهيبة المتوقعة من قبل الجسد ؟ الأنثوي : طريق مفتوحة الى السيرورة الخالقة ، سمة الزمن في أبدي اللاشعوري .

(*) بسيشه تعني النفس ، وهي في الأساطير اليونانية أميرة بارعة الجمال إلى حد أثار غيرة فينوس فكلفت كيوبيد أن يحملها على عشق فتى أقل منها مرتبة لكن كيوبيد أحبها ووضعها في قصر ناء وتردد عليها وحذرها من النظر إليه لكنها خالفته ونظرت إليه فاختفى عن الانظار . فهامت على وجهها تبحث عنه . ثم طلبت الصفح من فينوس وبعد معاناة شاقة منحها جوبيتر الخلود وتزوجت من كيوبيد (المترجم) .

تحرير المرأة من مكانيتها الزمنية .

وتأخذ المدة معنى . تجاوزات وتخليات متكدسة ، ويصبح الماضي حياً داخل مدى محرَّر من غيريته ، إلى صورة الجسم الذي يتحول : ولادة مهجورة من أجل الأنوثة ؛ أحلام الحرية الجنسية محدَّدة بالخصوبة ؛ صفاء ، ليس بسيطاً جداً ، بعد الحدة الجنسية والأمومة . بعض الشيء من « معرفة » الساحرات ليست ربما إلا المعرفة المحتومة للتغيرات التي يعانيها باطن الذات ، معرفة تقطيع الحياة بالرغبات وميوعة نتائجها .

حياتها كامرأة تربطها حيث جرتها رغبتها . مربوطة ، غالباً رغماً عنها ، إلى هذا الذي يخترقها وهذا الذي تحدر منها . مأصَّلة بالحياة التي تحميها من غلافها حتى النضج ، والتي تدعوها حبساً ، حرير رقيق تتعقد ربطة خيوطه بين بطنها وروحها . « لم يعد عندي من لذة في أن أكون أنا . لم يعد هناك أمل ، . لم يعد هناك انتظار في داخل ذاتي . ما بقي من الأنا هو في الخارج » . ب (B) تتألم في نرجسيتها . إنها تزيل استثمار نفسها . تصل بصعوبة إلى ضروريات الواقع المادي . ديناميتها الطبيعية ضعَّفها الانقطاع بين الذات المقوِّمة للرغبة وللحقيقة الجنسية والجمالية : فهي تشعر أنها أصبحت شيئاً غير مرغوب فيه ، وحتى مقزِّزاً ، بين زوج يجد مع امرأة أكثر شباباً بعض الإشباع لستينياته ، وأولاد تحترم حياتهم كشبان راشدين .

إن المصدر النرجسي لـ ب . ينزف من الداخل بتغيرات صورة الذات التي تسببها لديها نهاية الدورة المنجبة . فتشعر بحيوية الإدراك الحسي لأقل إغواء بالقرب من الرجال . وضع مبتذل ، هو ما تفكر به

ب . كثيراً . مِصدم الواقعي . لكي تستمر امرأة ، ينبغي أن تتشكل باطناً جديداً ، مجازفة بالاحتفاظ فيه بنقرات ، أشباح وردود رغبات من شبابها ، كما كذلك بنقاط مسرطنة . حتى هنا هي مكوَّنة جيداً حول تجويف الحصر . ب . تشعر بنفسها يابسة ، مستسلمة للسقوط ؛ « مع أن الأمر لا يتعلق ، كما تقول ، إلا بسقم طبيعي في المبيضين الصغيرين . النرجس يذبل .

لقد أثارت ب . في ذاتي أسئلة : هل تصغر الغريزة في الديناميكية النفسية مع خفض الطاقة البدنية ؟ وفي هذه الحالة ، مثلها في الحالات الأخرى المكشوفة على يد فرويد ، هل تتحول الفعالية إلى سلبية ؟[1] . وهل صورة الذات مدركة بالقصور الذاتي للتجويف الخصيب ؟ إن الانقلاب على الذات الغريزة الغيرية تخفي الجسم بما هو شيء خارجي ، مثل عقدة موبيوس (Möbius) : إن غير محسوس الطية هو اللحظة المائعة حيث المعنى يتماسك بين واقعين ، واقع الجسم وواقع التأثر الأولي ، والأنا نفسها المتواجدة مع موضوع الحب ، « تفك تواحدها » وتنطوي على ذاتها .

والمرأة ، إذ تذلِّل « سوء فهم اللذة »[2] تخطو خطوة فوق « الهاوية التي يتعذر عبورها والتي تصنع الذي لا يخبَّر »[3] . إعادة توظيف موضع النرجسي ، داخلي الذات . وإذ تختفي الامتيازات القديمة ، تبقى شفافية الحياة . إعادة إكتشاف ذاتها إمرأة . فيما وراء زمن الجسم

(1) فرويد ، 1915 .

(2) بودلير قلبي معرّى ، (Mon cœur mis à nu) ، باريس ، غاليار ، 1976 .

(3) المرجع السابق .

وملطفة واقع الجنس ، إعادة تكامل استمرار الكائن ـ المرأة . قابلية التأثر الهادئة ، قابلية التحول إلى الحنان .

حب

بنية دوّارة حول الموضوع / الذات الداخلية ، في عمق الكائن ، اندماجية الموضوع المحبوب تجعل منها جزءاً من الأنا : طـريقة لحب المرأة . وهي إذ تتواحد مع هذا النمط من وجود الموضوع ، المحبوب لأنه قابل للاندماج بكـل سرور ، تبحث في الرجـل عن هذا الجـزء الأنثوي الذي ستحبه بالطريقة نفسهـا . وينطوي أنثـوي الحب على نفسه .

الموضوع / الذات خارجاً . هذيـان . خسارة لا تعـوض ، دفع الطفل . طفل / ذات ، مكروه ، مرغوب ، غريب . محبوب فيما وراء اللذة . واقع ، شيء تزن مادته وزن حبه . حماية من الكره العنيف ، المحرّض ، الذي يخرب الأم في المكروهة الصائـرة أماً . أم مسكينـة ممسوسة . حداد الطفل المتوحش المعاني في لحمه . الإبعاد جعله رغم كل شيء مختلفاً ، إذن محبـوباً . الحـماية بـأي ثمن ، لأنه محبـوب . الظهور في مكان آخر ، قبلاً . المغادرة بـأسرع ما يمكن : هـذيان . الأفكار المجنونة تأتي لتشغل الأم اللابسـة الحداد من تلقـاء نفسها ، وتستقر في رأسها بدلاً من الطفل . الجنون يضع الرضيع في الأماكن التي تحميه من الفراغ ، تبعده من الانهيار . الطفل الحقيقي ، المولود الجديد المستبقى هكذا على بعد ، المحترم ، المفصول مبكراً عن الثدي الحقود سيجد للعيش الموضع المتروك كذلك حراً . الأم المؤلمة الضائعة لا تسترد من ذاتها إلا الكره الذي يربطها بأمها الحقيقية ، المضطهدة الفطرية ، أم الأطفال الموتى .

السلبي والأنثوي
المرأة بلا صفة

المرأة في السلبي

قال فرويد عام 1932 : « ليست المرأة رجلاً . ليست رجلاً لأنها لا تملك قضيباً [. . .] ما عدا ذلك ، تستطيع المرأة أن تكون كذلك كائناً بشرياً »[1] . وفي العام 1937 ، تشاجر دائماً مع هذه القارة السوداء التي لا يقترب الفكر البشري منها أبداً بدون رعب . وإذ تمتلك صفات الإنساني لكن غير صفات الرجل ، فأي وجود يمكن نسبته إلى المرأة ؟ ربما لا توجد ، لأن الرجل يتكلم من أجلها ، مع العلم جيداً أنه لا يوجد إلا معها . أو على الأصح ، لن يكون جوهرها إلا سلبي الرجل ؟ إنها العدم الذي يولد منه الحضور .

آنفاً ، أفلاطون ، كان يبحث عن وحدانية الكائن . وكان الشعور بالنقص ، الذي يسببه الانشطار الجنسي ، يقوده إلى بحث دائم عن الوحدة[2] . وإذا كانت ثنائية الرجل / المرأة تظهر آنذاك صعبة على التوضيح ، فإنها لم تكن تنقص لهذا الحقيقة الجوهرية للمرأة . وكان الاختلاف الجنسي يُفسر بالنسبة إليه بسقوط « الروح » ، مبدأ كل

(1) س . فرويد ، 1932 .

(2) أفلاطون ، المأدبة (Le Banquet) .

نشوء ، في جسد سابق الوجود . وكان يفترض إمكانية اتصال جدلي بين هذين القسمين من الكائن ، الروح الخاصة بالحياة ، والحركة والذكاء ، والجسد بكونه الركيزة المادية[1] .

وتحدد هذه الجدلية تلك الجدلية التي تقوم بين البحث « البدائي » عن اللذة والميل المكتسب ليصبح أفضل[2] ، البحث عن التنوع في الوحدانية ، وعن الآخر في الذات .

وتحمل بإعجاب على التفكير بعلم النفس الماورائي الفرويدي : مبادىء اللذة والواقع ، ظلمات على التصعيد ، علاقات الحواسي والنفسي ، على أي حال ، نعرف ، منذ العصور اليونانية ، أن الجسم سابق الوجود على المرأة ، كما على الرجل .

وتحملنا النظرية التحليلية على التصدي بشكل أكثر مباشرة إلى الحصر الذي يثيره إنشطار البشري . ولكن إذا سمح بالتعرف على المصادر اللاشعورية لهذا الحصر ، فليس عليه إلا المشاركة بشكل جزئي جداً في تغيير تأثيراته المنقصة للمرأة في الحياة اليومية والأفكار المتحضرة . والتفكير بهذا الموضوع محفوظ في حالة السلب والجوهر الأنثوي معتبر على الأكثر كألوهية تواجه خصائصها جهلنا وتتركه بلا صفة : «[. . .] في هذه الظلمة حيث ، وفق الكتاب المقدس ، ذاك الذي يكون كلياً متسامياً يوجد بوجود مطلق [. . . .] وهي (الألوهية) ليست قادرة ولا ضوءً [. . .] ولا خطأ ، ولا حقيقة

---

(1) أفلاطون ، Le Phèdre .

(2) أفلاطون ، Le Timée .

[. . .] ذاك الذي يكون مجرَّداً من كل شيء »[1] . هذه الظلمات من الفكر الذي ينبغي أن يتخلى عن جزء من كماليته المتعاظمة مشابهة للقارة السوداء للنظرية التحلفسية . والمرأة تبقى غير واردة . وليس هناك إلا إله بسودو ـ دنيز (Pseudo-Denys) ، وليس لها صفة المرأة . ولا تستطيع أن تكون متصورة إمرأة .

ليس هدفي هنا القيام ببناء منطق السلبي . فعديدون هم أولئك الذي سبق لهم أن قاموا بذلك ، وسيفعلون ذلك أفضل بكثير . إن مسعاي يطمح بالأحرى إلى الارتداد على المحنة الأنثوية بأن تكون متصوَّرة في السلبي . فأية حجج يمكن إستحضارها لدعم هذا الإيعاز المعانى نحو الأنثوي في أن يكون سلبياً ؟ وإذا أعطينا ، رغم التحفظات الفرويدية ، قدرة على المتعة للمرأة ، نضعف المفهوم القضيبي للذة ، وفرج المرأة ، بتشكله من الطية الداخلية ، يستحضر سلبي الجنسانية ببساطة لأجل هذا الغياب للقضيب ؟ أو سيتعلق الأمر أيضاً ، مثلاً ، بالتباس الكينونة والمِلك ؟ ملك غير مقدر أو لا يعرف من الباطن الأنثوي لأنه المستقبل الأمومي . يمثل هذا الذي ، عند الرجل ، يمكن أن يكون ممحواً ، مختلساً ؛ انزعاجاً مرتبطاً حتماً باستحضارات النقص ، الغياب ، الخصاء : الأنثوي يصبح السلبي ، رغم الانتماء من الأمومي إلى الأنثوي .

---

(1) بسودو ـ دنيز (Pseudo-Denys) : علم اللاهوت الصوفي . Théologie mystique .
ذكره د . آنزيو في « إنبثاقات ومتفرعات من العلم الروحاني Résurgences et dérivés de la mystique » N.R.P., XXII ، باريس ، غاليمار ، 1980 .

ومن اللافت للنظر أن فرويد يتحاشى ، طوال بحثه ، تمييز الأنثوي من الأمومي . وهو تمييز ضروري مع ذلك : فالأنثوي ، في مميزاته الجوهرية كما في أهدافه والتصورات التي ترتبط به ، ليس الأمومي . فوظيفة الإنتاج التي ، عند الرجل ، تلتبس مع المتعة الجنسية ، يمكن أن تكون منفصلة عنها جذرياً عند المرأة . فالحبل ليس الانتعاظ . ولا مدة الحمل كذلك . لكن مدة الحمل ، في الآن نفسه ، ظاهرة وغامضة بداخليتها الجسدي ، وهو سبب جوهري للاحترام المذعور الذي يتوجه إلى الأم ، وحش ملغز ، مصدر الأولوهية . فالأنثوي والأمومي مرتبطان بالرمزية الفعلية . فالكلمة نفسها تشير إليها في لغات كثيرة ، كحالة الدلالة على الدفاعات الصلبة الضرورية لاستحضار الباطن اللغز حيث تتعقد بغمص الحياة والموت .

والفكر ، بلا شك ، ليعمل بطريقة مستقلة وليفرق بين عناصره الخاصة ، ليقيم منطقه ، ينبغي أن يتأسس على الاختلاف الأصلي للأنا ومواضعيها ، للأنا والآخر الاختلاف المدعوم والمقوي باختلاف الجنسين . ويعمل الفكر التحلسفي على الإعداد النفسي لهذا الاختلاف ، وتحمل إليه طرائق تفكير النساء المحلّلات تدرجاتها . وقد كان فرويد يلاحظ ذلك بسرعة : « لقد تعلمنا بناء على ذلك عدداً من الأشياء مؤخراً ، من جرّاء أن كثيرات من زملائنا الممتازين النساء قد بدأوا تعاطي هذه المسألة في التحليل »(1) . ويخاطر الرجال بأن يكونوا مرتابين بالآراء المسبقة . وسيكون الملاذ الثنائية الجنسانية .

وتفترض دورة الطاقة الكهربائية قطباً إيجابياً ، يقال له الذكر وقطباً

(1) سيغموند فرويد . مرجع سابق .

سلبياً ، يفترض أنه الأنثى . إذن إذا اعتبر ، من وجهة نظر محددة ، الأنثوي والذكوري كقطبين متقابلين ، تجري بينهما الطاقة الليبيدية ، فهذا سيرجع إلى القول إن المرأة سلبي الرجل . وسيكون السلبي الأنثوي الإيجابي الذكوري « في تجويف » .

ينبغي الاعتراف له بمبادرة نشيطة في العلاقة الجنسية ، في نقل اللذة ، بل أيضاً نقل الفكر ، إن لم يكن الوجود ، مبادرة ينسبها إليه سفر التكوين . ولكن هذه الافتراضات لا تحتوي إلا الجوهر الأنثوي وليكن السلبي . ونمط التفكير الذي سيتلاءم على نحو ملائم مع السلبي سيكون إما في عدم التفكير به ، فـ « لا ـ علامة » هو ما سينكر التفكير نفسه ، وإما بالتفكير أنه غير موجود ، وهذا الذي سيقود إلى التأكيد أنه في التفكير لأن إحدى خصائصه ستكون ضرورة رفض وضوحه . وحينئذٍ يبدو السلبي معكوساً ، أو مكرراً ثانية . منطوياً على ذاته . طية الفرج الأنثوي . والمرأة بنمط وجودها كما بجسمها ، تمنح قيمة للنتوء الرجولي . فالسلبي منظم الفكر بإبراز القضيبانية التي يولِّدها .

السلبي موجود إذن . ويظهر كصفة إيجابية للفكر : وإذ يختص بالمحسوس ، وهو وصف للشيء بمعنى اللاإدراك الحسي ، بل صفة لا يمكن تمثيلها بما هي مادة الشيء . إنه يفترض الوجود السابق لمادة إيجابية ، ستكون الفكر نفسه مثلاً . مادة إيجابية ستكون ، في الرئاية التحلسفية ، نسق التصور ، بصفات حضورها وغيابها ، دوامها واختفائها .

وستكون غريزة الحياة ، الإيجابية للغاية ، أولى إذن . ويمكن القبول

بأن لا شيء يموت قبل أن يكون قد عاش . بشرط أن يميّز الموت (من جهة نفي الوجود) من العدم الذي سيسبق كل وجود . وهكذا يظهر السلبي مرتبطاً بصعوبة تصور وجود الذات في المشهد البـدئي الذي يسببه . وحده التأثر الأولي يمكن أن يدخل فيـه الحركـة التي تشكل الذات البدئية ، المؤسسة على التعارض الأساسي ، على ثنائية القطبْ إيجابي / سلبي .

قبل المادة ، سيكون السلبي معادل اللا ـ وجود . ورغم الوضعية الجوهرية للكلام ،وللكتابة التي تثبت هذا الأخير في تكثف غريب ، يبدو لي السلبي كصفة لما يوجد قبل حالة السلب . إنه الكينونة الممكنة قبل الوجود . وفي « فيما وراء مبدأ اللذة » تفحص فرويد بعمق هذه المسألة . ويظهر هذا النص ، في كآبته المفرطة ، رجلاً اللذة بالنسبة إليه جوهر الكائن البشري . إنه يستند إلى غريزة الموت ، يحوّلها إلى نيرڤانـا* ، وفي وضع جنيني مستعـاد ، قصور ذاتي بـدون إنفعالات وبدون تأثرات أولية : طمأنينة الباطن الأمومي الممثلن .

ولا يستطيع الفكر تصور العدم لأن الفكر يكون . إنه يستطيع فقط تصويره . وجهازنا النفسي قابلٍ للإحساس بالعدم مـواربة التـأثرات الأولية : في الاكتئاب ، أو أيضاً الذهان . وحينئذٍ يأخذ السلبي مسحة

(*) النيرڤانا لفظ سنسكريتي يطلق عند البوذيين على الخير الأعلى ، الذي يبلغه الإنسان برجوعه إلى المبدأ الأول ، وإمحاء ذاته الفردية في الكل . وقد استعار شوبنهـاور هذا اللفظ وأطلقه على السعادة العقلية والوجدانية التي يمكن بلوغها بـإنكار إرادة الحيـاة والإعراض عن مصالح الذات الفردية وأوهام الحواس . (المترجم) .

الألم ، الكرب . وتنطوي المِراضة في الواقع على فكرة جزء سلبي في الحياة النفسية ، الميل إلى إلغاء الحياة .

إن القوة الرمزية لتصورات الألوهية مستعارة من الإنتاجية الأمومية التي تجعل هذه الأمور سلبية : القـدرة المذِلـة للأم ، اللغـز المحيِر للحمل والخوف الموحى بواسطة الانفغار الأنثوي . وفضلاً عن ذلك ، تعلن الألوهية قيمة القدرة الخصبة والمغذية لمنتجة الحياة .

إذن لنأخذ فريق الكائن الحي . توجـد الرغبة في مادة الكائنـات الحية . وقد عرضها فرويد تحت شكلها الأول الغريزي . والغريـزة المتحولة الى رغبة بالكبت ، تفترض المسافة التي تنشيء الحياة النفسية ، مسافة بين الجامد والبشري ، الحواسي والتصرفي ، بين الفم والثدي . مفهوم دينامي ، تعبر الغريزة عن الحركة الإيجابية نحو موضوع إشباع مفترض . ولا توجد الرغبة إلا بغياب الموضوع ، بسلبي الحضور ، باللا ـ حاضر . إنها ميزة مركّبة لحياتنا النفسيـة التي تعبر عن الحصر الذي يثيره النقص النرجسي والذي لا يلغيه قسراً حضـور الموضـوع المرغوب ، والا اللذة التي يقدمها .

غياب وتكثف

في مراحل الحياة الأولى ، السلبي مرتبط بالمحسوس بنسبة ما هـو نتيجة التعاقبات حضور ـ غياب الثدي الأمومي . وتجعل هلوسة الثدي الغائب حاضـراً ، إنها تحقق حضور الثـدي غير الحـاضر ، وفي بناء الجنسانية الأنثوية ، إن غياب الحلمة في الفم ، الذي يصبح شهـوة الحلمة(أبراهـام (Abraham) تصور مـرحلة حافـظة للوضع الفمي

السـادي) يتحول في غيـاب القضيب ، إلى حضـور الفـرج ورغبـة القضيب في الفرج . وإن الشعور الأنثـوي بالسلبيـة ، الذي تحـدثه الصورة الرجولية من جراء غياب القضيب ، يصبح رغبة إيجـابية في الإيلاج الجنسي بواسطة القضيب . وهكذا ، سلبي الأنثوي ، مرتبطاً بدقة بالتشريح ، يجر الفكر نحو تمييزه الخاص للجسدي . وتحولات هذا التقدم عديدة ومصادر لكثير من المِراضات .

لقد كان الموضوع الغائب حاضراً سابقاً ، حاضراً حقيقةً . أيمكن القول عنه بمقدار الشيء ـ الثقب ـ الحاضر ، القضيب الذي لم تمتلكه الفتاة أبداً ؟ إن الاستيهام يملأ عالمنا الداخلي بـأشياء غـير حاضرة : قضيب ، أم للقضيب ، أمير فاتن ، وحوش متنوعة ، وهي ألعوبات خيالية . الأشياء ـ الغائبة ، تلك التي ليس مستحيلاً نسيانها عندمـا الحاجة تحمل على الشعور بها ، تجعلنا نعيش السلبي ، تجويف الرغبة المعروف حتى في اللحم .

إن المرأة ممثل نقص الأنا ، قبل أن تكون ممثل الثنـائية الجنسـانية بالاختلاف أعلى / أسفل العائد لجسمها بالنسبة للرجل ، هذا النقص الأنثوي تصور لعدم رضى الأنا الراغبة دائماً ، رغبة موجهة أولاً إلى الثدي . ويغذي هذا النقص استيهامات الخسارة ، الاكتئاب والرغبة غير المشبعة والمرأة كذلك منفية في وجود الخاص من جـراء أنها دائماً موضوع رغبة الجنسين . وتؤسس هذه السلبية الجوهرية الأنثوي بصفته ممثل الآخر ، المختلف . غير الرجل ، بكل تأكيد . وهذا الأخير يدّعي حق تصور الآخر ، الحق الذي سيكون خاصية لقوته البدنية .

إذن ، إن تمعنّا في السلبي المميّز بصفـة الغياب الخـاصة ، نجـد

المرأة : سلبية بصفتها غير حاملة للقضيب ، سلبية كذلك بصفتها امرأة ، التي تفترض الأم الغائبة . إمرأة لأنها محتلة من قبل الرجل ، وليس من قبل الطفل . إمرأة بالغياب الوقتي للفضاء الأمومي فيها . القريب جداً مع ذلك ! وإذا كانت الأمومة السعيدة سمة الأنوثة ؟ الحاوي يتحول إلى محتوي ، بالمعنى الذي فهمه ديديه آنزيو (Didier Anzieu) .

أيصف المرأة أيضاً أن ننسب إليها ما يعبّر عنه المعاني الذكوري : « نقص في الوجود ؟ » . وإذا برّرت نفسها هذه الصيغة ، فليس هذا ربما إلا في ميزة الفتاة غير البالغة ، التي تتميز بغياب الثديين . ماذا تفعل حينئذٍ الفتاة الصغيرة بأنوثتها ؟ هذا النقص يظهر كذلك الأنثوي لأنه مستقبل . فالرجل يولد كما هو . المرأة تتحول : فتاة ، إمرأة ، أماً ؛ النهدان ، الحيض ، الطفل . النهدان ، الصفات الأكثر ايجابية في الجسم الأنثوي ، يوجدان، برأيي، منذ التواحدات الفمية الأولى بالأم في التصورات الأنثوية للذات ، الفم ـ الثدي للرضيع الفتاة التي ، في عيني أمها ، ترى نفسها بدءً شقيّة داخلياً . التواحد الكامل أم ـ فتاة منذ البدء ، هوية الصورة المسقطة والمدرَكة / المعاناة ، اندماج الأنوات . ويستطيع السلبي الأنثوي أن يُفهم كـ « دالٍ الحدود » (كما فهمه غوي روزولاتو Guy Rosolato) الذي يميّز الفتاة من أمها ، أولاً كجسم كلي ، ثم كجسم شقيّ مع غياب النهدين . وأخيراً ، يميّزها من الصبي بغياب القضيب . وتعلمنا المراضة ، للأسف جيداً جداً ، خيبات أولئك الفتيات اللواتي نظرت إليهن أمها تهز نظرة من كانت تريدهن ذكوراً .

إن مفهوم السلبي يجذب التصور في اتجاه تغيير المظاهـر الماديـة . وسنرى لاحقاً كيف أن ليزيت (Lisette) ، المرأة المصـوِّرة ، طورت « سلبياتها » الفوتوغرافية مع الانتظار النافذ الصبر لأن تكتشف فيها لوناً ونتوءاً .

وهكذا الماء الذي يتجمد في البرد يعطي العلامة على حرارة سلبية : المادة تتحول . كذلك ، مفهوم الخصاء السلبي بصراحة بالتصورات التي يقـترحها للحـرمان من القـدرات ، الجنسية أولاً ، وإذن لإثـمار الجسم و/ بالنقل والتحويل ، لإثمار الفكر . إن غياب القضيب عند المرأة ينحل ، في الفكر الذكـوري ، بخوف ومفهـوم الخصاء . وإذا اعتبرت معارضة الإيجابي بالسلبي كتغيير ، عبور ممكن من حالة المادة إلى حالة أخرى ـ بما في ذلك حالة المادة الجسدية أساس التصورات النفسية ـ ، والخصاء ، بما هو حرمان من القضيب بالنسبة للمرأة ، لا يكفي لإرضاء الفكر . إنـه لا يحتوي بشكـل كافٍ عـلى الفرق بـين الأنثوي والذكوري بقدر ما يبعد بحق الوظيفة الأمومية ليجعـل منها مكاناً تعويضياً تجعل سعته قضيبياً . فالتغيير أساسي عند الفتاة ، من حالة « أنثوية » بصراحة إلى حالة قدرة أمومية ، مع التغيرات المهمة للبلوغ : الأمومة ما بعد ضربة الأنوثة .

في هذه اللحظة من حياتها ، المميِّزة بشكل أساسي ، مثل البلوغ للفتاة الصغيرة ، فهي ترى وتشعر بجسمها يتحول : يظهر الثديان ، مظهر ينتشر ، أشكال إيجابية للأمومة القادرة ، وقبل كل شيء مستثمرة لوضع إغواء أنثوي نحو الرجل . ثم يظهر الحيض ، عنصر أكثر إقلاقاً بكل تأكيد لأنه يجدد نشاط استيهامات الخصاء القضيبية ويظهر نشاط

هذا المكان المخفي للرغبة . والثديان هما بالنسبة للفتاة شكل قضيبي يعادل مصيرهم الانتصاب القضيبي للصبي . والنفي الذي فيه تستثمر الفتاة الشابة الفاقدة الشهية للطعام الأشكال الناشئة لأنوثتها ، هو غالباً إظهارها الرغبة في أن تكـون صبياً ، أقـل من تقديمهـا ؛ لأمها كـما لأبيها ، جسماً شِقّياً متحدية سلطان الرغبة الجنسية الأبوية والمنـافسة الأمـومية المخصِيـة . وحينئذٍ يصبـح السلبي عنصراً منـظماً ، مولِّـداً للقضيبانية التي يبرزها .

المـرأة واضحـة ، متميِّـزة ، أولاً بصـدرهـا : خـاصيــة قضيبيـة تعويضية ، وهذا مسلم به في نظامنا للتفسير الحلفسي . بل أيضـاً خاصية نوعية للإغواء الأنثوي . الذي ينقل ، نحو أعلى الجسم ، تأثير المفـاتن ويمنحها حـرية الـظهور المتحـدرة من تعدد معـاني وجـودهـا ووظيفتها . والفمية ، التي تعبر بوظيفتها المغذية ، ترسم للثدي إتجاهاً يوصل المكبوت فيه إلى دلالـه مركّـزة للفمي وللجنسي ، الذي يمس النفي ، ولا ينبغي إهمال الحولية البيفرجية . « هذه المرأة ليست أمي » هكذا كان يقول فرويد ، في الحلم الذي ستوحيه له ال Verneinùg . وقد تسمح له أمه الوصول إلى ثديها ، لأنه ولدها العزيز : ويستطيع أن يـرغب ويرى الثـدي الأنثوي عنـدما يـظهر في وظيفتـه الأمـوميـة . وإدماج ، ثم استبطان الثدي حين الفطام ، مثل التواحدات المحددة بهذه الفترة من التطور في الشبق الفمي ، تعمل على أن تمتلك الفتاة أولاً الثدي في ذاتها قبل أن تمتلك الثديـين البارزين عـلى سطح جسمهـا والمتحدرين من هذا السطح . ثديان هما ، في رأيي ، مظهر للداخلية الغريزية . وقد يكون هذا الاقتراح موضوع نزاع : يمكن الافتراض أن

غياب الثدي عند الفتاة هو بالعكس مصدر مشاعر الخصاء والضعف النرجسي بالاستناد إلى قضيبانية تصورات النقص والخصاء[1] .

إن تكاثف الوظائف والأدوار الذي يؤسس غموض الأنثوي . وظيفة أمومية ، مؤسسة لرجل السلبية الأنثوية : ينبغي التسليم بعدم حمله طفلاً ، لكنه رجل كذلك لأن المرأة ليست كذلك . إنه يصبح رجلاً في مواجهة والده ، بالإقلاع عن المتعة الأمومية : تلك الحاصلة لأمه مثل متعة كونها أماً . أماً بواسطته ، وتصبح الأم في أنوثتها ركيزة سلبية الموضوع المرغوب . واللذة ، إذ تسقط على الموضوع ، تكون إيجابية ، وتسقط في الموضوع قد تصبح سلبية بواسطة تصورات باطن حيث الأنا تنغمر .

حوار أطفال (إصغاء غير متحفظ)

ڤرونيك (Veronique) ، عمرها ست سنوات ، تتناقش مع أخيها داميان Damien ، وعمره ثماني سنوات :

ف : « أتعرف ، أمي قالت لي أنها أرضعتني ثلاثة أشهر من ثديها .

د : وأنا أيضاً ، وحتى أكثر من ذلك بقليل .

ف : نعم ، ولكن أنا كانت ترضعني سابقاً عندما كنت لا أزال في بطنها .

د : هذا غير ممكن . فالصدر موجود في الخارج .

ف : كلا ، بالنسبة للفتيات ، توجد أثداء من الداخل أيضاً . وأنت صبي ، فلم تكن تحتاج إلى ذلك » .

---

(1) J. Lanouzière, 1988 .

وإذا كان داميان يبدو غير مقتنع كثيراً ، فإن ڤرونيك كانت كذلك تماماً :. فالنهود الداخلية هي للفتيات . وقبل الحصول بكثير على على نهود ،" تتمتع الفتيات من النهد الداخلي . فالشدي الأموي داخلي دائماً ، ويأتي « خارجه » من الداخل .

نقص

إذا صدق بيون Bion في قوله « [. . .] كل فكرة كما تكون عادة معروفة ، أي كخاصية للكائن البشري ، كاذبة »[1] . إذن تخاطر فكرة فرويد عن الأنوثة في أن تكون كاذبة لأن ، ودائماً وفق بيون : « الفكرة الوحيدة التي تتوافق مع الحقيقة هي تلك الفكرة التي لم تجد قط شخصاً ليحتويها »[2] . أما فكرتي الخاصة عن الأنوثة فإنها تخاطر ، هي أيضاً ، في أن تكون كاذبة . أوافق على هذه المخاطرة : فكرتي الخاصة ، التي تكذبها الحدود التي تحتويها ، سيكون لها ، على أي حال ، جدارة أن تكون أكذوبة إمرأة .

إن أحد « مصادر التجربة »[3] يظهر أنه التواحد الإسقاطي ، شكل مبكر لقدرة التفكير . وسيعمل رأسنا حينئذٍ مثل كهف أفلاطون الذي على خلفيته نسقط المواضيع المستثمرة لتأثراتنا الأولية ، وكذلك كحاوٍ للمشاعر البصرية التي تنتمي إلى هذه المواضيع وتحددها . ولم تكن

---

(1) W. R. Bion ، 1974 ، ص 197 .

(2) المرجع السابق .

(3) المرجع السابق .

الفكرة النظرية أبداً إلا استعـارة للكائن الـذي يسعى إلى أن يكون جوهرها .

والكناية تصور ذكوري للنتاج في النظرية التحلفسية ، عندما تخلط المرأة مع رحمها والرجل مع قضيبه . ففي كل امـرأة يوجـد شيئاً من القضيب كما في كل رجل أجزاء صغيرة من الرحم . إن افتراض قضيب للمرأة ، أو الرغبة بقضيب أداتي ، هو وضع ما تمتلكـه في الداخـل خارجاً وإعطاء شكل ظاهر لما لا يمتلك من ذلك شيئاً يعرف أو يحدد بواسطة المخيلة .

للتكلم كامرأة ، يتوجب علي إذن العودة إلى الفكرة الاستعارية أو ربما ببساطة التقابلية . وحينئذٍ كيف نقدّم فكرة المرأة ؟ بتجويف بالنسبة إلى الداخل ؟ وبنتوء بالنسبة إلى الخارج ؟ الحجم والسطح يختلطان في تعقد متدرج . وأفضل تحديد الفضاء الداخلي كتصـور أولي ، فضاء يؤسس موضع الموضوع النرجسي . والنتاج التصوري لأشر (Escher) حيث تصبح الصور شيئاً فشيئاً مختلفة بواسطة إندماج الخلفية ، يعبر رمزياً عن هذه الطوبالوجيا* . العين تتصرف ، يقودها الانزلاق غير المحسوس للشكل . ويقوم الموضوع ـ الشكل ويتحول بواسطة حضور الخلفية .

وليست تجربة الواقع هذا الواقـعَ نفسه . وليست المـرأة الوحيـدة للقيـام بالتجـربة الأنثـوية بـواسطة بـاطن الذات قبـل القيام بهـا في

(*) الطوبولوجيا فرع من الرياضيات يعنى بدراسة موقع الشيء الهندسي بالنسبة إلى الأشياء الأخرى (المترجم) .

التواصل . ويتوافق انزلاق الشكل على الخلفية مع التعـريف المريب للثنائية الجنسانية . وتحت شكل فوهـة ، مجرى ، فضـاء متقبِّل عـلى النموذج المعماري نفسه للجهاز الهضمي مثلاً ، توجد عناصر الأنوثة . ومن ضمنه في إنتاج الأشياء الذي يستحضر الوظيفة الأمومية للباطن الأنثوي (غائط = ولد) . وهذا الفضاء قابل حتى للحفاظ مؤقتاً على المـوضوع الـذي يتـوقف فيـه وتحـويله ، مثلما يحتفظ الجهـاز النفسي بالانطباعات الحواسية ويحوّلها إلى تأثرات أولية ، إلى مواضيع ، أو إلى أفكار .

لا شيء من الميكـانيك ، في هـذا المجموع جسـد / نفس الذي يستطيع وصف نفسه بشكل أفضل مما فعله غودل Gödel بنظريته عن النقص . وتوجد دائماً رغبة لا يتوافق معها أي مـوضوع . وبـالنسبة إلي ، إن العنصر الأساسي للقانون الذي يحدد النظام التحلفسي هـو العنصر الأنثـوي : النقـطة الـداخليـة التي تتـركّـز فيهـا الصـور والاستيهـامات التي تؤسسهـا . القارة السـوداء . من الهسـتيريـا إلى الوسواس مروراً بالكآبة ، استند الى صدع المطلق هذا وقسم فكره إلى مبدأين : لذة وواقع . وثوابت الفكر محكومة بالنقطة الثابتة المظلمة في المركز الأنثوي ، الذي ينظم المعطيات الأكثر فأكثر خارجية في مبـدأ الفكـر ، وحول ، وكـل شيء دوران ، الكون ، الثـورة ، انزلاق . والأنثوي هو الفكر الذي يتصور نفسه بنفسه ، نوع من الإخصاب ذي نظام مرجعي ذاتي . فالانثوي هو الوحدة .

وإذا كان فرويد محقاً ؟

وإذا كان فرويـد محقاً ؟ ربمـا لم أكن هنا ، بصـدد الكتابـة ، إلا

لأعوض بشكل وهمي النقص المتسامي للقضيب . أينقصني في الكائن المفكر الذي أكونه ؟ كمالية حيـة خارج وظيفتي المنجبـة ، ولن يكون فكري إذن إلا السلبي المزهو لفكر رجولي ، أو أيضاً التبدل في الشكل للقدرة الرجولية لشعور الغياب . فإدراك غياب عضو رجولي هو مسبقاً تصور الرجولية .

الكائن الملغى بالْمِلـك، كونك أماً لا يعني امتلاكك طفلاً ، بـل صنعه طويلاً من لحمك الذاتي . الرجل لا يملك قضيباً ، إنه قضيب ، يجعله عضواً منتصباً بواسطة رغبته . فالعضو المنتصب ليس إلا عضو الرجل الجنسي . الكائن يستعلي الامتلاك .

عضو جنسي ظاهر وملموس ، مستثمر من إيجابي الاختلاف الذي يعهد إليه معنى : العلاقة بالكائن المولِّد أبديته . وإنه على التصرف ، بعد فوات الأوان ، يتأسس الاختلاف : التبويل الظاهر وعلى مسافة ، العضو المرئي والملموس ، محدث اللذة . في الداخل المهتز للفتاة يوجد كذلك الـ « ما هذا ؟ » للعلاقة الجنسية . ولكن آخر ، مكمِّل .

ماذا المرأة ، حينئذٍ ؟ إذا كان الكائن المرأة لا يستـطيع أن يكـون متصـوَراً إلا كنحو أو غـير الرجـل ؟ أأستطيـع ألا أكـون إلا « لا ـ رجل » ؟ سلبي صورة يمتلكها الرجل عن ذاته ، وفرجي الخاص غير مستطيع إلا الإنخداع بالحضـور الخارجي أو غيـاب الآخر في أنـاي الذكوري . فكر نابت من العضو الجنسي والغياب ، إذن ستفكر المرأة قبل الرجل . ويبدو أن فرويد قد كتب ذلك أيضاً[1] ، ولكن الرجل

(1) س . فرويد ، 1932 .

المخصص وحده بالقضيب ، ووحده الرجل يستطيع تصور الكائن ، وتصور المرأة : رجل ذو تجويف ، غير مكتمل ، معطوب . وعلى الأكثر قالب ملغز . وإذا ، مع ذلك ، كان الفكر متجذراً جيداً في تركيب الجسم ، ينبغي أن يوجد فعلاً جوهر للكائن الأنثوي القابل للتفكير إنطلاقاً من تركيب الجسم ، أو على الأقل ليبدو متميّز . وحتى ولا .

وبعمق أكبر ، يرتبط مع ما يعانيه الجسم وما يتصوره الذات ، بالموضوع المتميز أيضاً ، بخارجانية الكائن وداخل الغلاف : ليس فقط تشبيهاً مع آخر ، غريب مضاعف . الذي لا يوصف لغير المماثل . فكر متحدر من المعاني ، الخاص بالكائن المعزول نهائياً في جسده ، الذي يجهل أيضاً الاختلاف ، أو بالأحرى المنسحب من هذا الاختلاف نحو الأساس العنيف لأنواع الحصر . جماع : وهم الوحدة الضائعة . ثم ، بعد ذلك ، كل لنفسه .

القسم الثاني

كتابة

الفصل الخامس

كلمات ونساء

ماذا يستطيع العديد من النساء معاناته جيداً في المرحلة الراهنة ليطالبن بحق الكتابة بهذا القدر من الشراسة واليأس ؟ إن توافقاً ظاهراً يقوم بين هذه المطالبة بالأنوثة الفعلية وتطور الوسائل المضادة للحبل وجعلها رسمية . وتوازي الحدثين في الزمن يبدو لي لافتاً للنظر . كما لو أن إمكانية عدم إنجاب أطفال إلا بقرار ناضج ، أو عدم إنجاب أي طفل كلية ، كانت تثير عند النساء قلقاً نفسياً بالنسبة إلى وسائلهن النوعية للتعبير . فالحمل وتوليد طفل ، بكل تأكيد ، التعبير الأكثر نوعية للأنوثة . ويبدو أن انتصار حرية الحمل التناسلي قد رمى الشك عند عدد من النساء على قدرتهن على التصور الفكري . ومن الشائع مقابلة إمكانيات تحرير الرجل إزاء مسؤولياته في الإنجاب ، بالالتزام الأنثوي في الأمومة . وهو إلتزام ، غالباً ، محتمل بشكل سيء لأنه يجر إلى وضع بدني خاص والمسؤولية الحتمية الملموسة لحياة جديدة .

فأية علاقة تقوم بين تشريع رفض التوليد وأزمة الكتابة الأنثوية ؟ أية معارضة توجد حرية اللذة الجنسية في حين أنها لم تعد مؤسسة على تأكيد هوية أنثوية ؟ وكتابة المرأة ، هل هي مماثلة لكتابة الرجل وبأية ميزات يمكنها التمايز عنها بطريقة سهلة المعرفة ؟

مسائل مطروحة ، وليست محلولة ، بالرغم من تكاثر الكتابات

الأنثوية . شعور بالتضجر بين كثير من الآخرين في مفـارقة الكتـابة للهرب من العبودية « للهيمنة القضيبية » . من دوريس لسينغ (Doris Lessing) إلى ميشال مونترلاي (Michèle Montrelay) لا يطمئننا الأدب الحالي كثيراً على وضع هذه الصفحات .

ومـع ذلك هـا أنا مـرمية الصفحـة البيضاء التي كـان مـالارميـة (Mallarmé) يسترد ربما في ذاتـه ، مثل العـديد من النسـاء ، نشوة الفـراغ البتولي . نشـوة يجرهـا البيـاض فيـها وراء جـذور الحيـاة في جسـدي ، نحو هـذا التصور الـرهيب للپارك (Parque)* ، والخيط المنسوج للكتابة ، والممدود بعنف شديد على يد نسـاء اليوم ، أليس ضد علامة الموت ؟ ولرفض خصوبة المني فيهن ، قد تـواجه النسـاء خوف العقم . والمرأة ، إذ تعطي الحياة ، تحتفظ بالقدرة الكلية على هذه الحياة . ورفض الحبل يخفي بعض النية الكابحة : لذاتها ـ إمرأة غير مكتملة في الأمومة ، إمرأة ببطن ميت ـ وللطفل الـذي الوجـود مرفوض له .

إلى هذا الكفاح المستمر من أجل هوية تريدها المرأة معترفاً بها في علامات الكتابة ونحوها ، فتبـدو هذه المـرأة دائماً خـائفة أن تجهض ذاتها . فالكتابة طـريقة للتـأبد . ولكنهـا ليست بالتحـديد أنثـوية أو ذكورية ؛ من هنا ، على وجه الاحتمال ، ذنب المرأة في استخدامها . وخاصة إذا حلت الكتابة محل التوليد . فغموض معجم الكلمات التي تعينّ النتاج الأدبي والنتاج التناسلي ، هو قديم : خلق نتاج ، إبتكار

(*) ربة الجحيم وسيدة حياة البشر التي تغزل نسيجها . (المترجم) .

نص ، تصور فكرة ، إلخ .

وينتج الموقف التحليلي مجدداً ، بين الأريكة والمقعد المريح ، بعض خصائص اللحظة الوراثية حين يبدأ الطفل بالكلام . وفي هذه المرحلة الثانية من الحياة ، يأخذ الانفصال البدني للأشخاص أم / طفل معنى جديداً ، يتحقق تحت الأشكال التي ستؤسسها اللغة في الوقت نفسه الذي تؤسس نفسها على إمكانيتها .

والكلام ، في التحليل كما عند الطفل في سنته الثانية ، يضع الجسد على مسافة من الفعل . ويصف العلة البدنية في حركاتها الداخلية وتجعلها سهلة البلوغ للتحليل بدون مشاركة أخرى نشيطة غير المشاركة الشفهية .

ويبدو لنا ضرورياً ، لفهم كيف تتأسس هذه السيرورة عند الطفل ، القبول بمفهوم الكبت الأولي ، كما وضعته ملاني كلاين . وفي الواقع يمكن إفتراض أن الأنا العليا المبكرة تستخدم الحركات الغريزية لتشكل القدرة .

إنها إمكانية الظهور عند بعد في فضاء غير فضاء الجسم الأمومي الذي يثير استخدام الوظيفة الصوتية لغايات ليست لعبية فقط . وتتحول لذة الطفل الصغير باللعب مع صوته ، عنده ، إلى نظام تعبير للذات المتعمدة ، مخصص لإبلاغ الذات ، بدون الاستمرار في علاقة تكافلية حيث الحاجات والرغبات مختلطة مع حاجات ورغبات الأم .

إن الممنوعات المبكرة هي ربما المصدر ، مثلاً ، لسلوك ملاحَظ غالباً عند الطفل الصغير . وفي أحيان أكثر مما نعتقد عند البالغ : مص

الإبهام . وبين محاولات التفسير ، واحدة ، غير مكتملة بقدر ما تستطيع ، تبدو لنا مقبولة : هذه الحركة الشبقية ـ الذاتية تسعى إلى تعويض غياب شيء مرغوب . ويستطيع هذا الغياب أن يكون . شيئاً فشيئاً ، مفهوماً من الأنا العليا في تركيب مثل نتيجة منع للذة . وستكون حينئذٍ الحركة الشبقية ـ الذاتية ، بكل تفاهة ، محاولة للاستبدال ، مصاحبة لكبت الرغبة نحو الشيء . ومن جراء الحرمان ، يقتاد الطفل إلى التراجع وإرضاء نفسه بوسائله الخاصة ، مهلِّساً هكذا اللذة الترابطية للرضاعة ، للثدي الممتلَك بالفم .

أيمكن الكتابة حينئذٍ ، مثل ميشال مونترلاي (Michèle Montrelay) ، أن « التصور اللاشعوري ليس إلا نصاً ؟ »[1] . يبدو جيداً في الشهور الأولى من الحياة ، في حين أن اللغة ليست أيضاً ممكنة على المستوى الوظيفي ، أن اللاشعوري لن يكون إلا جسماً منتشراً ، بدون بنية ، يتشكل من جهاز عضوي راغب على يد الوسيط الجدلي للإجابات والرفوض لجسم الأمومي وللبيئة . في التحليل النفسي ، تسمح سيرورة الانكفاء الموضعي والوقتي باسترداد وضع الكائن هذا ، وكل ذلك مع السيطرة عليه بوساطة وسيلة المسافة الفعلية . وهذه سيطرة ينبغي أن تحمي أو تؤسس التحليل ، بدون جهل لهذا العناصر البدنية التي تثير الحركات الغريزية التي لغتها هي التعبير عنها .

وقد تكون هذه فعلاً واحدة من صعوبات الوضع التحلفسي الذي يكون أساسه الجوهري هو الحدث الشفهي . وقد جرت صعوبة البقاء

---

(1) 1977 . إستشهادنا مستخرج من الفصل « بحوث على الأنوثة Recherches sur la Féminité » . ص . 64 .

فيه عدة إلتـواءات للتقنية الفـرويديـة بالنسبـة إلى قاعـدة التعفف : فعديدون هم أولئك ، المشهورون أو المجهولون بشكل مظلم ، الذين أفلسـوا عنـد هـــذه النقـطة . ويفــترض إدراك السـيرورات الأولى وتفسيرها ، عندما تظهر عند المعالَج المتراجع إلى طريقة فاعلة ، عند المحلل الذي قبل ، هو نفسه ، التخلي عن هذه الـطريقة بـالإرضاء المباشر . والمسافة المنظمة بالقاعدة الأساسية بينه وبين مريضه لا ينبغي أن تكون مغمورة إلا بالكلام . وهو ، بالتأكيد متورط كشخص بقدر ما هو متورط كمحلِّل في الإجابة عن الانكفاء ، لكن نظام إصغائـه يجب أن يتيح له المحافظة على الوضع عبر الخطاب وحده . الخطاب الذي يصبح حينئذٍ إستعاري للعلاقات الاستيهامية الجسدية للأفراد الحاضرين . في هذا الوضع ، في الواقع ، حيث الجسم منذَر بعدم الظهور عمداً بوظائفه المـألوفـة ، يصبح الخـطاب الشفهي للمريض المعالَج ، بشكل خاص جداً ، شكلاً إستعارياً للاشعوري عنده[1] . وتصان القاعدة على يـد المحلِّل الذي يستعيـد فيها ، لا شعـورياً ، الوضع الداخلي المؤسس للغة عند الطفل : وتظهر اللغة عندما يفلت الطفل من العلاقة الثنائية . وما يعيِّن حينئذٍ على يد الفتاة ، إذا كان الأب ، هو تخليها كذلك عن هذا الأب أمام الأم . وسينشحن الكلام بكل المعاني العاطفية المستدعية الاتصال الملموس مع الشيء المرغوب . وهذه الإمكانية هي ربما ، خارج حدث النضج القشري ، محرِّك الغنى السريع للغاية لمعجم الكلمات الطفولية خلال السنة الثالثة . كما لو أن

(1) يرى ج . ب . پونتاليس (J. B. Pontalis) في النفسية « استعارة مزدوجة للجسم » 1977 ، ص ص 217 ـ 222 .

الكلمات كانت مخصصة لردم ، بأسرع ما يكون ، وبأكثر ما تكون الثغرات الفضائية بين الطفل وأمه . ولكن كذلك ، على وجه الاحتمال ، لملء الفضاء الداخلي للفتاة الصغيرة ، المتوقع عند توظيف المناطق التناسلية .

ويظهر كلام الفتاة إذن ، في مسأليتها الخاصة ، الاستعارية للجسم الأنثوي . وهذا الفضاء الذي يملأه ، بين الفتاة ومستمعها دال على الرغبة الأنثوية : الفضاء الداخلي ، المشهوَن منذ عمر مبكر . ويمثل الخطاب الأنثوي فكراً لباطن ، وعاء / حاوٍ ، يتميز بما هو مِثلٍ للخطاب القضيبي للرجل . وثغرة الفكر ، الذي يقدم نفسه غالباً كفكر خاص للأنوثة ، هو ربما شكلها المِراضي .

ويمكن كذلك الافتراض أن هذا الوضع للحاوي ، الذي عالجه ، بعد بيون ، العديد من الكتّاب المعاصرين ، يتيح للمرأة المحلِّلة إمكانية طبيعية تماماً ومختلفة عن طبيعة الرجل . ألا يمكن ، في الواقع ، رؤية تصوير رجولي في هذه « الأذن الثالثة » للمحلِّلة ، أداة خارجية للاستقبال ولمنفذ للجسم ؟ . وتفهم المرأة المحلِّلة ، على وجه الاحتمال ، بشكل أكثر مباشرة ، أن الرجل بفضل تكوينه التشريحي : الأذن الثالثة ليست إلا مزجاً أنثوياً يوصل إلى التجويف الأنثوي لكل محلِّلة .

ذات يوم ، أثار مريض دهشتي . ففي هذه المرحلة ، كنت قد بدأت التفكير بكبت الكتابة ، عندما كشف لي بانطلاق شعري عن المرأة : « الكمال ، بالنسبة إلى امرأة ، هو أن تكون رجلاً » . كانت الكلمات المتجمعة هكذا ، في مختصر آسر ، موجهة إليّ بفظاظة .

واللذة التي أحسستها فيها ، آتية من جانب رجل شاب ضعيف ومكتئب ، أثارتني بشكل جديد في مسألتي الخاصة . وقد تمثلت الكثافة الفعلية لهذه الجملة بالنسبة إلي بطريقة قضيبية ، وبدا معناها مناقضاً معناها الأصلي . إذ كان رفض الأنوثة يميل إلى تحويل الانتباه عن الرغبة التي كان يشعر بها هذا الشاب المتكلم لا شعورياً نحوها . ولكن شكل الجملة كان واضحاً إلى درجة أنني شعرت بنفسي أجيب عنها في موضع آخر غير فكري الشفهي . لقد أحدثت فيّ الضحك المتحدر من لذة ما ، مدينة في الظاهر إلى هذا المحتوى العبثي . لكن هذه اللذة كانت تستحضر في موضع آخر صدى أنوثتي ، مدركة من قبل مريضي في أعماق اللاشعور عنده . لقد كانت جملته تفحمنا .

وهنا ، كانت قليلة الأهمية السقطات التقنية واللحظات التفسيرية التي تتفرع من هذا التبادل كلام / لا شعور . والأهمية التي أريد إضفاءها على هذه الحلقة من معالجة تحلفسية هي أهمية تحد تجاه اللاشعوري والمعانى الأنثوي مع تشبيه دائم مع الوضع القضيبي . وإن التباس الأعضاء الجنسية ، الذي يميل إلى إعادة كل نسق فهم للعضو الذكوري ، يجر حتماً إلى التباس الفكر عند المرأة : بعد أن كان مرتبكاً يصبح ملتبساً . وتخاطر فيه المرأة بإلغاء حقيقتها الجنسية والفكرية .

ومن هذا النسق المألوف في حضارتنا العربية تتفرع معظم الكبوتات الفعلية عند الفتاة ، الكبوتات التي تقوم على إعداد الفكر الفعلي ، الشفهي والمكتوب .

من استخدام الكتابة والكبوتات التي يلتقيها عند المرأة ، سأعالج مرفق وجهتي نظر ، مميِّزة ،من جهة ، التعبير الخطي والنص المكتوب

كموضوع، ومن جهة أخرى ، الوسيلة الخطية ، بالمعنى الذي تستلزم فيه الإشارة الكتابية وسيطاً ، بل أيضاً حيث يصبح النص المكتوب وسيلة تواصل مختلف مادياً عن الكلام .

أما استكشاف الأسس التحلفسية للجنسانية الأنثوية ، فقد كان في أغلب الأحيان مباشراً به بقوة في الأدب التحلفسي المعاصر . وسأنوّه بشكل خاص بأعمال جانين شاسوغيه ـ سميرجل (Janine Chasseguet-Smirgel) وأعمال بعض الأخريات معها[1] ، التي ، إذ تستعيد أفكار فرويد في رئاية نقدية أو مكمِّلة ، عالجتها من وجهة نظر عيادية بقدر ما هي نظرية .

ولا يمكن تجاهل إزدهار الأعمال عن هذه المسألة التي انطباعها العام مطالب إلى هذا الحد أو ذاك بحسب الكاتب : كتب أو مقالات مدينة في أكثريتها إلى النساء اللواتي همهن الحصول على الحق في أن يكن نساء ويكتب « كنساء » . هيلين سيكوس (Hélène Ciscous) ، وميشال مونترلاي ، ولوس إيريغاري (Luce Irigaray) . من بين كثيرات أخريات ، يظهرن قلقهن بشأن وضع المرأة في مجتمعنا ووضع فكرها فضلاً عن إمكانياتها المعطاة لها للتظاهر بحرية في عالم يتصورنه كلياً وبعناد رجولياً .

إن أسئلتهن والأجوبة التي حملنها لها قد وضعتني ، أنا نفسي ، في حيرة كبيرة ، بسبب وضعي الشخصي كإمرأة محلِّلة ، إذن معدَّة لمعالجة اللغة في ظروف محددة بشكل خاص . ويتفق والحالة هذه أن أُجَر إلى

(1) J. Chasseguet-Smirgel, 1964 et 1988; Jacqueline Cosnier, 1987 .

الشعور بنفسي أكثر فأكثر على مقربة من مركز التفكير الأنثوي وأسئلته .

الكتابة في هذا الموضوع ، في حين أنني إمرأة ومحلِّلة ، يستلزم مراقبة لذاتي المرأة من قبل ذاتي المحلِّلة التي يعاكسها اللاشعوري في أغلب الأحيان . ولحسن الحظ يبقى الحلم بالنسبة لها طريقة « ملكية » تمتلكها للكشف عن باطنها في اللحظة الملائمة من النضج .

إذن كنت أحلم ، واستيقظ وفي رأسي كلمة عجيبة Scribedouche . وكانت الصورة الثابتة صورة ألماني ضخم كان يصرخ بهذا الاسم بطريقة فاحشة . لقد كان هذا اسم ابنته ، أو إسم أحد المراهقين .

بدا لي المقطع الأول Scribe في الحال مثل صيغة الأمر من الفعل اللاتيني Scribere اكتبي ! في وضعي الحالي ، كنت أتعرف فيه على أنا عليا أبوية . ولا سيما أن المقطع الثاني douche كان يرتبط بالنسبة إلي ، من بين أشياء أخرى ، بـ dù : أنت ، ثم بـ dùrch : عَبْر .

ليس في نيتي هنا استنفاد التداعيات التي أثارها في ذاتي هذا الحلم ، ولا أن أعمل منها تحليلاً شاملاً . ومع ذلك سأستخرج منها بعض الملاحظات الشخصية لأن لها علاقة بالعمل العقلي لامرأة مفكِّرة بمشكلة الكتابة . وأفهم جيداً أن إشكاليتي ليست الإشكالية الوحيدة للبرهنة . إنها تعطي فقط توضيحاً لهذا البحث .

كنت أسمع إذن ، في حلمي ، الصوت الأبوي يحرضني على الكتابة ، أنا بالامس ، وكان هذا الصوت يجتازني (dùrch) . كأن الصوت الأبوي كان في نفسي الأداة التي كان يتوجب علي استخدامها

للكتابة . ولكن هذه الصورة الأبوية لحلمي كانت رجلاً ألمانياً : الأمر الذي يلمّح في الواقع إلى أني أتعلم هذه اللغة وفق رغبة أبي . فالألمانية إذن اللغة الثانية ، بعد لغتي الأم : لغتي الأبوية .

ولكن واقع أن يكون رجلاً ألمانياً هو الذي يلزمني بالكتابة هو إشارة إلى أنه العدو . ويكون هذا الإغواء في مراهقة زانية بمحرّم مصغِية إلى صوت الإغواء الأبوي . ولكنه يبقى مستحيلاً لأن الرجل عدو ، وعلى الأصح بشع . وما ينتج عنه لا يستطيع التحقق إلا في كلمات .

ولكن عندما انتهى الحلم ، بقي العمل ينتظر القيام به .

* * *

لا يختلف التركيب العضوي للمرأة عن التركيب العضوي للرجل إلا بالعضو الجنسي والأعضاء التناسلية . فالوظيفة الشفهية متماثلة عند الجنسين ، لجهة أن جهازاً عضوياً عقلياً طبيعياً ينتج عند المرأة ، كما عند الرجل ، تعبيراً طبيعياً . وإنه في سيرورات الإنتاج تختلف المرأة عن الرجل . الإنتاج التناسلي ـ الإنتاج اللغوي . والخلاف في الشكل والتحديد العضويين يؤدي إلى استخدام للرموز ولنمط من العمل الشفهي مختلفين عند الرجل والمرأة .

إن التنظيم اللغوي للتعبير الأنثوي يتضمن التصور اللاشعوري للذات ، محدد بالتجويف التناسلي . في حين أن عند الرجل يمكن التعرف بسهولة إلى أن القدرة الشفهية معادلة للقدرة القضيبية .

إن الإنزعاج الذي يوجِّه تصور الخصاء الجنسي يستأنف بكل تأكيد

كبت الرغبة الفمية ، أي الرغبة الملتبسة أيضاً مع الحاجة الأساسية المرتبطة بغريزة الحياة . ويبدو أن الحرمان من الحلمة داخل الفم ينتقل إلى موضع آخر ، عندما لا يتم التغلب عليه ، في تصور الخصاء الذكوري ، المتخيَّل ، بابتذال وإفراط ، مثل إستئصال القضيب ، إذن من كل إمكانية قضيبية ومن كل إجابة عن غريزة الحياة المستعادة في الحاجة المنجبة . في حين أن المخصي الحقيقي هو ذاك الذي فقد مع خصيتيه القدرة على « التناسل » ، والإنجاب ، و« ملء » المرأة .

والمشاعر الجنسية ، عند المرأة ، هي بدون أي شك ممكنة ، داخلية أكثر منها خارجية . ويمكن حتى التساؤل ، إنطلاقاً من الملاحظة العيادة ، إذا كان ما يسمى انتعاظاً بظرياً ليس نقلاً نحو الخارج لإمكانيات المتعة الداخلية ، أو ربما لعدم القدرة على التمتع المهبلي الانتعاظي .

وعلى أية حال ، إن الحرمان من إمكانية المشاعر الداخلية هذه هو الذي تشعر به المرأة الباردة جنسياً أولاً كخصاء مرفوض من قبل أناها العليا ، وهو الذي يسبِّب عدم القدرة على تحقيق الرغبة . وبنفس درجة العنة الذكورية .

لكن التصور الذي تمتلكه المرأة هو بكل وضوح تصور حرمان من شيء ما . داخلي ، غير محدد لأنه غير ظاهر ، ولا تمكن معرفته إلا من قبل الأم . لأنها هي نفسها إمرأة ، والتواحد السلبي معها يؤدي إلى نفي التجربة المعاشة الداخلية ، والأنثوية بشكل دقيق . وهذا الشيء ممثل في أغلب الأحيان بصورة القضيب الفحولي لأن العلاقة انتعاظ ـ قضيب فحولي معرفتها ممكنة ، في حين أن العضو الأنثوي للذة الجنسية

يبقى مجهولاً من التمييز الخارجي . وهذا الشعور بالخصاء بوساطة الحرمان من اللذة المهبلية يسبب ، عند الكثير من النساء اللواتي يعانين منه ، توظيفاً غير كافٍ أو على العكس متضخماً بالأطفال الذين يستطعن إخراجهن إلى النور . إما ، في الحالة الأولى ، لأن الطفل ليس ثمرة لذة جنسية مشتهاة دائماً ، وإما في الحالة الثانية ، لأن الطفل يحل محل القضيب الرجولي الذي سينبغي أن يكون مسبِّباً للذة ، وإذن يبقى هو نفسه موضوع اللذة الشبقية، عندما لا يكون مصدر حقيقي لها . وهكذا يرجع الكثير من المريضات المعالجات غالباً ، في خطابهن المتعثر عن اللذة ، إلى هذه اللحظة من ولادة أحد أطفالن ، والأول خاصة . وحينئذٍ تكون متعتهن المتعة الأكثر كبراً في حياتهن ، والذكرى اللواتي يحتفظن بها منها ، هي ذكرى شهوة لا تضاهى .

وأخريات ، على العكس ، وضعن أولادهن بعملية قيصرية ، يشعرن أنهن محرومات من اللذة المتخيلة من ولادة أطفالهن بالمسالك الطبيعية ، إلى درجة أنهن يجدن أنفسهن مكتئبات كأن « أنشوتهن » كانت كذلك مختطفة . وقد لاحظت أن الأمر كان يتعلق غالباً بولادة الصبيان .

إن جهد الولادة ، المقسَّم بين الأم والطفل ، كما وصفه جيداً فيليس غريناكر[1] (Phyllis Greenacre) يقود المرأة بكل تأكيد إلى الشعور الحاد بالغريزة الحيوية .

ولكن ليس هنا فقط مصدر المتعة الأمومية : ففيها وراء الآلام

(1) 1953 .

الرحمية ، الفرج الأنثوي بكامله يوضع في حالة هياج بواسطة دعك جسم الطفل . وهو إحساس رهيب إذا فكرنا بالتصورات الأوديبية اللاشعورية لا يستمر عند الرجل عندما يجابه الخوف الطفولي وخوف أيام البلوغ من اختراق الجسم الأنثوي والذنب الذي يجده في ذلك .

وإذا تم النضج الجنسي بشكل طبيعي عند الفتاة . في الوقت نفسه الذي يسمح لها التطور الأوديبي بالتوصل إلى استقلال رغبتها ، فإنها تواجه حتماً الحاجة إلى « صنع طفل » . وهي الحاجة التي قبل كل شيء حاجة إلى الاكتمال البيولوجي الأنثوي بشكل جوهري بوساطة الإخصاب . لكن الطفل الذي تتمنى إنجابه حينئذٍ ، لن يكون بعد الآن طفلاً استيهامياً للعلاقة الزانية مع والدها ، ولا مع ذاك الذي لا شعوريها الأنثوي سيستخرجه لها ، حسداً ، من جسد أمها الحقيقية .

ولا يعني تجاوز الكبوتات العائدة للأنا العليا في هذه الحالة أن الاستيهامات الأساسية لا تبقى في اللاشعور الأنثوي . فهذا الحلم لصديقة محلِّلة نفسية الذي يبدو أنه قد حقق بطريقة مرضية حياتها الجنسية ، الزوجية ودورها كأم ، يبدو لي شاهداً على ذلك : **إنها في قاعة استقبال ، مع كثير من الرجال الذين هي بصدد إغوائهم . وقدِّم لها قدحين ، والثاني منهما لم يجد أبداً الوقت لكي يُقدم . وقد احتفظت من ذلك بانطباع مزعج « ذلك لا يمضي أبداً إلى النهاية . قالت لنفسها . كأن القدح الأول كان له طعم الماضي اللطيف والممنوع ، والذي يجعلني أفكر باللذات الغزلية للطفولة . وأن تكرار هذه اللذة لن يكون بعد الآن ممكناً » . فـ « الاقتراح » ممنوع .**

ولكن إذا كان حلم هذه المرأة يعني صعوبة « ذهابها إلى النهاية » ،

وذلك لأن الأمر يتعلق حينئذٍ ، بالنسبة إليها ، بحق ، باستعمال رغبة النتاج الكتابي ، وكذلك الإنجاب . وكان « الاقتراح » يأخذ معنى سيميائياً مضاعفاً : نحوياً وجنسياً .

ولا يتعرف الأب على شبق الفتاة إلا بواسطة أنماط خاصة من السلوك تظهر غالباً بطريقة مبكرة (الغنج ، مثلاً) ، بما في ذلك السلوك الشفهي . وهي لا تتصرف بأي شيء عضوي قابل ، مثل الانتصاب عند الصبي ، لإظهار الدليل على رغبتها أو لذتها . فكل إظهار قليل الوضوح لهاتين الأخيرتين يستلزم في هذه الحالة عند الفتاة ، إسهام واضح للأنا ، يجر حتماً إلى نزاع داخلي .

وربما يشتمل جهاز الهستيريا على توليد ، بطريقة ظاهرة في جسمها الخارجي ، الرغبات الممنوعة التي تعانيها نحو والدها .

وتتفرع من اللذة الفمية الأولية ، التي تسبب شيئاً فشيئاً العبور من لذة الثدي الى القضيب النحولي ، اللذة اللاشعورية التي تعانيها الفتاة في عدد من التبادلات الشفهية وتمنحها ، على وجه الاحتمال ، الاحساس الغامض لكن الحاد بإشباع عميق ، نتيجة لعمل داخلي نوعي . وهذه المتعة إذن شديدة الشبه بالمتعة الجنسية . وكيف لا نخشى حينئذٍ على كلامها من تأثير العقاب الأمومي ؟ تماماً مثل الصبي الذي يخاف من جانب والده الخصاء القضيبي . وتظهر الفتاة بوساطة الكلام والكتابة إمكانية ومتعة العمل الداخليين المثلين للذتها الجنسية . فكلامها الإشارة على رغبتها ، تماماً مثل القضيب الفحولي المنتصب الذي هو بالنسبة إليها علامة على رغبة الرجل تجاهها . وهي رغبة تتوجه إلى قدرتها الإنجابية بقدر ما تتوجه إلى شريكها ـ المرأة الذي

يمكن أن يتقاسم اللذة .

أما ما يختص بها ، فكل ما هو في جسدها يتوافق مع « علامة » مماثلة لا يمكن أن تكون منقولة إلا بالكلام . وكل إظهار آخر هو « إشارة » يشك في أن يستطيع المرسلة إليه شجبها .

وإذا تم توضيح واقع أن الكتابة « علامة »(أو مجموع من العلامات) ، لا نستطيع إلا أن نقرب منها العلامة الجنسية التي هي القضيب الفحولي : علامة الرغبة والمقدرة . ويطرح الوضع النرجسي الأنثوي على التساؤل بسبب أن أية « علامة » على الجسم الأنثوي لا تبرز لتمثل عبوراً ممكناً من الرغبة إلى الفعل .

وتشعر المرأة برغبتها داخل نفسها : إذ ليس متعتها ظاهرة للنظر ، إذا لم تكن بشكل حمل وولد . لكن هذا لا ينطوي ، كما أعتقد لوقت طويل ، على غياب الرغبة واللذة الأنثويتين : فالمرأة تعرف ما ترغب فيه .

وليس الطفل المرغوب بالضرورة الطفل المراد . إنه ذاك الذي كُوِّن بكل لا شعور الرغبة . إنه إذن ، دائماً ، وإلى حد ما ، تحقيق الرغبة الأولى للفتاة في أبيها . وتتطلب القابلية الإنجابية للمرأة ، بدون شك ، الرغبة اللاشعورية في أن تجدد ، في جسدها الخاص المشهد الأولي الذي تحدرت منه . وهكذا تنتج في ذاتها إتحاداً مثالياً ، بشكل لا شعوري ، من أبيها وأمها ، وفيه يصبح الطفل المرغوب استيهاماً « مثالياً » لذاته . ويدين العديد من أنواع العقم الأنثوية الى العلاقة العائدة للأنا المثالية بهذا الاستيهام .

والطفل المرغوب ، إذا تم تصوره وفق هذه السيرورة اللاشعورية ، هو ممثل الأنا المثالية الأمومية . إذن موضوع الحب الأكثر شمولية .

وعندما يكون الطفل ، في الوقت نفسه ، مرغوباً ومراداً ، يحل الرجل في مكانه الطبيعي بالقرب من المرأة وفيها . فالطفل متحدر من هذا الاتحاد بوساطة الحركة الطبيعية البسيطة للأجسام والتأثرات الأولية . وعندما يكون الطفل ، بالنسبة للمرأة ، النتيجة المكتملة لقدراتها الخلاقة الأوديبية ، تكون الكتابة كذلك : فهذه العلامة أنها تتمتع . وتجسم الكتابة نتيجة شبق مستبطن موضوعه متحول . إنه إنجاب استعاضي ، برهان الخصوبة . وهكذا ، على أي حال ، تسير الأشياء عندما كل شيء يحدث بشكل طبيعي .

* * *

الكتابة أيضاً حركة عمدية ، تضع الجسم في حالة نشاط ، لهدف محدد جيداً . والكتابة تفترض استعمال نسق آخر من التواصل غير الكلام . والقصدية التي تظهر فيه تقوم على نسق رمزي مزدوج : ترميز تخطيطي للرموز الصوتية وتنسيقاتهم اللفظية والنحوية . إن تشغيل هذا النسق يمر بتدرب ليس عفوياً مثل التدرب على اللغة الشفهية . إنه يستلزم السيطرة العضلية للجسم كله في جهد الانتباه والتركيز العقلي ، وكذلك سيطرة اليد في الحركة النوعية الكتابية . ويتوجب على الكائن الأنثوي أو الذكوري أن يستطيع توظيف جهاز تربوي ، وليكن مدرسياً أو إجتماعياً أو فردياً . إنه يستخدم مجموعة من العلاقات والتواحدات المعقدة التي لن نتصدى إلا إلى قسم محصور منها : قسم الصعوبات

الخاصة بالفتاة في تعلّم الكتابة وفي إنجاز كتابي متوقع .

ويتموضع هذا التعلم في إشكالية عمل الأنا من جهة إمكانياتها التعبيرية القصدية ، الواعية والظاهرة . ويمثل اكتساب كهذا فرص القدرة على ترك أثر ، في حين أن « الكلام يحلق » . لكن هذا الأثر الذي معانيه اللاشعورية متعددة لا يفوت أن يكون مقلِقاً لعدد من الأطفال وأن يثير مقاومتهم لجعلها ممكنة .

وإذا كانت الرموز المكتوبة تضع في أحسن حال الفكر الشفهي . إنها توضِّح في هذه الحالة تعبير الأنا ومن هنا حتى تحدده. ويفترض إستخدامها القبول والتمثيل لمجموع محدّد من « القواعد » . والانتهاء الإيجابي للنسق التربوي ربما يفهم كبرهان على تنظيم أوديبي مرضٍ لجهة إنشاء السيطرة على غرائز الهي .

وعندما تتعلم الفتاة الصغيرة إستخدام العلامات الشفهية في القراءة والكتابة ، تظهر لأمها ، التي تعلمت منها الكلام ، قدرتها على الخضوع للقواعد . وتصعِّد هذه الشهادة التصميم البسيط للغة الاجتماعية . وترسم اليد العلامات التي تدخل نسق فكرها في المنطق النحوي والإملائي . وهذه العلامات هي علامات المعرفة ، التعبير اللاشعوري لمعرفة الوجود ولحدود الرغبة . وما تعرفه الفتاة من قبل ، هو رغبتها ، التي تعانيها داخل ذاتها ، رغبة سينبغي أن توصل إلى لذة جنسية ستكون أداتها القضيب الفحولي . والوعي الغامض الذي تمتلكه عن هذا المستقبل يحملها على إستثمار الحركة الكتابية للتعابير الشبقية جداً . ونلتحق هنا بالتحليل الذي قامت به جانين شاسغويه ـ

سميرجل[1] للذنب الأنثوي لجهة العضو الجنسي الأنثوي بنوع خاص : الفرج .

إن الفتاة الصغيرة التي تتعلم الكتابة تجد نفسها أمام وضع يستعيد كل ما تستطيع كينونتها النسائية المتحوِّلة دمجه بالشبقي .

ـ إنها لا تعرف من اللذة الجنسية إلا مجموعة من الاستيهامات والإمكانات الشبقية ـ الذاتية . وما تستطيع البيئة تزويدها به ليس غامضاً جداً . وتأخذ الكتابة إذن بالنسبة إليها معنى فعل إستنمائي . وتلمّح الأشكال المرسومة بيدها الى علامات لذة تكتشف لها طريقة جديدة لإحداثها . طريقة جديدة تستطيع الالتزام بها كلياً لأن الراشدين يشاركون بالكسب الذي تحرزه منها ، هذا إذا لم يحدث شيء يضاد إمكاناتها الشبقية الذاتية للتمتع ويجرِّمها .

ـ فضلاً عن ذلك ، تكتشف الفتاة في الكتابة موضوعاً جديداً محسوساً قابلاً لأن يكون منتجاً من قبل جسمها ، ومصحوباً بلذة لا يستهجنها الراشدون . إذن تستطيع الكتابة ، بعد الكلام ، وإلى مستوى أكثر إندماجاً بالأنا ، أخذ مكان وسيط ورمزي مهم بين الغائط والبول في المراحل المبكرة ، من جهة ، والعادات الطمثية والأولاد في المرحلة التناسلية ، من جهة أخرى .

ـ وأخيراً ، وباكتساب الكتابة ، توضع الفتاة في حالة اقتناء وسيلة للإنتاج . ومن الحشو المبتذل القول إن الريشة « قضيب » لأن هذه الكلمة لها في اللاتينية المعنى نفسه الذي لمماثلها في الفرنسية . بل إبتذال

(1) « الذنب الأنثوي La culpabilité féminine » في المرجع السابق . ص 154 .

صعب على التكامل من قبل المرأة في النص الكامل لتصورات الخصاء التي يتوجب عليها تذليلها . والأداة الضرورية للكتابة ، حتى لو كانت بكل بساطة إصبع يدها معدّة لذلك ، تخاطر في أن تصبح بالنسبة للفتاة مصدر ذنب . كما أن الاستمناء الذي تلمح إليه هذه الحركة ، يمكن أن يأخذ ، من بين أمور أخرى ، معنى استخدام القضيب الرجولي الأبوي . والأثر المكتوب المنتج كذلك يصبح حينئذٍ وبشكل غامض النتيجة المجسدة للمتعة التي تستطيع إثارتها في أبيها . ويتحاشى إنتاج نص مكتوب بصعوبة أخذ معنى « قضيبي » . كما أن المطالبة القضيبية بمعنى الامتلاك الوهمي للقضيب الفحولي هي سلاح سهل للأنا العليا ضد إنجازات الأنا . وهذه هي النقطة الحساسة حيث تنجرح النساء الكاتبات . ويصبح النص المكتوب نفسه وسيلة للإثبات القضيبي ويسبِّب تجسيده المتوقع كف الفكر .

وإذا رجعنا الآن إلى الاستتباعات الضرورية لتعلم الكتابة ، يتوجب علينا أن نشير ، بالنسبة إلى البنية إلى العزم اللاشعوري على أن تصبح معروفة كشخص « يعرف » . وتعني الرموز الكتابية للطفل ، وتفيده لتبليغ الآخرين ، أن رغبته في المعرفة قد جعلها المحيط مشروعة . لكن العلامات الكتابية ، في أشكالها المحسوسة المرسومة باليد وبالعلاقات المقننة للنحو وقواعد اللغة ، هي بالنسبة للفتاة ، إنتقال نسق التمثيلات اللاشعوية لاصطلاح آخر : إصطلاح علاقات الرغبة والغيرة بينها وبين أهلها . وفي الواقع ، عند البنية . يستيقظ الوعي الجنسي باكراً جداً . والأحاسيس المهبلية مبكرة وتسبب نزاعات داخلية تتجسد سريعاً جداً . ولا تمضي أهمية اليد في الكتابة بدون استحضار أهمية الأداة . وبعبارة أخرى : عندما تتعلم البنية الكتابة ،

الشيء الذي يرسم العلامات في يدها / المهبل رمز قضيبي حتمي . وهذه الإشارة تجسم حينئذٍ مظاهر رغبتها وإنجازاتها : ولتكن في التعبير عن الكتابة الاستثنائية أو بوضوح أكبر أيضاً في إمتلاك القضيب الفحولي الأبوي ، فالبنية تواجه ضرورة دمج إمكاناتها الفكرية في مجموع رغباتها وحاجاتها الغريزية . وفي هذه البرهة يمكن ملاحظة الأهمية الجدلية للتمثل بين الأب وابنته .

فتاة صغيرة عمرها خمس سنوات ونصف ، جميلة وموهوبة ، أحضرتها إليّ أمها المحتارة من سلوكها . فقد كانت الطفلة تدعي أنها صبي ، ومنذ بعض الوقت ، بدأ نضجها المدرسي المبكر متحولاً إلى إنحراف حاد . وكانت البنية تبدو مأخوذة بقلق عميق بين رغبة تعلم القراءة والكتابة ، وبين حالة من التقلب المحرِّك والانفعالي مصحوبة ببلادة فكرية كانت تلفت انتباه المعلمة . والعلاج النفسي المباشر به حينئذٍ جرى بدون عائق إلى نقطة بدت لي حداً لإمكاناتنا المتبادلة ، بدون أن أستطيع فهم لماذا سلَّمت الطفلة بأن تلبس ثياب الحداد في واقعها الذي تعيشه . ومع ذلك كنت مدهوشة من حدة مطالبة الفتاة الصغيرة بأن تعتبر صبياً . وتبعاً لذلك ، مثلاً ، لم تكن ترضى بأن تلبس فستاناً .

وقد جعلتني زيارة شخصية لأمها ، في ذلك العهد تقريباً ، أشك في أن خلافاً قائماً بين والديها ، على دور النساء وأهميتهن . وفي الواقع ، إن حوادث متنوعة خلال المسيرة العلاجية سمحت لي بالفهم أن الأب كان يحتقر وضعي المهني . وقد نسبت هذا الاحتقار فقط إلى الصعوبة التي يجدها هذا الرجل للقبول بما تعانيه فتاته من ضعف . وكان ذلك

في الحقيقة ، عدم قبول من جانبه بوضع المرأة ، التي كانت تقوده الى إظهار احتقار غاوٍ بالنسبة إلى ابنته ، كما استطعت كذلك التحقق منه عندما طلبت رؤيته لتوضيح الأشياء من جهتي . وحينئذٍ فهمت أن مطالبة مريضتي الصغيرة بالقضيبانية الجنسية كان من الممكن أن تفيدها للدفاع ضد اليأس من كونها فتاة غير مقدّرة من قبل والدها ، ما دام الفرق بين الجنسين لم يكن معروفاً من قبلها كشيء يتعذر إصلاحه . ولكن الولوج إلى الإصطلاح الشفهي المحسوس ، بالقُراءة والكتابة ، كان يدخلها رغماً عنها بين أولئك الذين يعرفون لماذا تحتل العلامات مكاناً في التمثيل اللاشعوري للذات . وانتهى ذلك بالنسبة إليها بأن تهب نفسها أوهاماً قضيبية وتمنح بعضها للآخرين . لذلك ظهر إكتئابها في رفض للتعلم . وعلى كل حال ، لن تجعلها هذه المعرفة الجديدة للكتابة / القراءة بعد الآن مهمة بالنسبة لأبيها ، فكانت تشعر جيداً في ذاتها بأنها « أنثى » الى حد لا يسمح بالاعتقاد أن الممكن حقاً اعتبارها صبياً .

ومن جهة أخرى، سريعاً جداً ، بعد بداية علاجها النفسي ، دخلت في النسق المدرسي بكل ذكائها ومرحها . والحدة التحويلية والغنى الاستيهامي للطفلة جعلت ميسوراً تحليل العدائية ضد أمها ، غير المحبوبة من الأب لأنها امرأة . ومع ذلك ، إن القليل الذي استطعت توضيحه مع الأب نفسه ، أو بكل بساطة ، فإن واقع كوني شخصياً قد فهمت ما كانته مشاعر هذا الأب تجاهي أنا ـ المرأة ، قد أتاح لي إيصال الفتاة الصغيرة قبل الأوان بقليل إلى حريتها في تحديد هويتها . وتوجب علي استقبالها بابتسامة عريضة في الجلسة التالية لزيارة

والدها : لقد كانت ترتدي فستاناً وقد قررت أن تدع ضفائرها تطول .

بقدر ما صار التفكير الشفهي ممكناً لها بواسطة علاقة مفيدة ناجحة وبتبادلات قبل شفهية مرضية بينها وبين أمها ، كان الخطاب الكلامي سهلاً للفتاة . وكان الشبق الفمي القديم الذي يربطها بأمها في تلك الحالة منجزاً في إمكانية الخطاب الفمي . وحدثت التبادلات ، بدون إشكالية خاصة في العلاقة الاجتماعية .

إلا أن العبور إلى تجسيم هذا الخطاب بالكتابة يرجع الفتاة إلى صورة لجسدها لا تستطيع تحاشيها في حركة الكتابة : فالإحالة اللاشعورية إلى البديل الفمي ـ المهبلي الذي تصيره اليد المحيطة بالقلم . وإذا وجد الصبي في هذه الحركة ، مثل الفتاة تماماً ، معادلاً إستنمائياً بسيطاً ، فإن الفتاة تجد فيه بالإضافة إلى ذلك إستحضار لذة تستلزم مساهمة شريك قضيبي . والحالة هذه ، وفي عهد الدراسة الأولى ، لا يمكن أن يتعلق الأمر إلا بالأب . فالتوازن بين الاستثمارات المختلفة والعلاقات الوالدية قد تكون حينئذٍ مشوشة . وقد يولد ذنب المعرفة، مما تجعله الكتابة الدال على معرفة تحرمها الأم : أي الاتصال اليدوي مع القضيب الفحولي الأبوي ، وتبادل اللذة مع الأب بهذا الاتصال . إذن لليد ـ المهبل في أغلب الأحيان فرص أن تكون مكفوفة والشبق ـ الذاتي الاستبدالي الذي تستحضره الكتابة مصحوب حتماً باستحضار المعرفة البصرية لأن الكتابة تتضاعف بالقراءة . واستئثارها بحركات العينين يردد صدى الرغبة في رؤية جسدي الوالدين متحدين . وفي الوقت نفسه الذي تتحدد فيه هذه المودة عند الفتاة بنوع من التواطؤ اللاشعوري مع أمها : جسم الكتابة ، إذ يستعيد المعرفة المتوقعة التي

تجدها في ذاتها مما هو الباطن الأمومي . فإن تواحداتها الأمومية تستطيع إذن مساعدة أو منع الاكتسابات المدرسية الأولية .

وحينئذٍ تستطيع الرسائل الشفهية أن تنشحن بمعانٍ متعددة وأن تحتل ، مثل الكلام عند ظهوره ، مكان التبادلات الحواسية المكبوتة . والعمل الجيد لهذه الإواليات يستلزم ، بلا شك ، عند الفتاة ، قدرة أولى على التسامي بالرغبة الأوديبية الخائبة . وسيكون إكتساب الكتابة النتيجة لحداد العلاقة الحقيقية مع الجسم الابوي .

إن أوضاع الأنا العليا ، المانعة ، ليست الأوضاع الوحيدة للمخاطرة بإعاقة العمل الحر للتعبير الشفهي عند الفتاة . إذ تسهم سيرورات مثلنة الأنا ، بشكل عريض ، في تكون إعداد الفكر وتعبيره الكتابي . وفي الحالات التي لا تتطور فيها هذه السيرورات بشكل طبيعي في السنوات الأولى للفتاة ، فإن فرص حرية التعبير الشفهي تقل عند المرأة . إننا نعود لفهمها إلى الأعمال على الجنسانية الأنثوية ، مثل تلك التي ذكرت سابقاً لـ ج . شاسغويه ـ سميرجل ومعاونيها . وإن الأسس التحلفسية لاضطرابات الأنوثة مدروسة فيها بسعة وبدقة . وسنتوقف إذن فيها عند بعض الوقائع التي تبدو لنا مختصة بوصول المرأة الى الخطاب الكتابي .

إن ورقة مالارميه البيضاء تستحضر فراغاً يمكن لأثر الرجل الارتسام فيه . فراغاً للردم ، فضاء أنثوياً ، مدى اللذة بين السطح الأنثوي والأداة الذكورية[1] . وضرورة الكتابة التي يعانيها الشاعر والانفعال

---

(1) بشهادة نص رائع لپول كلودل عن الأسلوب وما يستحضره من حياة الجسد في عظام

الذي يجسد فيه تأثراته الشعرية يستكشفان هذا الفضاء للذة ويمنحانه إمتلاكه .

فرويد ، على النقيض من ذلك ، يتكلم على اللغز الجنسي الأنثوي كما يتكلم على « قارة سوداء » . والوصول الى الجسم الأنثوي ممنوع على العين من قبل الطبيعة . فإشكالية فرويد الأوديبية الخاصة تمنعه من التفكير بفهم نظري للأنوثة . ويصبح الجنس الأنثوي بالنسبة إليه صورة الغموض في التمثيل الخوافي لانتهاك استيهامي : القارة السوداء ، ويميل التحليل النفسي في هذه النقطة إلى الحفاظ على وضعه الإيديولوجي القضيبي .

بين الأبيض النقي والأسود الخطر ، الفرج ـ الشق للمرأة . والشاعر يزينه بأزهار بلاغته . وتصنع منه كتابته موضوع رغبة . والرجل الذي يكتب عادة يجسد وظيفته الرجولية لملء حيز فارغ ، ولتمديد الذات في مساحة مقعرة . إنه يعني إمكانية تامة لتركيبه العضوي .

لكن المرأة التي تكتب ، هي أيضاً ، تملأ حيِّزها الخاص ، الذي يصبح وسيلة تجسيم العلامة . إنها تعيش الرغبة المعاناة في جسمها كسطح مقعر ينتظر الاتصال ، كطية لينة مستعدة لتغليف الجسم الذي يسبب الانتعاظ . وإذا أعادت الكتابة شفهياً إنتاج شيء ما من الجسم الشِقّي ، من الممكن أن تكون الصعوبة الأنثوية في التعبير عن

= ميت Ossements ، باريس ، غاليمارد ، 1965 . مجموعة « لا پلياد La Pléiade » ، ص 975 .

الذات . مثل تشوش الأفكار طبقاً ، لوضعها ، والترابطات التعبيرية المسهبة ، هي في نقل هذه التجربة المعاشة الجنسية الداخلية . ويعاني بعض الرجال كذلك من هذا النوع من الصعوبة في الكتابة ، الذي يذكر بالعجز ، وبلا شك بالنسبة إلى الإرسال المباشر والخطي ، والطبيعي للعضو الجنسي الذكوري . وعندما تضع المرأة بعض علامات أنوثتها المتحققة ، كل شيء يتعلق بالحالات الداخلية التي تنظِّم الحمل الذي تكون الكتابة سليلته .

كانت مريضة تشعر بخوف من قتل إبنتها الصغيرة بسكين . وفضلاً عن ذلك كانت تشعر بخوف من الكتابة . والمصالحة مع الخوفين حدثت عندما تذكرت يوماً أن ، خلال حملها ، والدها كان يرسل لها فروجاً منتوفاً مع رسالة صغيرة . وكانت تمزق هذا الفروج بضربات السكين وترميه في صندوق القمامة باشمئزاز . ولم تكن تستطيع أبداً الكتابة لوالدها لشكره . ولسبب وجيه .

إن وضع الشيء الخارجي الذي كتابته مستثمرة بإفراط من قبل المرأة يطرح العديد من الأسئلة .

ومن بين إنتاجات الجسم ، بعضها مواد ميتة : بول ، غائط ، طمث . فالجسم يطرحها كفضالات ، بعد الاستخدام والتحول الداخليين . وتعود هذه المواد الطبيعية الى المادة الهامدة بعد أن يخرجها الجسم ، ويتم إخراجها بواسطة النصف السفلي من الجسم .

والفعل « عمل »(Faire) في الفرنسية صالح لقول كل شيء . ولكن كل واحد يشعر بالتدرجات التي يدخلها الموضوع في تنوعات دلالة

فعل العمل هذا : وهكذا . عمل بي بي ـ وعمل ولداً ، عندما يعبر عن نفسه رجلٍ أو إمرأة ـ عمل عملاً أدبياً ـ « عمل ورقة » . فالتدرجات توضح انعكاس الموضوع على مغزى الفعل : إن الحركات الجسدية التي تصاحب إفراغ مادة منتجة من قبل الكائن البدني تؤدي الى اشتراك الأنا وتوافقها الضروري مع اللاشعور. وبين الأشياء التي يطرحها الجسم بدون أمل في أن تدوم ، تستطيع الكلمات أخذ مكان . لكن الكلام يكتسب وضعاً مختلفاً على الفور لأنه يتعلق بالرأس والوجه . إنه يعظّم هذا القسم من الجسم من جراء أنه ليس إلا ريحاً . فالقول والعمل يلتقيان خلال تواجهها . كأن فعل الكلام كان يترك أيضاً آثاراً أقل من الإفرازات الجسدية .

إن تحليل المواقف تجاه المادة المتخلصة من الجسم ، غالباً ، مشروع وليس له أية علاقة عامة بموضوعنا ، إذا جعلنا من الكتابة إفرازاً . ومع ذلك ، من التحقيق أن الموضوع المكتوب يشترك بكل التمييزات الإفرازية بدرجة النتاجات البدنية الأخرى نفسها . ولاستبقائه إذن كل الحظ في أن يشابه ذاك الذي يسببه السد البدني ـ النفسي الذي تقوم به العضلات العاصرة . وكل شيء ، مثل بعض الأساليب المهذارة والمفككة ، يشبه التغوطات . ولكن لا يبدو لنا أن الوضع الأنثوي يضيف إليه شيئاً ما خاصاً .

إن وضع المني ، بما هو إفراز للجسم ، هو خاص . فهذا النتاج الذكوري بنوع خاص ليس له معادل عند المرأة ، خاصة فيما يتعلق بعلاقتها باللذة الجنسية . فالانتعاظ الأنثوي لا يتجسد أبداً بنهاية نوعية للجسم . فالإنتاج المنوي ، إذا لم يلتقط من قبل عضو أنثوي

خصب ، يغير وضعه من مادة حية إلى مادة من النفايات . ولا يعود له معنى إلا للرجل والمعنى الوحيد لإفراز جنسي ممتع .

وليس لطمث المرأة في أية حالة الشحنة الشبقية نفسها . بل على العكس في معظم الأحيان يأخذ معنى مؤلماً للخصاء الداخلي وبقية موت لقدرة عديمة الجدوى . وإذا وجدت المرأة فيه لذة ما ، فليس ذلك إلا تبعاً للإنشاءات النفسية لنظام تمثيل خصوبتها الممكنة .

إن أخذت الكتابة ، بالنسبة للرجل ، دور الإنتاج إلى جانب المني . فمن السهل فهم ذلك . فتوضيح نتاج المتعة هو على وجه الاحتمال متعة إضافية . ولكن إذا تعلق الأمر بالنسبة للرجل بالبرهنة بوساطة كتابته على أن له جسماً إنتاجياً لماذا لا يكون الأمر نفسه كذلك بالنسبة للمرأة ؟

مع ذلك ، إن الإنتاج الوحيد الحي بشكل مباشر الذي يأتي به جسم بشري هو إنتاج المرأة ، إنه الطفل نتيجة للأثر المنوي ، بالطبع ، إذن علاقة بالرجل في الرغبة ، وفي أفضل الأحوال ، اللذة . وإذا داومنا على هذا التقريب ، فإن وضع الكتابة الأنثوية يكتسب أهمية مختلفة تماماً بالنسبة لكاتبها . فالحمل بالطفل ، بمدته والتحولات التي يتضمنها عند المرأة ، لا يستطيع المرور خلسة ، لا بالنسبة إليها ، ولا بالنسبة لبيئتها . وليس للإرسال المنوي الذكوري بالتأكيد الدلالة نفسها .

عند الولادة ، « يستعلم » الطفل بالاتصال المهبلي مع أمه ، التي هي نفسها القالب ، ليس فقط بطريقة وراثية ، بل بطريقة آلية . فهذا

الجسم الأنثوي الحي ، قبل أي إنتاج ذاتي متزاوج ، سيمتلك بعد هنيهة إذن حياة مستقلة ما أن ينقطع الحبل السري الذي يربطه بشكل تكافلي . إنتاج ذاتي سيعيش بعد هنيهة خارج جسد الأم . لم يعد هناك إلا الفكر ، ولن يصبح ، في الظروف الطبيعية ، موضوع تملك كامل من قبل الآخرين ، كما على العكس من ذلك يستطيع دائماً أن يكون إفرازات منهم . وفكر المرأة ، بالطريقة نفسها « مطّلع » بوساطة مظهره ، وبوساطة ميزاته الجوهرية . فاليد الأنثوية التي تكتب لا تستطيع جذب إلا قضيب فحولي مستعار . ولا تسمح لها وسيلتها الأنثوية بشكل خاص بالحركة التي تخط : أنها تنتج العمل التام ، المتشكل بالجسم الأصلي في كليته .

وإذا اعتبرنا أن المرأة تستثمر كتابة التأثرات الأولية القريبة بشكل كافٍ من تلك التأثرات التي تخصصها لأولادها ، فمن السهل أن نفهم كم يخاطر نتاج كتابي من جانبها . إنها تشترك فيه بكل باطنها المكوّن ، المنقول بنسق التسامي في إوالية فكرية . وجهازها العضوي الأنثوي كلياً مجند لفعالية الإنتاج هذه .

وفي حين أن الموضوع الكتابي المجسّد كذلك يتعرض للمخاطر التي تعمل الأم مباشرة على إبعادها عن طفلها . فإن جدلية الإرضاءات بين الكاتب ونتاجه مختلفة جداً عن تلك التي تتأسس بين الأم وطفلها .

وإنه ربما في الاكتئاب تقترب المرأة ـ الكاتبة إلى أكبر حد من المرأة ـ الأم . والانفصال عن الوليد الذي حملته في ذاتها وكوّن من لحمها ، هو مسألة تبدو لنا بصراحة أنثوية . حتى لو أن الرجل أسهم فيها إلى مستوى عال جداً بالتواحد مع المرأة . وتشعر الأم غالباً ، منذ ولادة

الطفل ، بما يسميه الأطباء المولِّدون « اكتئاب » . ونسميه حتى محتوماً ، مع أنه لا يكون دائماً واضحاً عند المرأة النفساء . وعندما يبتعد الطفل من جديد عنها للتكلم والمشي ، تستطيع بعض مشاعر القلق بلوغ الأم أيضاً . وطفل التكافل الحنون في الأشهر الأولى ينفصل مرة ثانية . وربما ، من جهة أخرى ، تستعيد بكل بساطة القلق الغامض التي عانته هي نفسها خلال انفصالها عن أمها الحقيقية . ولكن من اللافت للنظر أكثر أن عدداً من النساء يكتئبن عندما ينفصل أولادهن عن الوسط العائلي حوالي المراهقة . وفي أكثر الأحيان حداد مضاعف يثقلهن : حداد نسلهن وحداد خصوبتهن ، في سن اليأس . فالمرأة تنجز إذن بطريقة متكررة هذا الانفصال الحقيقي عن جسم حي ، يجلب لها إرضاءات نفيسة جداً عندما تنجح ولادتها .

إنه جزء منها هذا الذي غادرها ، جزء حب بالنسبة إليها . بعض العناصر المكتئبة تومىء ، في هذه الحالة ، بالنسبة إليها ، إلى إشكالية الخصاء . لكن حياة الطفل المستقلة خارجها (حتى لو أن فشل الانفصال الأولي جعل منها ذهانية) يضفي على هذا الاكتئاب الأنثوي معنى نوعياً . ويبقى الطفل بالنسبة للأم الأثر الدائم لقدرتها التناسلية ، لشكل منها ، متحدر منها . وهو بهذا المعنى كتابة ، ويعينها الواقع النفسي ويعرّفها . ويحفر خارج المرأة ـ الأم (وسابقاً خلال الحمل) وسم الرغبة المحققة ، المعرفة الأنثوية فيما يخص المشهد الفطري : رغبة فتاة متحولة إلى رغبة امرأة . المرأة التي تكتب تستعيد في ذاتها ، بشكل ما ، الاكتئاب المنتقص للواضعة الخالدة .

وسيكون طويلاً وعديم الفائدة السعي لمعرفة ما إذا كانت النساء

الواتي يكتبن يقمن بذلك أيضاً وبحيوية خلال مدة حملهن ، إذا كان لهن أنفسهن أولاد ، وإذا كان ارتباطهن بالأولاد بالصفة نفسها الموجودة عند الآخرين . وما قلناه يسمح بافتراضٍ أن شيئاً ما مماثلاً ، على أي حال ، يحدث عند المرأة عندما تنتج نصاً مكتوباً وعندما تحبل وتحمل طفلاً . فالكتابة الأنثوية تحل بالنسبة للمرأة محل الحَمْل ، أو تواصله . إنها تظهر كنتيجة لتسامي العلاقة بكائن محبوب .

كيف لن تكون النساء حينئذٍ قلقات من إثبات قدرتهن على الكتابة في الوقت الذي يمنحهن الرجال الإمكانية والحق في أن يكن غير منجبات ؟ إن احتجاجهن يرتفع مرة جديدة ضد الوضوح الذي يفرض عليهن من سببية خطية للقضيب الفحولي إلى الخلق . ويبدو لنا أن المطالبة الحالية للنساء بالكتابة كنساء هي النتيجة النرجسية أنثوية مُقامة بشكل سيء على أسسها البدنية ، في العديد من الحالات ، بلا شك ، بوساطة التواجد بالثغرات النرجسية الأمومية : خطأ في معرفة امتيازات الأنوثة .

ولكن يوجد دائماً نساء كن يكتبن .

الفصل السادس

الكائن والعمل

الكائن والإبداعية

انطلاقاً من د . و . وينكوت (D.W. Winncott) : « الإبداعية وأصولها »[1]

مثل أية أم ، كاتب نتاج ما لا يقوم ، في رأيي ، إلا بإظهار قوة خلاقة موجودة سابقاً ، ويمكن تسميتها حياة أو ألوهية . وتصوّرها فرويد كطاقة . وأنا أدعوها الكائن . الكائن الذي سبق وجوده الوجود الذي هو تجلٍ له . الكائن مركّز في العنصر السجلّي القابل للخصوبة . صورة « المثل » الأفلاطونية « الساقطة » في الأجسام تجعل هذا التصور استعارياً .

والفرد البشري ، المتأصل في الكائن ، له كميدان خاص ، ميدان العمل . والعمل يفترض وصول الكائن إلى أشكاله الفعالة ، وصول يناقض صورة ما لجمودية قادرة جداً وموجودة في تصور الكائن ، وقد تعرف عليها فرويد في مبدأ النيرڤانا ، مع بعد من السلبية .

بالنسبة لأفلاطون ، الواحد سابق على الموجود المشخص ، الذي يحدد الكائن المتفردن . وفيلسوف من الأفلاطونية الجديدة ، دوناتيوس

(1) D. W. Winnicott 1971 .

(Donatius) ، أعطانا صورة للوجود السابق على المسرح البدائي : من البيضة ، المكسورة إلى إثنين ، ولدت السماء والأرض . وهذا التمايز أدخل المعقولية . وفكر الوجود ، من جراء أنه يحتوي العدم ، يجعلنا نعي ، بجدلية حياة / موت ، ضرورة الحركة ، الفتات ، الانفصال . وتترجم الحركة بالدينامية النفسية للشخص الملتفت نحو الحياة. ومفهوم العدم إذ يوجد في العيادة ، يميل بكل تأكيد إلى التفكير بالميول المراضية (Pathologiques) ، بسيرورات الانفصال والاكتئاب .

ويبدو لي التصور التحلفسي للغريزة يقيم رابطة بين فكرة الكائن والمظاهر الفعّالة له ، وبشكل خاص تماماً تمايز الداخل والخارج ، وعلاقاتهما في رثاية العيش . ويسمح أولاً بالعمل الجدلي للنشيط والسلبي . وفي البحث عن الصفات النوعية للأنثوي ، كيف يتم تحديد ميزات الغريزة التي تضعها في علاقة مع العناصر النشيطة والسلبية للشخصية ؟

كتب وينيكوت (Winnicott) : « فرضيتي أن العنصر الأنثوي الخالص ، هو ، مرتبط ثانية بالثدي أو بالأم ، بمعنى مختلف جداً : **الرضيع يصبح الثدي(أو الأم) ، الموضوع حينئذٍ هو الذات** . ولا أرى هنا أي حاثٍ غريزي » . وكتب أيضاً : « إن دراسة العنصر الأنثوي غير ملوث « مقطّر » يقودنا الى الكائن » .

وتحملني رثايتي للأنثاوية على الاعتراض على هذا الموقف في النطاق الذي تبدو لي فيه الغريزة مسهمة في الأنثوي وتمثل أصل الكائن . وسأذكّر في هذا الموضوع بفرضية أرسطو عن « المحرك الأول » ، قدرة ثابتة تجذب ، وتطلق كذلك الحركة في العالم . وسأقرِّب من هذا

التصـور القديم المفهـوم الحديث تمـاماً لـ « الـدال الملغـز » ، لجـان لاپـلانش (Jean Laplanche) . فالمسـألة أن نميّـز في طبقات الفكـر العنصر الأصلي للحياة الذي سيميز تواً موضوع الخلق الذي يحدثه . دمج السلبي والإيجابي ، الجسم ـ الطفل الذي ينبت في الرحم . تمييز ظاهرة الإنبات . الهوية هي الوعي بمجموع السمات التي تميز الشخص وتحدد وحدانيته . وفي رئاية التحليل النفسي ، هـذه الهويـة لا يمكن فصلها عن جنس الشخص ، عن التمييز رجل / إمرأة ، مهما كانت تصوراتنا عن الثنائية الجنسانية .

إن المسألة هي مسألة منفذ إلى عدم التمييز داخل / خارج ، ثدي / رضيع ، ومسألة إنبجاس الهوية خارج هذا اللاتمييز . ويسمح تصور الغريزة بتصور هذا المنفذ . وسيكون التحول تحول الإبداعية ، كـما وصفها وينيكوت : « الشعور بأن الحياة تستحق أن تعاش » تعريـف بعيـد عن كل وضـوح ، من جهة تكـوّن التـأثـرات الأوليـة الـذي يفترضها ، من التمثل ، من النقطة الأولية التي تشغلنا . وهو مع ذلك النتيجة لبحث يختص بدقة بالقدرة الخلّاقـة الأنثويـة في كل شخص بشري .

هذه القدرة في الوجود وفي إنتاج الوجود يمكن أن تظهـر كغريـزة أولية ، « بحث حياة » ميل إلى الوجود المتضمن في العنصر الأنثى . نوع من **الغريزة الساكنة** ، التي ستتنوع تواً إلى أنثوي وذكـوري ، ولكنه كان سابقاً في الأنثـاوية كـأساس لـوجود سيتحـدد تواً بشكـل محتمل . « قدرة » بالمعنى الأرسطي ، منتجة للفعل .

« عـلى السفح الأنثـوي ، لا تستلزم الهويـة إلا بنية عقليـة دقيقة

جداً » . هكذا كتب وينيكوت . فعالية لا شعورية للجانب الداخلي للحاوي الموجود مسبقاً والذي يحوّل الموضوع الذي تثيره إلى موضوع قضيبي أو عنصر فكري . وتظهر الكينونة في تشغيل الجهاز النفسي ، في تسيير الطاقة الموجـودة في الجدار الخليـوي السجلي ، في الـوظيفة الأمومية .

وتعبر الكينونـة عن نفسها في تحـول الأنثوي إلى أمـومي ، بتسيير الـطاقة المـوجودة في الجـدار الخليوي السجـلي ، في الغلاف النفسي المحتوي على الفكر . والوظيفة الأمومية لواقية ـ الإثارة ، التي كشف فرويد أنها أساسية ، ستكون حينئذٍ عكس الوظيفة الأنثوية المثيرة . وستكـون مخصصة لحـماية الجهـاز النفسي في تكـون التجـازات التي ستتعدى قدرتها الخاصة الأنثوية على تلقي الإثارة .

ويمكن اعتبار الرحم كجهاز تأثري ـ جذّاب سيكتسب فيه جانب من الليبيدو كذلك هذه السمة من الأنوثة . وسيكون الأنثوي حينئذٍ المصدر غير ـ المتميز في قضيبي ـ ذكوري وأمومي ـ إنجابي . وهو تميز ينضم إلى تصور أسبقية الكينونة بالنسبة لوينيكوت : « شعور الكينونة هذا هو شيء ما سابق على كائن ـ واحد ـ مع لأنه لا يوجد أيضاً شيء آخر غير الهوية » . والتمييز الذي تقيمه الهواجس الأمومية اللاشعورية تكشف الشكل الشِقّي للجسم ـ الطفل ، في الرحم . إنه تصور مسبق للموضوع ولحدوده ، بحكم التواحدات الأولية . ومفـاهيم الأجسام والأشكـال الإنطوائيـة ، التي طـوّرتهـا فـرانسـز تـوستـان (Frances Tustin) ، قابلة للمساعدة على تمثل البنى النفسية التي تشارك في هذه الحركة .

فما أن يوجد الجسم ، بانبثاق الكائن ، حتى يكون حاملاً لعناصر قضيبية . لكن وجوده يستقر في الأنثاوية ، عنصراً أنثوياً لغريزة الحياة ، سابقاً على هذه ومميِّزاً للداخلية الأنثوية . والعلاقة بين هذا الشكل للغريزة وهوية المرأة هي ربما مصدر الإكتئاب من جراء أن شعور الكينونة قد يخفّ عندما تنقص قدرات الإنتاجية أو السعة الأمومية .

إن صعوبة إدراك هذه القاعدة الأنثوية للوجود ، ليست بدون علاقة بالاستيهامات التي تثيرها . وهذه الاستيهامات مرتبطة بالمراحل الأكثر إبكاراً في الحياة ، ترتبط بإشكالية الثنائية الجنسانية . وتوضح عنصراً ذكورياً بتصوير العنف والإبادة اللذين ستنتجهما فعالية داخل ميت : فالموت ليس فقط العدم السابق أو اللاحق للوجود ، الملتبس بإمكانية الوجود . إنه أيضاً فعالية مدمّرة وبالتالي جزء ذكوري من الأم القضيبية الكلية القدرة . التي تستتبع مستويات والعمل متعددة من هذه الصورة المثالية للأهل .

إن سمات الجمودية المرتبطة بتصورات الداخل الأمومي تثير مشاعر الرعب ، الطرح ، السقوط والفراغ ، الإخفاق ، التي توجد في العلاجات بشكل الانتقاص المكتئب ، التشويه للكينونة البدنية والنفسية وتستطيع الذهاب الى حد الكآبة . والمثل الأكثر ابتذالاً يظهر عند المرضى بشكل خوف من إخفاق العلاج . وفكرة جهاز نفسي طيّع ، متشكل بطريقة جبرية بوساطة تحديدات الداخل الأمومي يمكن أيضاً أن تشارك في لا ـ انتهاء التحليل . كأن العلاقة الدافعة في تحويل مشاعر الجمودية ، المؤلمة للمريض ، كانت تستطيع التأثير في الرحم

التحليلي ، أو تدمير أو مهاجمة قدرته على الحياة ، وأن تثير عند المحلِّل استحالة إشراك مريضه في هذه القدرة .

إني أقرّب هذا الخوف من أفكار ج . لاپلانش[1] (J. Laplanche) عن الحفظ الذاتي الذي يسبق الجنسانية ، وهذه تتطور هي نفسها في حمام من « الدوال الملغزة » التي تبذلها البيئة . والثدي هو ركيزتها ، من الداخل كما من الخارج . وبالنسبة لـ ج . لابلانش ، الغريـزة « هي الأثر الحاسم في الفرد وفي أنا التحريض الدائم الممارس ، من الداخل [نحن الذين نشدد عليه] بالتصورات ـ الأشياء المكبوتة ، التي يمكن تعيينها كأشياء ـ مصادر للغريزة » .

ويبدو لي هذا التصور للغريزة ، بالمقابل ، مهمـلاً الفكرة الأكـثر وجودية مما يمكن حدوث ذلك في صفتها الأنثوية ، بدءً من الإثبات الذي قام به ج . لاپلانش لهذا التحريض المباشر للـ[illegible]ن وقـد ميّزه وينيكوت كـ « عنصر محرِّض : قادر على القيـام بشيء ما » . الأمـر الذي ، في رأيي ، يحتوي ، من قبل ، على طابع ذكوري . في حين أنني سأصف بشكل كافٍ هذه الجوهرية الأنثوية لـ الغريزة الأصلية اللامتميزة . غلطة قدرة مسماة بكل ضوح اللامعقول ، فقط بسبب أن هذه الظاهرة سابقة على سيرورات الانفصال والتمايز الـذي يفترضـه الفكر والذي تكشفـه حدود اللغـة نفسها . وستكـون هذه الغـريزة الأصلية موضوع الكبت الأول : وضع سيرورة رفض اعتبار الأنـوثة كمكان لمصدر الإثـارة هذه . والـلامعقول هـو كذلـك لا يوصف .

(1) J. Laplanche 1984 .

فاللحم ليس إلا جزءً من الكائن . والغريـزة تخلط ما بين الأنثوي والذكوري في المعاني الأول من الإثارة .

هذه إذن الغريزة في نطاق الكائن والفكر . ووحدها طريقة « بينغ بانغ »* فعالة أصليـة تبدو قـابلة لإنتاج انبثـاق سيرورات الحيـاة في الفكـر . لقـاء وانفصـال ، الـرشيم والبيضـة ، الكـائن والعمـل . « العنصر الذكوري **يعمل** (does) في حين أن العنصر الأنثوي (عند الرجال كما عند النسـاء) يكون (is) »[1] . فمنـذ اللحظات الأولى للتمايز ، يقوم في الآن نفسه تناقض وتكاملية للأنثوي والذكوري .

إن تمثلنا للغريزة ، منذ فرويد ، هو ذو تفرع ثنائي : حفظ للفرد ، وحفظ للنوع ؛ ليبيدو الموضوع ، ليبيدو الأنا ؛ غريزة الحياة ، غريزة الموت . الجزء الفعّال ، **العامل** ، من الغريـزة ، غريـزة التصرف ، التفكـير ، يؤلّف الحركـات المتضادة ويجعلهـا متكاملة : إنـه معـرفـة قضيبية ، بحث نشيط عن الوحدة . إنه مصدر للذة المرتبطة بالتدبير الموحّد للأنا . ونستطيع تصورها كتأثير مؤلِّف ، منتَج من قبل الجدار الخليوي الداخلي للجهاز النفسي ، تأثير أنوثة هذا الجدار الخليوي ، الذي يحدد الخصب ، الإبداعية الأمومية .

كلام وخصوبة

كتبت تاتيانا (Tatiana) : هذه مهنتي . إنها كذلك أم لثلاثة أولاد . وقد جاءت لتراني خلال مرحلة من كف الكتابة ، كانت تراها ، من

(*) كلمات تدل على حركة عنيفة .

(1) D. W. Winnicott مرجع سابق .

قبل ، بوضوح مرتبطة بصورتها عن أمها . فالنزاع الأوديبي ، المعاود الظهور فيها خلال مراهقة ابنتها ، ولّد التنافر بين صورة أمومية ، مغذية ولكن أنوية علوية بقسوة ، وبين أب متشامخ ، ولكنه ضالع في توظيفات فكرية . وأحلام تاتيانا تؤكد الحضور الحالي لحصورات طفولية في إنتاجها . وهي تظهر بصور تدمير وخسارة المحتويات ، المصورة غالباً بحقيبة ، حقيبة يد أنثوية بشكل خاص[1] ، وأشكالها ، وألوانها ، ونسيجها وسعتها تتنوع ، تتكثف وتتوضح بتتابع الأحلام . وتمكنا من ربط هذه الصور تارة بحركات تحويلية إلى مادّية الهيكل (ألوان ، أشياء تشكله في الفضاء حيث أتلقاه) ، وطوراً بالتصورات التي تسقطها على شخصي .

إن إستيهام إنجاب طفل من رجل محرّم ينزلق شيئاً فشيئاً في القبشعور ، بمكر ، كنقطة فظة لشكها في ذاتها . وبشأن حلم يستحضر بالنسبة إليها ضروب قلقها تجاه المراهقة المتحررة لفتاتها ، صاغت بتردد وحيرة الخطاب التالي : « لم أفكر أبداً ، عندما كنت حبلى ، أني قادرة على إنجاب طفل مسيخ . . . وحقاً لم أشك أبداً بقدرتي الأمومية على الإنجاب . جسمي يعمل جيداً ، وأشعر براحة معه ، ولا أشك فيه . أولادي يعجبونني ، وأراهم بلذة يكبرون . لكن فتاتي أصبحت إمرأة . . . وأرى نفسي أنني أتشاجر مع زوجي بقدر ما تتشاجر هي معه . إنها تثيرنا الواحد ضد الآخر . . . إنه يشك فيها ، بقدراتها الفكرية . ولا أتحمل هذا الانتقاص لفتاته الحقيقية . إذ لم يشك أبداً

---

(1) فرويد مقطع من تحليل للهستيريا : دورا (الحلم الأول) Fragment d'une analyse d'ystérie. Dora (Premier rève 1905a) .

والدي بي بهذه الطريقة ، بالرغم من أنـه لم يدفعني أبداً صراحة إلى العمل ، بدون شك بسبب غيرة أمي . . . .

فالكتاب الذي كتبته في هذه الفترة ، كان من المستحيل علي أن أجمع أجزاءه ، أن أقرأه بكامله ، باستمرار ، لأجعل منه كلاً . فليس له أية وحدة . . . وهذا يزعجني . . . أشعر أنني عاجزة . لدي أفكاري ، حية ، واضحة . إنها لا تتجمع . لم يعد فكري دهن النارنج هذا الذي إستخلص منـه روائح لـطيفة . أرغب في تـرك كل شيء . الكلمات تفرمني . أشعر أحياناً أنني ساذجة » .

لقد إستحضرنا معاً الطفل غير العادي ، المجزأ ، المشكل بشكل سيء ، الذي تخاف في هذه المرحلة رؤيته يخرج منها ، من فكرها . واستعادت معاناة الشك والاكتئاب في مراهقتها عندما فكرت بابنتها ، بالغيرة اللاشعورية لأمها الحقيقيـة . ونشّطت بتحـويلها التـواحدات ومضادات ـ التواحدات لصورة ذاتها التي لم تتوصل بعد إلى فرضها على طفلها الذي من لحمها وعلى الصورة الأمومية التي تسيطر عليهـا في الحالية التحولية . فالرغبة اللاشعورية والفاجعة للقيام بإجهاض شيء شيطاني موجود فيها ينضم إلى إسقاطاتها الاضطهادية الـطفوليـة على المحتوى الأمومي . فالذنب يكفّ القدرة المنتجة .

لقد عمل الإنتاج التناسلي جيداً عند تاتيـانا . وتصرفت تـأثيرات حياتها الآن بحيث ظهر نقل استيهامات الزنى بمحرم المبكرة إلى إنتاجها الشفهي . عبور مؤلم أساساً لتحليل في ذروة تطوره . وفكر امرأة ما يجب أن يتصعـد من جسـمانيتهـا ومن الـروابط الـرهيبـة بـالمحـارم والاضطهادية من الوظيفـة الشفهية إلى الأشيـاء الوالـدية ، وخـاصة

الأمومية ، المستبطنة . وسيتوجب عليها تواً تصور أنوثتها بكلمات جديدة ، بمعانٍ جديدة للكلمات . « تشفي نسيج الكائن »[1] .

إن حالة تاتيانا تثير أسئلة عن نرجسية المرأة وعن التعارض الأولي للموضوع الأمومي .

وفي دراسته عن نرجسية المرأة[2] ، أعلن ب . غرونبرجيه (B. Grunberger) : « والحال أن موضوعاً جنسياً لا يمكن أن يكون إلا من الجنس المقابل » . وهذا الاقتراح يتعلق ، في رأيي ، بسيرورات استيهامية سبق أن جعلت في المرتبة الثانية من العلاقة بالموضوع . وينطوي كذلك على مثلنة للصورة الأبوية بالنسبة للفتاة ، في حين أنني شخصياً أنسب هذه الحركة أولاً إلى تواحد بالصورة الأمومية . تواحد مبكر بواسطته تسقط الفتاة شهواتها الأولى على جسم / ثدي يخترقها فمياً وتدمجه كموضوع حب مجيب على حاجاتها الأكثر أولية . وهذا ما يقول فعلاً ، في موضوع آخر ب . غرونبرجيه : « إن المرأة فمية نرجسياً وتستهلك الفموية أيضاً قسماً كبيراً من الليبيدو »[3] .

ويستطيع الأب حينئذٍ أن يكون مُمَثْلَناً كموضوع للرغبة والإرضاء الأموميين . موضوع بعيد لكنه مناسب للفتاة بواسطة تحول تواحداتها التعاظمية . والقدرة الكلية للرضيع الفتاة ستسمح لها سريعاً جداً باستخدام هذا الليبيدو الفمي لإشباع الميول النرجسية .

---

(1) سامي علي (Sami -Ali) 1984 p 5 .

(2) B. Grumberger 1964.

(3) المرجع السابق .

ويظهر أول نقل للفموية في اللذة اللاشعورية التي يشعر بها الطفل إلى سماع صوت الأب ثم كلامه . والفتاة الصغيرة قابلة لاستثمار من جهة ، بشكل مختلف عن الصبي ، من جراء تشكلها العضوي ، الظواهر المرتبطة بالاختراق الحواسي . وتنشأ إتصالات لا شعورية مبكرة فم / إذن / شرج / مهبلٍ حتماً في البناء النفسي الأنثوي . وتجد حينئذٍ حرمانات الفطام تعويضاً لنسق التسامي في إستثمار القدرات الشفهية المرتبطة بالاختراق السمعي بصوت الأب[1] . اختراق من منفذ غير مغلق ، صورة منقولة للمنفذ الأنثوي الذي « [. . .] يحوّل البصري نحو السمعي ، الركيزة الهلسية للشفهي »[2] .

إن المودة اللاشعورية لتواصل الشفهي يمكن إذن أن تتدخل في بناء المحرَّم الأوديبي : مثلاً ، بالإمكانية المقدمة كذلك لتقريب غير مجسد يحترم البعد الجسدي ، في حين أن اتصال اللمس أو النظر يقيم علاقة ظاهرة مباشرة بين الأجسام . فليس الكلام شهوانياً . ومع ذلك ، إذا لم يكن هذا في إرساله الصوتي الذي يستحضر تطوراً قضيبياً ، إسقاطاً نحو خارج ملحقٍ متعذر إمساكه ، من نسق تصور للقضيب الخيالي الذي تدعيه الفتاة . فاللذة التي تعانيها البنية عند الكلمات الحنونة التي يقولها لها وادها (الخطاب العاشق من الرجل للمرأة) ، والخوف من

---

(1) يمكن الافتراض أن إستيهامات الاختراق هذه ، التي تنضم إلى رغبات الإنثاوية لصبي الصغير ، هي أحد مصادر التأتأة . ويمكن لهذه الظاهرة المرضية هنا أن تكون مفهومة كشكل من أشكال الدفاع ضد رغبة الإيلاج اللواطي . فالكلام إيلاج تبادله ظاهر . وبلا شك ، لكي تظهر هذه العلامة المرضية ، فإن مسائل إنشاء نرجسي ذكوري أخرى تقوم بدورها أيضاً .

(2) سامي علي . مرجع سابق .

أن تشعر البنية نفسها بالتوبيخات المحتومة ، يسيران في اتجاه استثمار مبكر للكلام ، ظاهر غالباً عند الرضع الفتيات . ويشهد هذا الاستثمار حينئذٍ على تكامل طبيعي للمركّبات النرجسية ما قبل التناسلية وعلى علاقة متناغمة مع مواضيع الحب .

إن الإدعاء القضيبي الذي يمكن أن يحدد أو يشدد على مثل هذا الاستثمار للإرسال الفمي هو أيضاً وبكل تأكيد تعويضي لغياب عضو جنسي مرئي قادر أن يكون مبرزاً . وفي هذه الحالة يمكن فهم أن هذا الإدعاء يقوي التصورات المرتبطة بالتواصل السمعي التي تسمح هكذا بالحفاظ على الرباط بالأم . وفي الواقع ، إن تحريم اللمس محترم من جهة الأب ، والعلاقة بالنظر تحوّل الفضول البصري بخصوص الأعضاء التناسلية نحو القدرة الفمية على « الكلام فيه » . وأخيراً تجذب البنية الانتباه الأمومي بالعرض الفمي الذي تقوم به لقدرتها الشفهية .

لا شك في أن الملاحظة التي يبديها غالباً الوالدان والمعلمون عن السرعة الفكرية الكبرى للفتيات الصغيرات بالنسبة إلى الصبيان اليافعين ، هي نتيجة لقضيبانية الفكر الشفهي واللذة المرتبطة بتعابيرها الشفهية والمكتوبة التي هي إثبات منها . تحريك الكلمات ، هو اللعب مع عضو جنسي رمزي ، واستخدامه كوسيلة للإشباع النرجسي .

عند المراهقة ، تجد الفتاة نفسها مواجهة بإعادة الاستثمار الأوديبي لفكرها الشفهي وبتكاملات جديدة لأقسام من الأنا الأنثوي الذي يستلزمه هذا الشكل من تعبير الذات حيث تختلط مصادر ليبيدية متعددة . ونرى حينئذٍ ظهور ضروب من الكف ، وقتية ودائمة ، من

السهولة الشفهية عند الشبان المراهقين ، أو أيضاً الانفجار الهذياني لهستيريا تقريباً عابرة ، كما نرى كذلك الفموية توقف إستثمارها بخطورة أكبر في حالة فقدان الشهية . والموضوع الجنسي الذي يجب على الفتاة العدول عنه في كينونتها لاكتسابه بالمتعة الجنسية يجر إلى الفساد بواسطة التصورات الفمية المفترسة للكلام ولإسقاطاته .

إن قضيبانية الفتاة تحملها ربما على أن تعاني في هذه المرحلة من حياتها صعوبة نوع من تغيير الموضوع : إمكانية التعبير شفهياً عن إدعائها القضيبي وتتحول نرجسيتها الأنثوية إلى قلق الإنتاج الرحمي . ويتضاعف حسد القضيب من قدرة على الإنجاب لم تعد خيالية ، بل أصبحت واقعاً . وحينئذٍ تحوّل الفتاة الرغبة في القضيب ، المختلطة بالرغبة المبكرة في الولد ، إلى رغبة بإنتاج حقيقي لجسمها ، بشكل طفل . هذا الموضوع الجديد للرغبة يمكن أن يكون مثيلاً لمعادل القضيب أو لإنتاج الأنا . إن وضع الإنتاج الشفهي ينافس الإنتاج التناسلي . ومواجهة النزاعات النفسية الجديدة تعرض للخطر هذه القدرة الجديدة للإنتاج ، وإذن كذلك القدرة على التفكير ، وعلى كتابة الأفكار ، وأثار علاقة فمية مستثمرة إلى حد كبير[1] .

موسيقى

عقدة أنوثة . تتدفق ، تتفتح ، ذابلة ، مرققة ، مثل الانطلاقات القلقة لسمفونية ماهلر (Mahler) أو التهليلات الحزينة لسيبليوس

---

(1) م . كلاين ، الأولى ، التي أعطت العناصر الأساسية للحصر الأوديبي عند الفتاة : « عقدة أوديب الموضحة بوساطة الحصورات المبكرة (التطور الأوديبي للفتاة) ، 1945 .

(Sibélius) . لاعبة أو مغتصبة من قبل رافل* (Ravel) . متأملة بعد انتشار اللذة لـ Mélisandes, juliettes مع دوبوسي** (Debussy) . قبل اللغة وبعد الفعل ، دائماً ملتصقة بالجسد والفكر ، الموسيقى تنتزع الرمز من المادة . ومع ذلك .

إن لمس الآلة الضرورية من أحب الأمور . إنه يهتز ، ذيل خدعة يشعر ويعبر بحذق عن التأثرات التي معناها نفسه يصبح لا وزن له . مرح الفم ، اليدين ، الجسد النعوظ والروح ، مخترق بالصوت في الأنا والآخرين . جنس مجرد بعلامات متفق عليها . غلاف الجلد المعبـور بدون أن يلمس لا سطح ، فضاء نقي . الاهتزاز الذي يحمله الهواء يرسل المتعة ، المجسد . لذة الاختراق تنساب بشكل طبيعي جداً في المكان الشاغر الداخـلي للكائن ، في هـذا التجويف الأنثـوي الذي نتصرف به كلنا الأغوار الأولية للجنسـانية . النغم ينتشر فيـه . من الرأس إلى الجسد ، مثل اهتزاز الحب .

« ونقدر بصعوبة كيف حوّل البصري نحو السمعي ، ركيزة هلسية للشفهي » (سامي ـ علي يتكلم على شربر (Schreber)) . علامات اصطلاحية للغة الموسيقية ، وليست « النوتات »*** فيما بينها إلا صور للصوت ، علامات للتواصل ، وليس لها من معنى إلا في الآلة التي هي مخصصة لها . نقاط صغيرة مرئية بعيون الأذن ، علاقات مجرَّدة ، معنى

(*) رافل ، موريس مؤلف موسيقي ـ فرنسي (1875 ـ 1937) لـه مؤلفات عـدة منها Concertos و Boléro .

(**) دوبوسي ، كلود مؤلف موسيقي فـرنسي (1862 ـ 1918) له مؤلفـات عدة منهـا Mésilande و Pelléas

(***) النوتات الموسيقية (المترجم) .

معطى خفية للإصغاء إلى ارتعاشات الأنا الراغبة . إتصال غير حسي مع صدى الآخر في الذات . إرتباك مستعاد لداخلٍ مدموج باستمرار في الغلاف المهتز للحب . سمفونية غير مكتملة أبداً .

صورة « للفضاء اللامعقول » ، الباطن الأنثوي هو اهتزاز . دوي داخلي ، مكان الرنين الشهواني . إنتهاء الاهتزاز . فكر فرويد يقع في الفخ في القارة المهسترة . مكان خيبة أمل الرجل ، المرتبك بعد الانتعاظ . مكان هلاك مادته . الأكثر ثمناً متوارٍ في الخفي من الرغبة . بطن أنثوي يكتمل فيه الإيقاع ويولد ثانية الانفصال الذي لا يطاق الوداع المتجدد أبداً . نقطة أرغن الفكر .

القسم الثالث

المرأة المحللة

الفصل السابع

المحلل النفسي في مقعده

ربما من الضروري أن يستمر الشكل المعطى لنظرية الجنسانية بالمفهوم الفرويدي . وضد كل التناقضات ، المعارضات ، التأملات والأسئلة ، يبقى فرويد سيد التوزيع ، الظالم للمرأة ، سيد الثنائية الجنسانية . ظالم في نتائجه الاجتماعية والنفسية . ولكن ربما الربح « الثانوي » هو تأبيد جاذبية القارة السوداء . وربما من الضروري للأنوثة أن لغزه محمي ، مثل البيضة في العش ، تحت قوقعته الخفيفة والملونة ، يحتفظ بألغاز ريش الطائر وشدو العصفور .

***

باستنادي كامرأة على فكر الرجال ، أريد اختبار اقتراب من الصفة الأنثوية في المحلِّلة ، نوع من الرسم المنجز . وفي هذا البحث لا أستبعد بحق من الرجل الوضع الأنثوي . هل سيكون تهديداً بالنسبة لمحلِّل - رجل أن ننسب إليه أو « نتيح » له الوصول إلى بعض الوضعيات النوعية للأنثوي ؟ وليس أن تكون لا إمرأة ولا أماً أن تكون أنثوياً أو أمومياً . فكل فرق ينبغي أن يكون مفهوماً كغيرية ، لكن الغيرية ليست غرابة . والتماثل لا يلغي الغيرية ، حتى في التوأمية .

إن كنت أعرِّف الأنثوي بأسبقية القابل للتأثر ، « الطبق العاري » ،

كما كان جوڤيه (Jouvet) يعرّف المسرح حيث كل شيء كـان ينطلق ليحيا ، حاوٍ محتوٍ من ذي قبل في ذاته ، نستطيع أن نكشف في هذا الغموض الكنائي مركبيّ الثنائية الجنسانيـة وطرق الانشـطار الثنائي الغيري الممكنة وفق سيرورة الانفلاق : أنثوي / ذكوري ، حاوي / محتوى ، جزئي / كلي ، موضوع / ذات ، إلخ . وتؤدي السـيرورة التحليلية دور الحَمْل في ذهن المحلِّل عبر ظاهـرة الانتظار . مـرتبطة بالزمن ، بكل تأكيد ، وبانبساط حبل المعرفة ، وبـالمفاجـأة إلى حد الانتظار . وليس المريض أبداً تمامـاً ذاك الذي التقـاه المحلِّل بعض المرات قبل الشروع بالعمل المشترك . إنه ينكشـف شيئاً فشيئاً ، مثل الطفل المحمول ثم المولود ، آخر ، جديد ، غير منتظر . متحدر من الجانب الخصب للمحلِّل ، « للعلاقة بالمجهول » الذي يتكلم عليـه ج . روزولاتو (G. Rosolato) . « العلاقة بالمجهول هي إمكانية أن ترى في نسق ، نفسي ، كما هو داخلي ، أن في كل علاقة (مع العالم ، الموضوع) ، صدعاً ، فجوة ، أو فتحة ، تطوراً غير متوقع ، طارئاً ، لا ينفد »(1) . وهذه الفتحة ، التي تبدو لي كالعبور إلى الباطن الأنثوي الرقيق ، تمثل عبور اللذة في « الروح » بواسطة الهي . علاقة سابقة الوجود على العلاج : حب الرجل يزرع المرأة **أولاً بفكرة الطفل** قبل أن يزرع في لحمها .

أحد المظاهر البارزة للعمـل التحليلي هـو كشف التحويـل . وفي رأيي ، إن السمات التي يدرك بعضها المحلِّل هي في علاقة مباشرة مع الخيار ، ما قبل الشعوري أو اللاشعوري الذي قام بـه للانفعـالات

(1) Gy Rosolato 1978 ، ص 227 .

الجزئية من بين الكلية ضد ـ التحويلية للآونة . وهذا العمل يفترض إذن سيرورة انفلاق ترغمه على العدول عن تعاظمه وعن الاستخدام النرجسي . . . (يقال أحياناً تأويلية) ، للتأثرات التي تمثل في وعيه . إن كشف تحويل أمومي أو أنثوي ، يفترض ، في قسم التواحد الأنثوي الذي يلغيه ، العدول إلى ردات فعل أخرى لأناه حاضرة في ضد ـ تحويله ، ويستطيع المحلّل حينئذٍ أن يواجه معاناة الحتمية التشريحية والمظاهر النفسية التي تحددها هذه . وأن أشعر بنفسي امرأة يفترض القبول بالمظاهر الأقل تفضيلاً للثنائية الجنسانية . ولا ننسى أن المرحلة الأنثوية الأولية بالنسبة إلى م . كلاين تؤدي إلى المرحلة المكئبة ، الأمر الذي ، في رئايتي ، يتسم بالتخلي ، الانفصال ، إعداد الجنيني ، وحدة الكائن .

* * *

عانى ڤالنتين (Valentin) من هوية محـدّدة بشكل سيء . ولم يكن لوطيا لكنه يحب « التخفي » كما كان يفعل عندما كان طفلاً ، في ملابس المرأة . وكان يقلق من ذلك . وكانت غرامياته تعيسة . وهجرته حبيباته لإنجاب أطفال مع رجل آخر . وهو ، بدا يتابع حسد الطفل هذا ، وكان غيوراً منه . ووصف نفسه كهيئة غير محدّدة ، كائن ليس غلافه حتى جلده ، بل بالأحرى نسيجاً خارجياً لا يحدّده حقاً ، مهما كان الثوب الذي تقتطعه . عند العودة من عطلة نهاية الأسبوع ، أعلن : « عندما لا أكون معك ، أفكر بك كما أفكر بغياب » . فاعتقدت أن ڤالنتين نجا ! فهذا الغياب الذي يشعر به هو الآن أناه ، متواحدة مع المرأة كداخلي فارغ حيث يمكن نبات الولد الذكر الذي عرفه منه قديماً ، قبل الغياب الأبوي . إنه يستبطن الحضور الأنثوي

كإمكانية حمل . جلده يتشكل حول الغياب ، لأن الغياب أيضاً يستلزم حاوياً .

سأستخدم غالباً هنا فكر بيون ، الكاتب الفرويدي والكليني (Kleinien) في الآن نفسه . لتأمله في التحليل النفسي ، بالنسبة إليّ ، الأهلية لكي لا يفصل أبداً الانفعالي عن التأمل . فكل تجربة هي جسدية قبل أن تكون نفسية . والمؤثر هو العلاقة التي تنبعث من المعاني تجاه الفكر . ووفق بعض تعابير بيون[1] ، نجده يعتبر أن شكلاً ما هو عنصر تحول ، مفهوم سيستخدمه تواً في علاقة المحلِّل بمريضه . شكل يمكن أن يكون أيضاً شعوراً بالذات ، سيسمى قريباً هوية[2] . فالهوية تجربة . وانطلاقاً من معاني المعطيات الحواسية والكلمات التي تعبر عنها ، فإن التجربة التواحدية ينبغي كذلك أن تكون موضوعة في كلمات . إنها جزء مهم من عمل المحلِّل .

إن « الشكل » الذي يخصب تجربتي الانفعالية الخاصة يساعدني على ربطها بالمؤثرات التي بعضها كانت لي مشتركة مع مريضي . وهذه المؤثرات أجزاء من بناء متحدر من العلاقة تحول/ضد- تحول وحوافزها قدرة الترميز التي نشاركها . والشكل المبني هكذا في المريض وفيّ يتحول وفق مصادفات السيرورة التحليلية والكلمات التي تتدفق لتنظمها : جنيناً شفهياً . وإن « كان للكلام وظيفة إعطاء الغير تواصلاً تارة صحيحاً ، وتارة مشوهاً لهذه التجربة »[3] ، فإن من المحتمل أن

(1) Bion ، 1965 .
(2) من المناسب التمييز ، مثل ستوللر (Stoller) ، بي هوية شِقّية وهوية جنسية .
(3) أنظر Bion ، 1974 ، ص 23 .

أشارك في تجربة الذات هذه بعملي الداخلي الخاص والشكل المهيمن فيه . وتجربتي الحالية نامية من تجربة مريضاتي . وانتباهي يجد نفسه محمولاً بحدة أكبر نحو الأشكال التي تنبعث من الداخل الحي ، كظواهر مرتبطة بالتصورات الأنثوية وبتحولاتها . ومن الضروري أن يتحضر في ذاتي هذا النوع من الإنزعاج الذي سيكون اعتراض الأنثوي أو الأنوثة باسم القضيبي في التحليل النفسي . إنزعاج فكري تماماً يستطيع والحق يقال السماح لي بالوصول ، بتجريبي فيما وراء مبدأ اللذة حيث تولد الحياة ، من ناحية الموت . لكن . إعتراض من الحدث الذي ، منذ فرويد ، ينطبع في الكثير من الحالات حيث جوهري الذاتي يطرح للمناقشة . مع هذا الشك بينما كان يعبّر عن نفسه آنفاً ، بينما لا يوجد ربما محلِّلاً إلا في الأنثوي[1] .

إن تجربة الاكتئاب في التحليل ، في النطاق الذي ترتبط به بخسارة كل علاقة بالموضوع الداخلي وباختبار حاوٍ غير مؤكد بشكل كاف بالنسبة للاضطرابات المبكرة، هي ربما وبشكل خاص جداً أنثوية . وفي الواقع ، من المحق اعتبار أن الخسارة الشرجية أو الحرمان من الحلمة في الفطام هي تجارب مختلفة جداً عن إنجاب طفل حي ، بالرغم من إرتباطها به بنقولات توظيف المناطق المثيرة جنسياً والمعنى الذي تأخذه هذه النقولات . ويبقى الإبعاد المهبلي مع ذلك تجربة نوعية للمرأة ، التي تدخل تصوراتها الهوية في أنماط اندماجية وإسقاطية خاصة جداً للإفراغ والخسارة ، تستطيع تفسير ميلها الأكثر سهولة إلى الاكتئاب . إن تغيير الروابط ، الآلام المكثبة للانفصال والاكتشاف

(1) Bion . المرجع السابق . ص 2 .

المؤلم للغيرية تظهر عند المرأة مع تصور الطفل : الذي هو نفسه قد صار آخر مختلفاً ، وليكن منظماً جداً ، وحتى لو لم يكن أبداً محققاً . إن مدة الحمل ، والتحضير لانفصال الولادة تقدما تدرجاً للمؤثرات المؤلمة التي تجعلها ممكنة التصور . وكذلك في التحليل .

تبقى لذة السيطرة على الخشية من الألم ، لذة القدرة على الإفلات عندما يتغير الرباط ولكنه يستمر وعندما يصبح العدول عن بعض عناصر .التفكير مصدر إعداد. وتعرف المرأة طفلها . إنه يعيش فيها ، وبعدها . إنها مشحونة به . لقد توجب على بينوكيو استعادة مكوِّنه في بطن الحوت ليصبح كائنا حياً .

إن مشقة الأب هي التعرف على ولده . فمفهوم البنوة أكثر ضرورية من الجانب الذكوري . تعرّف : كأن شكاً يستطيع الاستمرار دائماً . وتحدث التسمية في البطن الأمُومي في ما أودع فيه الإيمان . الاعتقاد بالحياة الخالدة للإنسان في هذا الكهف الخصب ، ولكن دائماً الفضاء الذي يتشكل فيه ببطء المصير الذي ستهبه الأم لهذا الطفل ، وفق الإيمان الذي يربطها بالأب وبالرجل .

* * *

في أقاصي مراضة النساء ، يمكن إيجاد نمطين من المعاناة : أولئك اللواتي ليس لهن إتصال بعتمتهن العميقة وأولئك الذي عندهن تنفجر النقطة المعتمة ، على العكس ، كحفرة مكتسحة . عند الأوليات نجد الصعوبات التي تستحضرها اللانفاذية ، البرودة ، رفض الطفل واليأس للشعور بعدم القدرة على الحب وعند الأخريات ، على العكس : السعي الشهواني الذي يطغى على السعي الغرامي ، الحبل

الذي ينسي اللذة ، أو أيضاً الأدلة الكبيرة على الشهية الغرامية التي تجتاح العلاقات الاجتماعية ، ويأس عدم كونهن عزيزات أبداً . الشكل الأول والآخر من عدم التلاؤم الأنثوي لهما بدون شك مصدرهم في الظاهرة الهستيرية . الأول من جانب الكبت المفرط للغريزة الليبيدية ، للأنا العليا القسرية والميول إلى « الاهتداء » البدني . والثاني ، على العكس ، يترك المظاهر الغريزية ترشح من شقوق ربما أكثر إبكاراً وتحمل غالباً على التفكير بهذا النوع من الجنون الهستيري ، وعن سببه تساءل برنمان (Bernman) بتفهم كبير(1) .

وفي الحالة الأكثر إبتذالاً ، تنقل المرأة شعورها بذاتها بتصرفها كدمية عملاقة يندمج فيها كل شيء. إنها تلك التي وجودها ضروري لاستلام كل شيء واحتواء كل شيء ، والمكان الذي يلتجيء إليه الآخرون ، ويبحثون عن سعادتهم أو العلاج لالامهم ، كما في رحم مجدِّد كلياً . إنهن « القديسات الأمهات » .

أميل إذن إلى تفسير ، جزئياً على الأقل ، هذه الترتيبات الخاصة للأنثوي بلا ملاءمة النشاط النفسي مع الهوية الشِقّية ومع التصورات التي تشكلت منها .

لقد كان فرنزي (Ferenczi) بالنسبة لفرويد المكتشف الكبير للغنى الفائض للأنوثة التي تضم الوسواسية ، والتي تعبر عن نفسها غالباً بالجنسانية المثلية . والمحلِّل ، مهما كان ، مواجه إذن بالتعرجات التي تضله في مخلفات المرحلة الأنثوية الأولية . ولن أقول في ذلك أن

---

(1) (E. Brenman) ، 1985 ، ص 423 ـ 432 .

الأنثوي هو الذي يعمل في التحليل . فالأنثوي متفوق بتكامليته .

ولكن يبدو لي أنه موجِّه التحويل ، معرفة الغير ، الاختيار الذي يخلق القرابة بين المريض والمحلّل ، وإمكانية علاقة علاجية إيجابية .

ومع ذلك يمكن التساؤل عن المزايا المختلفة للتأويل في النطاق الذي يستوجب فيه هذا التأويل حتماً صدى دفاعات المحلّل . أي جانب يمكن أن يأخذ الدفاع المهووس في التعبير التأويلي إذا كان شيء ما من الأنوثة يظهر فيه بشكل سيلان لا يوقف أو ، من الجانب الذكوري ، من ضرورة التدفق ؟ بما ينبغي حينئذٍ أن ننسب إلى القضيبي ، وإذن إلى العنصر الذكوري ، الجزء التحليلي ، بدقة كبيرة ، من العلاج الذي يطلق قدرة الإعداد والعمل الشفهي من الفكر ، تركيب الدعامة البنوية التي تستند عليها إنتاجية الأنثوي . إن الوظيفة التحليلية ، بالنسبة للمرأة ، أو للجزء الأنثوي من كل محلّلة ، وسيلة لمتابعة إثمار التجويف المعتم حيث تبدأ الحياة ، وسيلة ، وسيلة لإيجاد الحويصلة المفرخة التي ينشط جوهرها .

وحدة المحلِّلة النفسية

هذه المحلّلة النفسية موضوع السؤال ليس إلا سؤالي الشخصي لنفسي ، محلِّلة نفسية وامرأة . سؤال يثيره الآخر لأناي . كذلك في القسم الأكثر عمقاً المتعرف عليه من أناي العليا .

مغوية من قبل التحليل اللغوي ، أنا كذلك: أضع نفسي موضع السؤال . من سأكون حينئذٍ ؟ أنا والسؤال . سؤال عن أنا ، سؤال عن أنا / المحلِّلة النفسية . سؤالي الخاص لنفسي .

إن الأصالة محرك عمل مماثل . الإيروس الذي يعمل في ذاتي ، يجثني على هذه النهاية ، يجرني إلى استعادة نفسي فيها أكثر حياة . أليس هنا بالتحديد رهان تورطي في التحليل ؟ المحلّل لا يتلاشى هو نفسه في لعبة اللغة مع المريض ، ليستعيد نفسه معه ، أكثر ثقلاً وبكل تأكيد حياة .

لا شيء سيكون مقولاً حقاً إذا لم يقل عبر جسم المحلّل نفسه . غير قابلين للانفصال جسمي جسم المرأة وخطابي كمحلّله ، ومركبان وفق الصورة نفسها . إن التحليل اللغوي لسؤالي يسعى إلى أن يفسخ ، بتصنع ، كائني البدني من عملي العقلي . والمحلّل ، جالساً قرب مريض ، صامتاً في مقعده ، هو حي في كليته .

فيما وراء الصمت يولد حينئذٍ الفعل . سكوت على شخص المحلّل ، على التصور التجريدي لوظيفة ، في ذاتها غير إنسانية وضد طبيعية . وظيفة مكتسبة ، على قاعدة المزايا الملازمة لشخص المحلّل ، ووظيفة فيها يتلاشى هذا الشخص نفسه الأساسي والجوهري ظاهرياً . هنا يستقر إذن سؤال الذات هذا للمحلّل فيما وراء جنسه .

ويبدو لي حينئذٍ مستحيلاً إعداد هذا السؤال بخلاف الشخص الأول ، مع العلم جيداً أن « المحلّل النفسي ـ أو المحلّلة النفسية » مسمى (أو مسماة) هكذا وغير مجنسن (أو غير مجنسنة) سيكون كذلك فعلاً أنا ، مدركة أحياناً كوسيلة للدفاع النرجسي ، أو تصور أثوي علوي ، وربما أيضاً لتعاظم . ومع ذلك تنفتح رئايتان على إعداد العمل العقلي للشخص المحلّل في مقعده ، محتدرتان من إمكانية فسخ الذات التحليلية كذلك : الحالة العاطفية للمحلّل في « وضع

المقعد » ، وتصور عمل الجهاز النفسي لهذا المحلِّل نفسه ، على بعد من شخصه نفسه .

هذا المريضة ، التي تحويلها ليس بأقل صلابة من المقاومة ، كانت تستطيع أن تقول لنفسها ذات يوم ، وتقول لي : « كنت آتية لرؤية محلِّل ، فالتقيت إنساناً » . ويحدث العبور إذن هناك في التجربة المعاشة للمريضة المعالجة ، عودة جدلية لتجربتي المعاشة الشخصية : إن الصدى الذي يستيقظ في ذاتي هو ، في الآن نفسه ، من جانب المحلِّلة ـ الإنسانية ، المتعرفة هكذا على قول المريضة المعالَجة ، والإنسانة ـ المحلِّلة ، المتعرِّفة على التزام ترك الشخص المتعرف عليه هكذا في خدمة عمله التحليلي .

إن السيرورة العقلية التي تؤسسها في ذاتي جدلية الإنسانة ـ المحلِّلة مؤسسة بالخطاب . إن المحلِّل قد تعلّم من أساتذته ومن تجارب إمكانياته الخاصة للتغير ، وتعلّم كذلك وحدة أناه . إنه يعرف الخطاب ، الذي يؤسس الوضع ، المضموم بلا شعور ذاته نفسها ولا شعور مريضه . ووجوده الخاص ، في إنسانيته الحية ، مستعلٍ بالكلام .

إن الطبيعة البشرية تجعل المريضِ المعالَج والمحلِّل متماثلين في نطاق واسع . ويقوم الوضع التحليلي تبعاً للفروق الجوهرية لدى كل واحد من الشخصين . وبنسبة الهويات والفروق المجتمعة في هذا الوضع الخاص ، يبدو المحلِّل موجوداً بما هو كاستعارة لمريضه .

وفي الواقع ، لا شيء يستطيع الحدوث هنا والآن بين هذين الكائنين البشريين بدون طبيعتهما المشتركة ، إستيهامات ، أحلام ولغة

متشابهة . ولكن كذلك لا شيء بدون اختلاف الأريكة عن المقعد ، المحلِّل عما يمكن تحليله ، المحققة هويته عن القابل لتعيين هويته .

والمحلِّل لا يستطيع أن يدعي مثل هذا قبل اكتسابه نوعاً من الأمانة مع ذاته الموحدة في أناه ، كائنه الحي ، المتغير والثابت ، المتحرك في علاقاته بلا شعور ذاته والآخري . إنه يستطيع كذلك استخدام هويته الخاصة للتعرف على الآخر ، المريض ، وحتى مثل ذاته ، تاركاً له كل حرية بأن يكون نفسه ومختلفاً في الآن نفسه .

إن الشكل الاستعاري للخطاب في التحليل يغير موضع هذه الاستعارة للشخصين وللعمل الاقتصادي ـ الديناميكي للعلاقة القائمة هكذا . ينجم من ذلك بالتأكيد في الممارسة ما هو شائع أن يسمى تحليل التحويل .

إن لعبة التواحدات ، العائدة للأنا العليا كما للأنا ، بين المريض المعالَج والمحلِّل ، تقدم لهذا الأخير إمكانية التعرف على بعض الحركات الشعورية لسيرورة لا شعورية آثارها الرمزية معروفة منه ذي قبل . ويقوم التحليل بين الذات والآخر ، المماثل والمختلف ، جدلية دائمة مقرِّبة ومفرِّقة معطيات الحياة ، مركّبة في أحسن الأحوال في تفسير « تحولي » مدرَك في اللحظة المناسبة في قول المحلِّل .

إلى هذا الدور بالسكوت هكذا على الذات ، يتقاسم المحلِّل المحنة مع مريضه . مريض يتوجب عليه أن يكونه كذلك ، ركيزة الصور الكريهة لمحلل ، وكذلك بدون ضرورة سبر حياته ووقته ، إذ لم يكن هذا في مرعاة حدوده الخاصة . وقد كتب وينيكوت في العام 1963 مقالة « في التواصل وعدم التواصل » ، وفيها طالب « بحقه في عدم

التواصل . وكان ذلك اعتراضاً صادراً من أعماق ذاته ضد الاستيهام المقلق لكونه مستغَلاً إلى ما لا نهاية » . وتنتمي هذه التجربة إلى تجربة المحلِّل خلال الجلسة ، برهة ومكان ينبغي أن يجدد فيهما بلا انقطاع قدرته على التألم مع المريض المعالَج ، مستغرقاً في معاناته الخاصة ، مهما كانت . ويتوجب عليه في الآن نفسه مستعداً وجاهزاً . وأي محلِّل لا يعرف الصعوبة الكبرى لوضعه في خلال الجلسة ، في حين أن حقيقة ما خارجية تبلبله بقلق حتمي : مرض قريب ، هموم علائقية متنوعة ، أوضاع خارقة وطارئة في الحياة اليومية ، وكذلك عندما يبقيه جسده في وضع ارتدادي بمعاناة ما بدنية بشكل خالص : إن الحاجة النرجسية للدفاع عن النفس تعاود الظهور عفوياً والمجهود كبير بحيث يستلزم الجلسة ، ولكن يكون في أفضل حال متفتحة لخطاب المريض ويتحمل جرحاً إضافياً إلى ألمه الشخصي .

إحتجاج مثل ذاك المعبّر عنه أعلاه من قبل وينيكوت يذكر في هذه اللحظة بعمل السيرورات الأولية في وضع المحلِّل : الأجزاء المتألمة من الذات ، العقلية أو البدنية ، هي ليست فقط معرّضة إلى هجومات الشخص المدروس المتمدد على الأريكة ، بل تثير حاجة إنقاص ، بطريقة دفاعية ، لحدود الإصغاء عند الشخص الجالس في المقعد . وفي هذه اللحظات يعمل بلا شك هذا الجزء من الأنوثة لباطن حساس وجاهز للحياة .

ويحدث غالباً أن التواصل اللاشعوري بين المحلِّل المنقوص في واقعه والمريض ، يحدث عند هذا الأخير قلقاً متفشياً يظهر إما بالاكتئاب ، وإما بالعدوانية والإهاجة . وحينئذٍ تصبح أكثر صعوبة بالنسبة للمحلِّل

ضرورة العمل لذاته وفي الوقت نفسه للآخر ، للسيطرة على النزاعات الارتكابِسية للوضع : وينبغي عليه حينئذٍ إعادة النظر في حدوده الخاصة في تلك الآونة ، والتشجع من مواضيعه الشخصية ، الداخلية والخارجية ، والتخلي عن رغبته في الإصلاح تجاه المريض ليحفظ ذلك لاستخدامه الشخصي . كالأم المريضة لا تستطيع تغذية طفلها بسخاء بدون المخاطرة باشتراكه بمرضها . فالضرورة الأولى بالنسبة إليها هي الشفاء وعدم الاحتفاظ مع طفلها إلا بعلاقة الحب الضرورية للصحة النفسية . وكذلك المحلّل المشوش موقتاً في حياته اليومية النفسية أو البدنية يواجه ضرورة الاحتفاظ بمشاركته بالسيرورة التحليلية القائمة بينه وبين مريضه ، لترك هذه السيرورة تجري من تلقاء نفسها ، مع العلم أن وظيفته العلاجية لن تستطيع الاكتمال تماماً في مثل هذه الظروف . والمحلِّل حينئذٍ في أعمق أعماق الوحدة . لقد كتب فرويد كيف قرر وضع مقعده خلف مرضاه: لكي يشعر أكثر جهوزية لهؤلاء المرضى بالحدث نفسه الذي كان يتيح له الغياب البصري التصرف من تلقاء نفسه . وقريباً كذلك ، أقام تماثيله الصغيرة الشهيرة بمتناول عينيه ويده ، صور المواضيع القديمة الداخلية التي بها كان يعيد خلق التنظيم الحي في ذاته ، الذي يسمح بالمقاومة ضد الاكتئاب . إعادة خلق في ذاته لمكان أنثوي مخترق باللذة .

وفي الواقع ، يبدو لي أن أنا المحلِّل خاضعة باستمرار لمستلزمات عظمى تجاه أوضاع الاكتئاب . وغريزة الموت تعمل من بين الأشكال المقولبة للجلسة نفسها : أوقات ثابتة ، محفوظة من الحياة العضلية ، ابتعاد عن الحياة الاجتماعية والخارجية . وضع مصطنع ، وبكلمة واحدة ، للجلسة بين المقعد والأريكة . وفي هذا الجو المفتعل ، الموت

حاضر بلا إنقطاع ، نهاية حياتنا ، حياتي كما حياةٍ المريض . عمل ماكر يخاطر بجر المحلّل في نسق مكتئب ، عمل منقّب يستطيع الظهور بشكل عمل سلبي ، من ضد التحول غير المحلِّل من قبل المحلّل المفلت إلى سؤاله الخاص .

ويجد المحلّل الشاب في هذه التجربة الجديدة لوحدة المقعد الوفير مادة للتفكير بذاته وللتقدم في ذاته خلال علاجاته المسيطر عليها . ويمنحه تحليله الشخصي الفرصة لمواجهة بعض فئات الوحدة . وحضور محلّله الخاص يحافظ عليه في الأمان النرجسي ، في استمرار الكائن وقدرته الخلّاقة ، وهذه الصيانة تتيح له اختبار حضور محلّله كما يختبر حضور أم التي قربها ، يرتاح الرضيع الشبعان ، وكذلك الولد الموزع بين الحب والكره . وهو يمتلك متسع من الوقت لإعداد تجربة الوحدة الأوديبية للولد المواجه بالمسرح الأولي الذي هو في الآن نفسه مبعد منه ومتحدر منه . وهذان الوضعان ، مهما كانا مختلفين، يرجعان المحلّل إلى ما وصفه وبنيكوت « كالقدرة على الوجود وحيداً » . وحدة جديدة للمحلّل المبتدىء ، المواجه في مسؤوليته الجديدة باستقلالية عملية ، وبالإصغاء إلى ذاته في المقعد المريح ، يبادل مكانه مع مكان محلِّله الخاص . ضرورة بالنسبة إليه ناتجة من إدراج ، في عمله العقلي ، التحليل الذاتي المستمر للأشكال النوعية لتواحده في هذه الآونة . ويرتكز تدربه بالنسبة إليه إلى تعرفه على حدود محلِّله الخاص في الزمن ، والمدى ، والمعرفة ؛ حدود ذاته وحدود رغباته من القدرة الكلية على الحياة ، الموت وأشكال الوجود التي يقدمه له مرضاه .

ومصادر خبرته النظرية تظهر له حينئذٍ . إنه يدخل ، بسيرورات تسامي الفكر ، في بيئة جديدة ، مجموعة علمية حيث التجربة المشتركة للمحلّل يمكن أن تكون مقالة و ، إذ يعاد فيها النظر ، تصبح مصدراً لتنظيم أكثر عمقاً لقدراته الفكرية والعاطفية .

تحليل لامتناه

كان هناك مرة دمية ، أو محلِّلاً ، لا أعرف أكثر . سطح ، في جميع الحالات ، بشكل بشري . ابتسامة الوردية والعين غير المؤذية . بعضهم كان يجد ذلك في الامتداد ، وآخرون في العمق ، وآخرون في النسيج المنزلق للمغلق . وآخرون أيضاً يجددونه دائماً كذلك في الكثافات العديدة والأحجام المضاعفة . وهؤلاء لم يكونوا يستطيعون الانفصال عنه .

وأليس (Alice) كانت تنزلق فيه ، تختبىء بين سطحين . وأصبح الخارج داخلاً . وكانت تلعق الجانب الناعم واللطيف . طعم « الأم السكر » . كما بالنسبة لدوريس لسينغ (Doris Lessing) . ثدي منتفخ أبداً ، دمية من خشب خفيف وحنون ذو نسغ كتوم . وكانت أليس تعبّ منه بلذة مازوشية تحصرها بسعادة بين الجانبين . لا تغير ، لا كينونة ، لا مكان ، في هذا الملبي المختلف والثابت على قدميه الخشبيتين . لا شيء متحرك . فقط دورة صغيرة في محيط هذا المتماثل ، إلى الداخل قليلاً . ومن ثم الخروج من أجل الدخول ؟ أو ببساطة أكبر أيضاً عدم الحراك مجدداً ؟ وفي الأكثر اختراق القشرة المصابة حديثاً للعثور فيها على شبيه آخر ، شبيه في كل شيء ، وضيق قليلاً .

عثرت أليس على ذلك مصادفة ، مصادفة تماماً ، أدوارد

(Edward) . كارثة الخيبة والفضول . الالتباس مع الذات أو بالقوقعة التي كانت قد أحدثتها ؟ لقد أرادت أليس التراجع إلى الخلف . لكنها كانت كبرت ، بدون أن تدرك ذلك . وكانت تحتل تقريباً كل المدى بين اللعبتين الداخلية / الخارجية . كيف كان أدوارد يستطيع أن يجد ذلك جيداً جداً هو أيضاً ويغلق عينيه الراضيتين ، مثل أليس نفسها ؟ ألم تكن تتركب خطأ ؟ ألم يكن أدوارد قطعة صغيرة من « الأم السكر » ، أو حتى قطعة صغيرة من أليس بحق ، قطعة نسيتها هناك في دورة سابقة ؟

ستفضل ان لا تفكر بان ادوارد يستطيع ألا يكون بالنسبة إليها دمية أو أيضاً محللاً . وبهدوء بكل هدوء ، دخلت تحت القشرة التالية ، بدون ضجة . بدون تحطيم لقد تعلمت التنافذ ، أن تكون هناك في أغلب الأحيان . وعاشت في ذلك في الحاضر باستمرار ، خارج زمن الآخرين . في مدة بدون قياس ، سطح مزدوج من الدمية ، أو ربما من المحلّل .

ببطء ، ببطء شديد ، بعد عدة ثلجات وكثير من الشمس ، ذات ليلة ربما ، شعرت أليس باتصال صلب ، غير مألوف ، داخل / خارج من أحدهم وقد يكون أيضاً هي : لقد نجحت بفتح عينيها . وكانت قد وصلت إلى القلب ـ النواة للدمية . تلك الصغيرة التي يمكن الذهاب إلى داخلها ، تلك التي تبقى كلها ، غير قابلة للاختراق . أليس لا تستطيع بعد الآن معرفة ما إذا كان ذلك أيضاً شيئاً ما من « الأم ـ السكر » أو نوعاً من أدوارد ، أو أيضاً من أليس عند فجر ذاتها .

ولأنها محتارة ، تساءلت للمرة الأولى عما إذا كان من الواجب عليها الرجوع حقاً إلى الخلف . كيف وحتى أين ؟ عبور هذه الحدود مجدداً ، وربما معاناتها ؟ أو على الأصح عدم التفكير بعد الآن . لكن هل كانت أليس لم تفكر بذلـك أبداً ؟ لا ضرورة لأن « الأم ـ السكـر » كانت تحيطها بغلاف من كلماتها اللبنية . الحليب الذي حتى الآن تشعر به رخوةٍ تماماً ، وأليس أدركت حموضته فجأة ، مثل حمرة الخدين للدمية المحلّلة ، أبداً لم ينظر إليها حقاً ، مثل الهواء الذي كان يخترقها بين الأكثر ضخامة والأقل ضخامة من كثافات الدمية الأم . الماتريـوشكا بدت لها وخيمة . ولكن . .

لقد تنفست عبّة كبيرة ، وأغلقت عينيها وقـررت أن هناك أيضـاً بعض السكر وأن تحليلها يكون لا متناهٍ .

مفارقة المحلِّل النفسي

إذا قلت : « أسمع ما أنا بسببه أصم » ، فإن استقامتك مخادعة . وتضع نفسك في وضع أبيمنيد (Epiménide) الكرواتي ، الذي أكد أن جميع الكرواتيين كاذبون . فعندما تدعي سماع لا شعور الآخـرين ، تدخل في مفارقة : إذ كيف تسمع اللاشعور لأنك تسميه لا شعور ؟ ألست محلِّلاً نفسياً واعياً بشعورك الخاص عندما تدعي تلك المقدرة ؟ خطأ مبتذل يتمنى ويتهم : المحلِّل النفسي لا يسمـع اللاشعـور . إنه يتفحص مظاهره . ويستطيع التعرف عليها بغتة عند مريضه ، بعد أن يكون قد تعلم طويلاً وبصبر التعرف عليها في ذاته نفسها . وهنا بدون أي شك معرفته الوحيدة الخاصة . معرفة لا تستبعد التدخل في ذلك ،

بالنسبة لمعظمهم ، فيما وراء الكثير من التمهيدات* الأخرى : في الفنون والتقنية ، في العلوم والفلسفة . معارف متراكمة ، من الحياة ومن الذات ، وهي الأسس النوعية لاقتراب ممكن من اللاشعور. لم يكن هناك لغز إلا نادراً : الحكماء ، العلماء ، الفلاسفة والشعراء لديهم التجربة نفسها التي للمحلّل النفسي . وهم يضعونها مثله في خدمة الآخرين . ومع ذلك وحده المحلّل النفسي يفتخر من هذا التوظيف لتعمق ذاته . وأقرب من الصوفي أو الشاعر منه للفنان ، إنه يدعي الخلق . ليس خلق موضوع لاستعمال الرجل ، مثل الفنان ، بل إعادة خلق فعلي للإنسان نفسه في الإنسان . مثل الساحر في ما مضى ، يأخذ بحزم القضيب المتشعب من شجرة البندق ، متفحصاً بخطى بطيئة سطح الأرض . والسائل العصبي للأعماق التحتية كان بالنسبة إليه معروفاً في ذراعيه ، في عضلاته . لقد ظل جاهزاً وحاضراً للضرورة المتوقعة لطاقة خارجية عن ذاته ، ولكنها نقطة غريبة . وكانت الحركة التي لا تقهر للبندق تعني له النقطة التي يلتقي بها المنبع .

ويتقاسم لغز اللقاء المدى التحليلي مع المعروف من الجزئين : مثل التحترية حيث يرقد الماء ، مستعداً للانبجاس في مكان ما على يد ثغرة ما ، ولا شعورنا يسيل بواسطة كل حركة لجسمنا . والمحلّل فقط تعلّم ارتقاء مجرى الحياة حتى منبعها . جالساً ، يقظاً ، يصغي : إنه لا يسمع ضجيج النهر اللاشعوري التحتي . وكانت أذني المدرّبة تتعرف على الأصداء ، الخرير والتدفقات . ماذا يوجد هناك في الأسفل ؟ إنه

(*) التمهيد : طريقة تتيح إقامة علائق بين عدد من المنبهات والاستجابات في الكائنات الحية يتأتى عنها اكتسابها مهارات خاصة للتكيف مع بيئتها . (المترجم) .

يبقى مستعداً : إما لرؤية إنقضاض المد المعروف حتى الآن بالكبت عليه ، وإما للمتابعة بصبر القطيرات الصغيرة المقطرة من قبل الأنا العليا .

لقد أظهر لنا سقراط الطريق ، الذي كان المنهج التوليدي يولِّد منه تلامذته بمعارفهم الخاصة . لقد كان متواضعا ومستسلما .

بين المقود والأريكة : تقنية ونظرية

ولكن لأكون محلِّلة ، لم أكن أقل من ذلك امرأة ، وعلى الأصح أكثر من أي فرد آخر ، على أي حال أينبغي ذلك ، بما أعرفه ، بما أشعر به .

وكل مريض يصيبني بهذه النقطة الأكثر إنسانية ، بدون أدنى شك نقطة تدفق حافزي التحليفسي وهذا البحث عن الإنساني بما وراء وظيفته الاجتماعية ، كل مريض عاجلاً أو آجلاً ، يواجهني ، منزلقاً على المنحدر التجاوزي : « متى ستحولين عن بأسك ؟ ألا نستطيع التكلم أمام كوب من الشاي ؟ » خطاب مفسد لصورتي الحقيقية : نداء للشخص الذي أكونه ، إنحراف عن المحلِّلة النفسية . هذا الخطاب يحاول أن يجعل مني نوعاً من السيدة الاجتماعية . ويسعى مريضي إلى تبادل السلوك المقولب لمحللته النفسية لقاء السلوك المقلوب لامرأة اعتاد التوجه إليها . وهذا النوع من الدعوة الشاذة هو غالباً معبر عنه ، بدقة أكبر بكثير في خطابات أخرى ، تحول الإغواء الذي يخلط الحب والعدوانية . عمن يبحث عبر صورتي المفككة ؟ أية حالة للذات يريد إستدراجي إلى إعادة بنائها ؟

والمحلِّل ، محمي من الانتهاك بموقف مهني مكتسب في تكوينه ، في هذه اللحظات حيث مقاومة المريض تنحاز إليه مباشرة ، يجب أن يتأكد من تصرفه العقلي . شيء ما يتكرر من أجله أيضاً ، ويحتوي تجارب أخرى : إنه يستعيد بفعالية التطور الداخلي نحو عمق شعوره ـ استحضار لمحلِّله الشخصي ، لأساتذته في التحليل ، ومن بينهم ، أبيقراط وقسمه . والصور التي تؤسس الممنوع تقود مجدداً السيرورة نحو الرغبة الجاهزة لتصفية اللاشعور .'حازم وحيادي يجب أن تبقى . ممفهم بذاتك ممثلن في مفهومك النوعي المحمول إلى الإلحاحات المصورة لجهازك النفسي الخاص . وفي تحليل التكون ، جزء من الأنا العليا متطور إلى نهايات التسامي . وهذا الجزء ، من الذات يفعل باتجاه مثال الأنا . ويؤسس المحلِّل على هذه الصورة المثالية للذات جزءاً تكوينياً لوجوده المهني . وهذا التصور يفترض الأخذ بعين الاعتبار مشاعر المريض وردات فعله ، متفحصة بذهن نقدي دائم . والعلاقة المتبادلة للتصور الأخلاقي للذات ولتحليل المؤثرات الخاصة تؤدي عند المحلِّل إلى تأويل إتفاقي لعلاقته بالمريض المعالج ، قابل لأن يكون متصل بهذا الأخير . وبكل وضوح هذا النمط من العمل التحليلي الذاتي يعمل كلما تدخل المحلِّل شفهياً خلال الجلسة . ضد التحويل ، إحدى السيرورات الداخلية التي تؤسس إمكانية التدخل التحليلي في العلاج . وينبغي أن أصغي إلى نفسي وأنا أعيش ، لكي أستعيد صدى المؤثرات التي يحدثها قول المريض ، أو عدم قدرته على القول . الإصغاء إلى النفس متخيلاً مصدراً ممكناً لمريضي . ولكن إذا كان هذا النسق النسق الوحيد الذي يعمل في ذاتي ، فإنه يصبح شيئاً ما مثل

تطابق ضد ـ تحويلي للتحويل المتعاظم الذي وصفه كوهو[1] (Kohut) .

مثال الأنا هذا ، محرك القسوة التحليلية ، في السلوك الداخلي والخارجي للمحلل النفسي ، ينبغي أن يكون بوضوح مضاداً لمفهوم الأنا المثالية . وتخضع هذه الأخيرة المحلِّل لخطر تصور مطلق للذات الكلية القدرة ، تكوّن ارتكاسي نرجسي ، أمام صعوبة إعداد الحصر البشري ، يقيم الأسطورة ، المؤذية جداً للمريض ، من المحلِّل المفترض بدون خطأ .

امرأة شابة ، خلال تدريبها على التحليل النفسي ، جاءت تطلب مساعدتي . وكانت قد وافقت على الشروع في العلاج النفساني لامرأة شابة أخرى مكتئبة جداً . وشعرت بالضيق من خيوط إغواء سحاقي من جانب مريضتها ، بدون أن تجد الحل الذي يسمح لها بانكفاء ضد ـ تحولي والتفسير لخطاب وحركات المريضة . وحصلنا لاحقاً على فرصة لفهم أن ما تظهره هذه المريضة قد سببه اللطافة الكبيرة جداً لزميلتنا ـ المحلِّلة . ملاطفة شدَّها إليها الاكتئاب المسرحي للهستيري . وتعرّفت تلميذتي فيها على صورة أختها الشابة ، واستطاعت تحليل علاقات الذنب بصورة مماثلة ، واستخراج ربح كبير من هذه التجربة . ولم يكن هناك أي شك في أن كل محلِّل يصل أحياناً إلى حدوده . والمرأة الشابة التي ذكرت مغامرتها وجدت أمامها إمكانية امتداد علاجها الخاص . ولكن ، مسؤول أو لا ؛ التحليل النفسي لكل فرد له بكل تأكيد حد . أيبقى أحدهم أكثر حاسية بالاكتئاب ؟ ربما آخر ما لم يُعِدّ حتى عمق

---

(1) H. Kohut . 1971 .

مكبوتاته الألغاز العنيفة للاضطهاد ؟ أو أنّ شخص آخر اتبع جيداً في ذاته كل الانعطافات للمتاهات الوسواسية ؟ في زاوية معتمة يستمر بقوة ، في كل محلِّل ، شكل محدَّد لشخصيته التي تجعله يصطدم بدون عودة مع مريض ما : وكذلك جذر مثل هذا ، مزروع في حقلٍ جديد ، لا يجد فيه الأغذية النوعية الضرورية لإزهاره . فينب خاملاً ويضمر ، بعض العنايات التي يسخى بها عليه . كذلك بعض البنى العاطفية تواجه في التحليل تنافراً قريبا لا يقهر .

هذا الوضع الصعب يستحضر للمحلِّل خطر الانتهاك : إنتهاك القاعدة ، القواعد ، كأن هذا العبور ينبغي أن يسمح له بتجاوز حدوده الخاصة . ويمكن الاستسلام به للتناول : من قبل الذنب ، من قبل العدوانية ، من قبل رغبة قادرة . علاقة ، في هذه الحال ، تبقى مقفلة .

يجب عليك الدفاع عن نفسك بنفسك . أيها المحلِّل . عن ذاتك في مريضك . إنه يقيم الحصار على شخصك التحليلي . لكن دفاعك لا يجب أن يكون حائطاً تسمح ركاماته بمرور الغرائز العدوة أو المكبوتات المهملة . إن ليونة الدفاعات هي النتيجة ليست فقط لتحليل جيد بل أيضاً لقدرة دائمة للتحليل الذاتي في الموقف . والإشارات الداخلية للأنا ، المنظمة كذلك ، تتيح لهذه الأنا توفيراً جارياً بين الهي والأنا العليا . إنفصال الإثارات التي تحدثها تصوراتها لردات الفعل المنتجة من قبل هذه الأخيرة .

« أنتم تسمعون ركامات التاريخ ، والكل يروي قصته ، ماذا تفعلون بكل هذا ؟ ماذا ستصبح فيكم كل هذه الحكايات ، كل هذه

الخيانات ! » لم أستطع الإجابة لمريضتي : « أجعلهـا بعض أناي » ، ومع ذلك هذا جيد . فديناميكية السيرورات العـلائقية في التحـويل تعمل بتبادل المواضيع الداخلية الخيالية . وأجزاء الذات التي يسلمني إياها مـريضي تخترق ذاتي ، إلى أقـاصي لا شعوي ، تجيّش صـوري الخاصة المتمثلة بعمل التواحدات التي في ذاتي تجيب هذه الإسقاطات التحويلية .

حضور في ذاتي للأيكو[1] (Echo) كما لنرسيس Narcisse . لكنها مرآة فيها تتدفق الصور . أيكو التي كلماتها تعود لتسمع ، جسم شفاف وليس سطح موحداً ، حيث ينزلق الصوت والنظر. التقاء وجودي مع وجود مريضي ينفي الموت . وآخذ منه حياة في الوقت نفسه الذي يأخذ هو حياة ، في صورة المرآة المشتركة ، في التوحد الفضائي للقول .

المحلِّل النفسي والاكتئاب

« صمتي يسمرك في مقعدك » . حقاً . وفشلي أمام هذا الصمت الذي يدوم يحولني إلى وضع ضحية عاجزة . Patior : أنا أتعذب . وهذا المريض يتألم هنا . يتألم من ماضيه . هذا الماضي الذي يعذبه قد وصل قبلنا ، قبله هنا وقبلي معه . خطأ القدرة فيه على العودة بوساطته الشفهية . نحن مستبعدون الوالد للآخر . إنه يستمر بصمته استبعاداً هو هنا الموضوع والذات . إنه يؤسس في الوقت نفسه وضعي الخاص

(1) أيكو (الصدى) حورية من حوريات الجبل عشقت نرسيس وهي تعاني من العجز عن الكلام وذبل عودها حتى أصبحت عظاماً وصوتاً وتحولت عظامها إلى أحجار . وقيل مزقتها الكلاب ولم تبق منها إلا الصوت (المترجم) .

لموضوع مستبعد ، نايتي ، معرفتي الغير ، عدوانيتي نفسها هل سيكون لها رابطة ما كافية بهذا الصمت لكي تبرز فيه الكلام الخلاق؟أتذكر فرويد (1918) قائلاً عن رجل الذئاب : «[. . .] صعب [. . .] وضع النفس مكان مريضنا لكي نفهمه » .

الكلمة التي تمزق وتكمل الوجود يتسامى بجسدنا . تسامٍ متوقع عبر الصمت . مثل الحياة تولد مجدداً من الموت ، الكلام يولد من الصمت . ليس أي كلام ، بقدر ما لا أكون رازحاً تحت الاكتئاب . هنا في الواقع يراقبني المريض عبر العدوانية المكبوتة خلف اكتئابه الشخصي . فالمحلِّل هو بشكل دائم مجذوب نحو هوة الاكتئاب على يد المريض المكتئب . لحظة مثمرة الموضوع فيها محبوب ويجب أن يكون معدولاً عنه ، عمل جميع الأيام في الكائن المتحول .

خسارة الذات ، أنا كما هو . إنه يدافع عن نفسه بعدمية يمكن تخيلها ، صورة الجسم الضائع من الأم ، أأنا محمي بشكل أفضل ؟

« وجدتك جميلة ، هذا الصباح . وكنتُ سعيدة بذلك » . حسناً . « نهاية الأسبوع لم تنظمك . أنت دائماً قبيحة أيضاً ، ولا أحب رنة صوتك » . الواحد تلو الآخر ، يتضايقون ، يغوون . أين أنا ؟ تمايز الأنا ، من كلامهم في نفسي ، من صوري . ما أكونه في ذاتي فيما وراء النسبية السطحية للفعل . ما يكونون هم ، متميزين ومتشابهين. الكل مثلي . تلك التي يتوجهون إليها بالمجاملات والخصومات ليس إلا مساحتي ، غلافي المقلوب على يدهم للأشخاص الذين يعاشرونهم اليوم . لنستعيد ؛ كل من جانبنا . أشعر بحماية مقعدي ، محاطة بمن يتيح لي الأمان المقهور لمساحة صغيرة محددة بشكل خاص لي .

والاهتزازات الداخلية ستكون متحمَّلة ، متجاوزة ، محلَّلة . أضغط نفسي في ذاتي ، أحتفظ بوجودي في تجويفي . أصغي .

***

« كانت مريضة تقول لي : ليس لك حدود . لقد تعلمت تقنية تسمح لك أن تكون هنا ، بشكل مصطنع ، بدون إنفعال ؛ لا شيء أخشاه منك ، أنت لا تقاومين أبداً . تحسنين الكلام بطريقة رزينة ، مهذبة ، أنت لا يتوجب عليك القيام بأي جهد لتتحملي عدوانيتي وتحريضاتي . هذه مهنتك . وتقومين بها بمثابرة ولا شيء يظهر من مشاعرك الخاصة ، إلخ » :

هذه المريضة امرأة ذكية ، لديها وضع أتني وماضٍ قويّاً ، ميولاً سادو ـ مازوشيست مهمة من أجلها جاءت لرؤيتي . حقاً ، كان استلزمني الكثير من الصبر أمام غياباتها ، تأخراتها ، صمتها ، هجوماتها ، رقتها الخادعة . إنها تتصل بي نهائياً بالوسيلة الوحيدة لأصالتي الخاصة ، باحثة وواجدة ، في الشهادة التي أستطيع منحها إياها من ذاتي المحلِّلة ، التطمينات الضرورية لكي تتحمل حياتها كإمرأة . وليس لدي إمكانيات تقنية أخرى ، في ظروف هذه العلاج المؤسساتي ، مثل إستحضار مواضعي الضد ـ تحويلية لكي أتيح لها إعادة بناء نرجسي . إنها تعرف جيداً جداً ، بذكائها ، ثقافتها وتجربتها المعاشة ، أن خطابها ، عندما تثيرني بالطريقة التي حملتها لها ، تلامس أعماق شخصي ، تنزع أقنعتي بواقع المحلِّلة التي تمنحها أكثر من صفة إسمية .

لقد تعلمت بالتجربة كيف لا أهرب من هذا الـوضع الصعب ، أينبغي أيضاً أن أحذر شيئاً فشيئاً من السيرورة ، من إنزلاق غير مرئي في الحوار ، الهجومي السريع . لقد أعـددت نفسي في الوقت نفسـه الذي أعدت هي نفسها . تحليل بلا إنقطاع لجروحيتي بطريقة هجومية محددة ، بديالكتيك رهيب في لعبة منها رغبة في أن أستسلم . أستطيع أن أعبر لها بوضوح عن نتيجة إعداد المشاعر العـدوانية المـوجودة في ذاتي . بإنحراف تواحدات الموانع والتفـافاتهـا ، فتتوصـل حينئذٍ إلى القدرة على أن تتخيل هي نفسها في الوضع نفسه تجاهي ، بدون أن تغرق في ذنبها . تستطيع التعرف أن كل شيء ليس جيداً فيها بدون خشية أن يدمرها عقابي . وبعد بضعة أسابيع تتكلم بطريقة شبه حارة عن محيطها العائلي الخاص . وأشعر أنني كوفئت . ربما تعرف هي ذلك بطريقة غامضة .

إنها قابلة لأن تستشف أية حركات وضعتها في العمل للتوصل إلى السماح لي بالفهم والحزم ، ولأغدق عليها بدون أن أشعر أنني البادئة برغم نياتها الناهشة .

إن صلابة الدفاعات الوسواسية المعاد بنائها بلا تعب عند مريضتي تغطي الميوعة المقلقة للنداء الغريزي . وأستطيع إستعادة بنية معادلة في تقنيتي الخاصة : خطابي يسمح بالاختراق عبر قسوتها الحذرة ، صدى المؤثـرات المستحضرة . مهما كـانت عنيفة ، أبـدل مكانها ، أفسر . والقرب بين المرأة وبيني يمكن أن يكون مستحضراً بدون خطر الإغواء المتبادل لأنني أحافظ على مراقبة غرائزي المعروفة الخاصة . بدون أن أنفصل عن حيادية المحلّل ، ساحة بتوافق شخصي مع تقنيتي بشكل دقيق ، وأفتح لهذه المريضة إمكـانيات التعبير التحويـلي التي فيها ،

جنون العظمة ، والاكتئاب ، والمازوشية والسادية ستجد ربما حلها .

إن حالة هذه المرأة والبيان الذي قادني أديا بي إلى التفكير بأن المحلِّل يعمل عقلياً بالنسبة لأساتذته ، مثل هذه المريضة بالنسبة إلي .

إن مرجعنا التواحدي التحليلي إلى محلِّلنا الخاص ، إلى فرويد ، أو إلى الآخرين الذين تبعوه وشهروا العيادة والنظرية التحليليتين ، تشرك في الآن نفسه . **بجنون العظمة الأوديبي** ، **بالالتهام الاستيهامي الطوطمي وبالضرورة النرجسية** .

جنون العظمة (التعاظم) الذي ذهننا النقدي يدافع عنا ضده ، بكل أكيد ، ولكنه يجرنا نحو الإسهام الكلي القدرة بمسرح بَدائي مؤسس لذاتنا المحلِّلة ، عندما نغرق الأعين المحدقة في كتابات أسلافنا الكبار ونجد فيها اللذات التجاوزية التي حوَّلها التسامي المهني والنظري إلى دفاعات جيدة الاستخدام . التهام توطمي ، هو أيضاً متسام ، به نجد طبيعياً ومربحاً « التهام الأعين » المحتويات الغنية بالكتابات التحليلية . إستئثاراً بكل الوجود التحليلي لأساتذتنا ، أو لزملائنا ، الذين نقول بوضوح أنهم « ينقلون » إلينا معارفهم ، وتجاربهم ، واكتشافاتهم . التهام لباطن أمومي ثرواته لم تعد ممنوعة علينا . دفاع حيوي ضد القضم والاستهلاك اليومي الذي نفرضه على مرضانا والذي يستحضر تفتت الجسم في الموت والعقل في الجنون .

المحلِّل النفسي والجنون

« أنت لن تموت ؟ قل لي أنك لن تموت » . على أي حال أستطيع أن أقول لك بأن لا رغبة لدي في ذلك . أن رغبتي في العيش تستوجب

حياة هذا الذي يكلمني في هذه اللحظة . خوفه من اختفائي ينضم في ذاته إلى رغبته في رؤيتي اختفي في إعصار موته الخاص . إنه يحتاج إلى أن لا أشعر بخوف ، ولا بجنونه ، ولا بموته ، أن أكون مطمئناً إلى أني سأدفع ذلك عني إذا الغريـزة تغلبت عليه ، متمنيـاً هزيمتي ونصري معاً .

في تأكيدي الوحيد أنني أيد العيش ، يجد التـأكيد لرغبة مفترضة بحياته الشخصية . فيما وراء خطابي ، أنا نفسي قضية يواجهها إفتراض حياته . إننا نتكلم حياة وموتاً ، بلا توقف . حياة بدون توقف تتجدد رغم المـوت . موت دائم ، محفـوظ في عمق الكـائن كـما في نهايتـه الأخيرة . إنه يواجه في ذاتي العبثي المميت . وترتكز كـذلك في ذاتي عبثية الوجود . والرفعة العابرة للحياة هي بالنسبة إليه بدون توقف مؤكدة بحضوري المتجدد ، بإيقاع اعتيـادي . يده تمتـد نحو يـدي ، تتردد تخشى الاتصـال المرغـوب : « ستفوت قـطارك ؟ ستمضي طـويـلاً ؟ القطارات ، إنها تخرج عن السكة . السيارات كذلك ، هذا خطر . ولكن الطائرات كذلك . قطارك لن يخرج عن السكة . قل ؟ لا أريد تركك اليوم . إذا متّ ، سأموت كذلك . أعطني شيئاً ، أي شيء . ملبسة ، ألديك ملبس لتعطيني ؟ » بضعة صغيرة من حياتي الجوهري التي تنزلق في الكائن المترنح فيا وراء هذا التملك المتسامي .

العثور على الكلمات . أنت تحملني في ذاتك ، مثل الملبس : رغبة في العيش . حياتك غير حياتي ، أنت تمتلكها لذاتـك ، في ذاتك . لست إلا حارس عابر : محمي بحضوري الموقت، بذرة حياتك نبتت في ذاتك . كلامي ، مـاذا أصبح عـدما تـترك نفسك مجتـاحة من قبـل

الحشرات المتعددة التي يفرزها لا شعورك لتلتهم الإبهام الطري ؟ ربما صدى في عمق فبشعور كهفي . ربما نبع . ربما قطعة صغيرة جداً من الجسم الذي يشعر بالحياة ، يستعيد تملكاً عبر رغبتي المتوقعة بأنك تعيش ، بأنك تحيا بدوني .

جنونك يوحدنا . تخشى الخسارة بقدر خسارتي . الخسارة ، هذه خسارتي كذلك . لقد حزرت مسبقاً شيئاً فشيئاً ، فيما وراء الخوف ، حباً جديداً ، ربما حب ذاتك . أنت تتوقع حدودك خارج حدودي ، جسمي الاستيهامي بدون توقف حول جسمك . أنت تخاطر بأن تقول لي مخاوفك من الواقع الخارجي . إذن أنت تعلم . أنت تعرف أن لك جسماً بدون جسمي ، حياة بدون حياتي . لكن الفجوة السوداء ، فيك ، ستعاد أحياناً ، في الأحلام والانفعالات ، هوة عند حافتها تجادل نفسك لكي لا تغوص ، الثغرة السوداء ، لن أطمرها . تعرف ذلك أيضاً ، وقريباً ستقوله . أشعر أنني تقريباً مرغمة على الاعتقاد بخلودي عندما أكون معك . إذا لم أكن مطمئنة بحياة جسمي ، سنكون ميتين معاً . إذا لم أكن متأكدة من صلابة ذهني سنكون مجنونين معاً . لا شك في نفسي يسمح لي أمامك . ومع ذلك وحده بعض الكلام المتحدر من نفسي يستمر في ذاتك . تتغذى منه السور حول هوتك . وعندما سيكون السور الذي أنشأناه قوياً كفاية ، ستستطيع تركي .

لن أحيل ، للأسف ! ليس فيك ما لم يسمح به الآخرون أن يحدث فيه . ولكن أستطيع مساعدتك على نقض ما فعلته بالكثير من الهول : جنونك . أنت تستخدم هذه الكلمة ، تعرف أيضاً خدمة نفسك من

هذيانك ـ حتى لتقوية فائـدة الآخرين . اتهـام الآخرين لـلامبالاة ، الوحشية ، عـدم الفهم . لكي نتطلب منهم العـلامة الـظاهرة عـلى جنونهم الممكن ، على اعـتراضهم المرعب أمـام الهوة الفـاغرة حيث تـريدهم ممـزقين . حب مسكـين حصلت عليه حينئـذٍ ، مصنوع من الفضول ، من الكره والقدرة ، راضٍ بعدم إتباعك . حـول النواة المؤلمة التي وزنها يفكك ، أستطيع فقط مساعدتك على استعادة أصداء السعادة والحياة . على قبول أن الجنة ، لم تعد إلا جحيمك . لن تكون حقيقة .

المرأة المحلِّلة النفسية والطفل : خرائب عدن

هذا الصبي الصغير ذو السنوات التسع يتصرف منذ وقت طويـل بحياته ، بموهبة طبيعية ، بتحليله النفسي . في ذلك اليوم ، طرح على نفس أسئلة جديدة : « ربما قريباً لن أعود بحاجة إلى المجيء ، أو على الأقـل آتي بعض الأحيـان ، وثم لا ، سـأتـابـع دائـماً المجيء . (صمت) . ولكن ما هو عملك ؟ لا أعرف دائماً . لست معلمة ، لست طبيبة . أنت قليلاً أم . هذا ليس صحيحاً . إذن ما هذا ؟ » . عفوية مؤثرة في السؤال . عليها أجيب بمقدار ما أنا أفعل مباشرة في هذه اللحظة الثمينة . الطفل يخرج من العش . كل شيء في نفسي مطروح على النقاش . من أنا في الواقع ، بالنسبة إلى هذا الصغير؟ من هو بالنسبة لي خاصة ؟ في نفسي ؟ لقد جاء ، ضائع في أعين الجميع . مرتبط بأمـه بحب بشكل متبادل مجنون ولكن كم هـو عميق . حتى بجنون محبوب ، كثيراً أو محبوب بشكل سيء . لقد كـان كذلـك . بدون أي شك . حفظت هذا الكنز ، المستعاد في نفسي عبره . بدون

أي شك عملت معه على أن أصون من أجله أيضاً هذا الكنز نفسه . والآن ، أعتقد أنني أرجعته حقاً إلى أمه التي كانت في طريق خسارته . حقاً توجب عليه تحمل تمزقاته وأن يضع منها في نفسي نسيجاً معترفاً به .

عن أي طفل تنازلت هكذا في نفسي ؟ على ماذا تعرفت في هذا الصغير للطفل الذي أعرفه في نفسي ؟ لأي أم مشتركة عملنا حربنا وحبنا ؟ لأي زوجين ؟ . يحضرني مشهد : في عمق غابة صنوبر ، محاطة بالسرخس والخلنج ، الطحلب مقتحم جدرانها . منزل واضح ينهار ببطء على ماضيه . بقايا حديقة مسورة تحتفظ ببعض الأشجار المثمرة وبقايا نبتات زهرية ، الشمس والعصافير تسكن صمت الروعة هذا . رمز غريب ، على عُصابة الحجر الناعم الذي يعلو الباب البسيط إسم محفور ، كبير جداً : عدن . إنه كحلم ، أو ذكرى . طأنينة هذه الخرائب المعمرة تعجبني لتصوير كذلك الطفولة التي أحفظها في نفسي . مشاعر متعددة معرقلة بالثمار ، بالأزهار ، بالعوسج ، أحجار قديمة نعثر عليها ومنها نعيد بناء صرح في كل مناسبة من حياتها . في الذت ، استعادة تجويف الذراعين المغذيين ، حضور جنة الوالدين المتحدين والمحبين .

في كل زيارة لطفل محزون ، أتأمل في ذاتي الخرائب الحزينة لأوهام ضائعة ، انتظارات خائبة . في ذاتي يحن التواطؤ الخطر بين الضعف المدلل والسيطرة الوهمية على عواصف الحياة . أنشيء نفسي مجدداً بشكل دائم مع كل من هؤلاء الأطفال وفق صورة جسم الأم ، أنا نفسي أم مثل أمي الحقيقية ، ووفق أم الطفل الغريب . الأسلوب المتبادل متبعاً البنّاء الذي معه أتعاون .

الفصل الثامن

كلام محلل

كم يشبه
ظله في الماء
السوسن
Matsuo Bashö
Haïkaï

صوتي يحمل كلماتي نحو فضاء جسد . خلايا الفكر . خواء منظم موصوف من قبل اللغوي . مواجهات اللغة ، ملاحظة ببرودة ، منظمة بشكل دقيق وقاسٍ لا تكفي لعرض الحجم الذي يستعيره الكلام . فضاء الحياة ليس مسطحاً . وتثبت الكتابة في الموت تبعية التكلم . تبعية ثلاثية الأبعاد ، مأخوذة في الكثافة الشهواني، في المؤثر وفي الفكر .

يفكر اللغوي بإيضاح الخطاب ، في تحليل البنى التي تنقل رسالة المرسل إلى المرسل إليه . وضوح مشتهى للغة المكتوبة ، مزنرة بالاصطلاحات ، مصفحة بالنحو . إضاءة مطمئنة أن الوظائف اللغوية الست مذكورة من قبل جاكبسون .

ماذا أصنع منها أنا ، المحلّلة ؟ هل سأجد فيها ما يحول كلامي بين ذاتي ومريضي ؟ من البنية ، لا أريد التعرف إلا على المرسل والمرسل إليه . وأيضاً أن هذا المرسل إليه ليس له قيمة مطلقة عندما يكون محللاً

لأنه يصغي إلى الرسالة بمنخل التحويل . نسيج مشدود في العديد من الحبكات التي جميعاً تشبه البنية المبعوثة في الصورة الفريدة لذاك الذي يتكلم ، مستبعداً فائدة المصطلح ، القناة والنص الكامل .

المحلِّل يتكلم . تقريباً حدث نادر حتى الآن ، وفق زمن السيرورة المتطورة ، وفق التقنية ونظرية التأويل و ، خاصة ، بدون شك ، وفق الشخص الذي يحتوي المحلل شرح الرسالة من قبله منقول إلى الداخل المغلق جيداً للجسم التحليلي يستطيع أن يأخذ هذا الحجم أو ذاك من الأحجام التي وصفها فرويد : التأويل والبناء .

والتأويل المدرَك يستعيد باختصار قول المريض ـ المرسل ليواجه ، ويقـرّب ، ليرادف كلمة أو جملة قصيرة . لعبة بالكلمات . عودة القول إلى القـائل . الإنشاء يجمع ويضـع في الميزان عنـاصر ملفتة بـأهمية متبـادلة ، في القـول الحالي والأقـوال السابقـة . وبكل تـأكيد تعبـير الـرسالـة ، المأخـوذة كما هي ، هـو العمق القابـل للتحليـل . لكن التطوير ، في الشخص الذي يتوجه إليه قول ما مهما كان .

التأويل ، في التحليل كما في الموسيقى ، سيكون ربما إعلام القول بـالإيضاح والأداء . وكـلام المحلِّل سيتألف من قـول محلِّل للرسالـة المرسلة من قبل المريض ، من إيضاح مفترض من قبل المحلِّل المناسب للضروريات المشعور بها عند هذا المريض وأداء تعبـيري للحركـات الداخلية ، وأود القول المحايدة بقدر ما تستطيع ؟

إذن ، هـا نحن مقادون إلى وظـائف الخطاب ، الـذي يحتفظ به المحلل لمعناي ، إثنان : التعبيري ، أو الانفعالي ، الذي يتركـز على المرسل ، والشعري ، المتركز على الرسالة . وبه ، في اللغة نفسها ،

مصطلح ضروري ، سيتغير المريض والمحلل بالتبادل في مكانين عميقين ولغزيين من وجودهما . كما بقطعة موسيقية . تجزئة لحن مزدوج ، على خلفية أوركسترا . والمؤثرات والاستيهامات التحتية لهذا النص الذي يربط المؤولين . فالمحلل ، هو ، يسأل المؤلف الموسيقي . على لا شعور يبنى النص . فالكلام رمزي للأنا . ومن قبل مبني في التمثيل الخاص للذات . في مواجهة اللغوي ، إذ حلّلت نفسياً ،أدعي كشف بنية الإنشاءات اللاشعورية التحتية في خطاب مريضي . فيما وراء المعايير ، النظريات والتقنيات ، كلامه يبلغ لا شعوري الخاص ، يوضح في ذاتي رسالته . صور مستحضرة ، لي ومنسية ، روائح ، أشكال دفء ، عنف ، وحنان . تعدد معاني اللغة يسمح بكل تحولات الآخر في ذاتي . عند الغوص البطيء أو الفظ ، حبال المعروف ، خيط فكري يحفظني من ناحية الهذيات المشتركة .

* * *

كلام معطى ، كلام مأخوذ ، وعد بمحتوى الأنا ، مجد متبادل على الموجة غير المحسوسة لنفس الحيوي . فعل تواحد بالذات خاضع للنفس .

الصمت حيث يتصادم الخطاب . الصمت المتواطىء ، المعزول ، التضادي . إجتماع لا نهائي للممكنات . ستار أمام الفعل والحياة ، مرآة الكلام ، مرآة في الحقل الشاسع ، الثابت ، حيث تتشكل الصورة ، بين الأفواه والآذان ، صورة مزدوجة للمريض . مشروع في المحلّل .

هوية ، ليس من الواحد إلى الآخر ، بل للأول والآخر . تبادل المعنى ، تعادل ما يعاني ، تعدد المنتظر والمرغوب . وخلف المرآة الشفهية ، الشخص . شكل ملموح عبر الخطاب زمن ذراع منطو تحت ذقن ، زمن فخذ متصالب عند قفا جملة ، زمن ابتسامة غير لائقة . ليس الكلام أبداً صائباً لأنه متعدد المعاني . ولكن في هذه الفرجة للمعنى بين المحلل والمريض عند التجويف الاشتقاقي ينبت الاختلاف المماثل .

ماذا سيكون هذا المريض عند محلِّل آخر ؟ الخيط المتبع في الخطاب يحاذي العديد من الخيوط الأخرى . تدرج المعاني ، انعكاسات المرأة لن تكون نفسها . السؤال نفسه للأطفال : من سأكون لو تزوج أبي امرأة أخرى ؟ عبثية الفكر الذي يدعي تغيير التعابير الأصلية للحياة . تسلسل اللغة المحكية التي تولّد الشكل النفسي ، المنطق الخاص لكل فكر . تحوّل قربان الكائن الحين ، الممثل عقلياً في لغته . أدوّن في محرّك الأشكال التي تتلاقح وتتحرر . أصبح مسؤولاً عن شكل بمستوى الكاتب نفسه وفق بارت ، أو مثل النحات على كتلة الرخام .

كلامي يدون في الحي ويتحول في الآخر . مدهش وغالباً لا يعرف بسولة عندما يكون عائداً إلي مقولباً ثانية من قبل لا شعور آخر ، خاضع للتحويل متحول بالتنافر العميق . كلام متروك للتحويل ، مثل عنصر من ذاتي ، متشكل بشكل يمكن إدراكه من أجل الموجه إليه ، مجعول ربما قابل الفهم بينه وبيني .

دائماً يطفو الغريب في الكثافة الواضحة للكلمات .

* * *

اختفاء ، للسماح لمريضي بالظهور عبر خطابه . عدم التحرك ، عدم الكلام . تركيز الانتباه الذي أحمله على هذا الشخص ، فضولي ربما ، انتظاري و ، كذلك ، تعاطفي وودي . الإفساح للاستيهام : الصمت الحاضر يحرره في المريض . فضاء الكلام سيصبح فضاء الاستيهام .

المادة دائماً أولى . الحركة تسبق دائماً الفكر . اللغة المعاد خلقها على بعد التجربة المعاشة للجسم المتحرك إنه يضع بشكل رموز حياة جسم وتنقلاته بانسجام أو بمعارضة مع الأجسام الأخرى . لذة أو موت . الكلام يمثل ويأوّل كل حقيقة . المعنى دائماً ثانٍ .

فردريك (Frédéric) لا يريد أطفالاً ، خشية أن يحصل على إبن . إنها وسيلة لخصي والده . إنه لن يكون هكذا مجبراً على إعطاء ولده إسم والده . فضلاً عن ذلك ، على الأصح ، إعطائه إسم أمه . سيكون كذلك تجاوز ذرية : ذريته . « هذا قد يأخذ هذا المعنى ، عدم الحصول على طفل . . . » .

ما هي الأسماء التي تعطيها أم لطفل مسخ متحدر من أحشائها ؟ المسخ الذي كل واحد منا يحمله في ذاته يبقى في ملجأ اللاشعور مسيطر عليه بالكبت . سابق كلام مدة كافية لتجاوز الخطر الذي يتحاشاه الصمت . إنتهاك ، تسمية المسخ . خطأ الجسم ، ضلال النفس . الـ « لا » الأولى تماماً الظاهرة تضبط الشهية المخيفة . اللا المستحضر بصمت الكهف التحليلي حتى المعرفة الصعبة للمسخ العائلي المتكوم في

أحشائنا ، المستحضر في التشابهات المتطورة في المرآة التي تقدمها لنا الكلمات .

ليلاً ونهاراً . رجل وامرأة . جيد وسيء . مريض ومحلل . أنا ولا أنا وهم شفهي للثنائي . إنشطار دائم مصور بانفلاق الجنسي . مأزق متكرر للفكر منذ أن يمتلك الكلام : النعم واللا . معارضة تحدث في الواقع التكاملية ، المتتالية ، المحتوى . أخذ في كل . القطع الفاصل دائماً للإهمال أو للتحول . تناقض وحدة الأنا التي تجد نفسها في تعددية الممكنات ، بل كذلك في الغزارة المتطورة التي عليها ينتظم . الجسم الشِقي أو الليبيدي يعطي منفذاً لترميز الأجزاء الموظفة للذات .

نداء المحلل ، نداء للكلام البسيط . حث على التجميع وعلى التجمع . رأي معاكس لثنائية الوضع . إذا ، حسب قول سپربر (Sperber) ، النداءات الجنسية هي المصدر الأول للكلام ؟ إغواء متبادل . أول مصطلح رمزي للتضاد الأساسي . استعارة أصلية . لا تصنع إلا واحداً ، ولكن يبقون متمايزين .

اكتشاف قريباً ، في العلاج ، في الذات وفي الاختلاف . تقريباً إزالة الذاتية : جزء يرصد الآخر الذي يشارك . الأنا تنفسخ على ذاتها لتمثل الأوضاع المحتملة . ويصبح من الضروري له أن يسقط على آخر كل قطعة صغيرة من الذات ، بصعوبة معزولة ، للتعرف عليها ، لتعيين هويتها . ومن الصعوبة إنحدرت الهوية . كلام المحلل يسمي فقط أجزاء الذات المتعرف عليها في الذات ، بحدة مرهونة نحو الاختلاف بين الآخر والذات نفسها .

سحر نارسيس ، بانعكاسه الخاص . الرضا بكونه نفسه . ردم

فجوتي الخاصة : وهم ضروري تنبع منه الرغبة . فعل مؤسس البعد بين اللحم والفكر الذي يضم بطريقة غامضة هذا الجهاز الآخر في الغلاف اللغزي للمكبوت .

قيمة كلمات ، سائلة من الاستحضار الرمزي . إسقاطات ضوء مدرك من الأنا نحو الآخر ، لذة المعرفة . تبادل علامات تضم الإيروس . نشاط رمز للخلق .

على الجزء نفسه اختيار صُفيحة . وترلوتر ، كلام المحلِّل يعيد ربط نسيج الغرائز المكفوفة . لمعان غريزي في عمق الكائن حيث الشخص يختار نفسه مجزءاً بالرغبة ، موحداً بغزارة كلية وهمية . سيطرة رمزية للإكتئاب : مسلمة أحياناً مع حظ بفمي الخاص ، كلمة السر نحو سيرورة موضوعة مجدداً في العمل تحقيق مؤلم للمريض أن المكان الفارغ للأشياء التي تحل محل الكلمات . كلمات المحلل ترمز فيها للحظة الحلم الضائع .

صائغ فكرة ، أقطع منه الشيء المقلل الى صدى صوتي ، ملائم تماماً للشعور بأن فراغاً مردوم . على أثر مريضي في خط سيره الباطني ، أنظر إليه يمهد لمواضيعه المعاد خلقها . حداد متجاوز في كل لحظة بالاستعمال الحر للأجزاء في لعبة الذات المقلقة . تحديد الأنا بغناها الخاص ، المعاش في مكان آخر كما هنا بآخر غير الأنا . هدف لا يحدد ولا يعرف . كل كلمة من جانبي وداع مرتقب . صداه عند مريضي له معنى العودة وإذا فهمت جيداً ، وإذا أجبت جيداً ، أجعله قليلاً لذاته ، متحدراً من فكري الرقيق ، متجاوز آلام التخلي . نقطة

تقذف الخيط على عرضِ النسيج ، وتبعدني قليلاً أكثر .

***

« أنت لست محايدةً » ، أعلنت أوجيني (Eugénie) ، هذا صحيح بشكل غريب ، آتٍ منها هي التي ترفع الكلفة معي طوال كل هذا الوقت . لقد غرفت من ذاتي كلمات ضائعة في عمق الآلام واللذات العميقة . وحولت من أجلها إلى نماذج الجسم البشري الأفاعي ، العناكب ، الضفادع ، والصراصير التي تنضم إليها مساءً ، مهلوسة لياليها ، محايدة ، لا أستطيع أن أكون محايدة . لقد سلكت مع أوجيني الدرب الطويل في الاتجاه المعاكس ، نحو المعاش الطفولي . أنها لا تعرف عمرها ، ولكنها إمرأة منذ وقت طويل . الصور الزاخرة التي تجد فيها بعض العزاء لتسقطها على حيطان غرفتها ، وجدتها في اللحم القديم ومعبرة بالنسبة إليها ، في مغص الرضيع ، في غيظ الأسنان ، في الصداع ، القول قلق وحنون . صوت الأم اليقظة تجعل المصارع الداخلي للآلام الأولى مألوفاً .

أبداً ، حتى معي ، أوجيني لم تجرؤ على أن تسمع بالكلمات صعوبة حياتها . سوء شاسع في العيش . ينبغي أن تجول فيه مع جلدها كمتظاهر بالحب .

أن نضع من جديد في كلمات بسيطة ما يرفضه فكر البالغ من الطفل الذي يتألم أيضاً في نفسه . تسجيل الأثر البطيء للصورة الشفهية المتحدرة من استيهاماتنا . الجسم ليس أسود جداً . النفس ستضيئه . الفكر ، يسيطر عليه . مطمئنة هي الكلمات في حدودها الضيقة

الصوتية والمكتوبة .' إنها تحتوي صدى الكائن الشهواني ، لكنها تبقى على بعد . الكلمات تجعلنا محايدين .

بالقرب مني ، تعلمت أوجيني اللعب معها ، على وضعها في مكان الحيوانات المهلوسة : « هذا كما عندما أرسم » قالت . فنحن ننقل لغز مخاوفها بحل الخيط اللاشعوري والمتين الذي يربطها مجدداً بجسمها الخاص . وربما ، شيئاً فشيئاً ، بمخاوف زوجين بشعين ورافضين ، ومع ذلك سيولّداها .

إنها تبتكر جملاً مؤثرة تبقى طويلاً ، تجمع أمامي ، من أجلي ، كلمات لم أسمع مثلها أبداً ، تقول لي الحياة مثل جحيم كتبي ، جيرم بوش (Jérôme Bosch) المكتبة . كلامه ينزلق في نفسي عند التفاف وجودي . الجنون يبقى في نفسي كذلك ، بدون شك ، في المنبع ؟ حوار مغلوط بين أوجيني وبيني ، حوار طفل لم يولد أبداً جيداً وامرأة مرضع دائمة . مقمطة بكلمات طول قامتها ، أوجيني تستطيع الابتعاد بعض الوقت بدون أن تغرق من جديد في الرعب الذي لا يوصف . تدعيم هذا الخيط في مغزلها الخاص ، يعقد جيداً في الليل غالباً ، عند الهاتف ، لم تملك أوجيني أبداً اليقين الذي لم أكن قد سحبته من عالمها . ضمانة الموت لم ينتزعها بسرعة كبيرة ، من فكرها المولّد ، الغلاف الذي فيه ننطلق أيضاً لكشف بعض الأشكال الشفهية من أجل ذاتي .

* * *

الأصوات والكلمات

الكلمات التي نود سماعها ، الكلمات التي لم تسمع أبداً وتلك التي لن تسمع أبداً وتلك التي لن تسمع بعد الآن . الكلمات التي تذهب أبعد من الفكر ، الكلمات المتعلقة بالعاصفة الغريزية . الكلمات التي لا ينبغي قولها وتلك التي يشعر بالرغبة في قولها ، والكلمات التي تقال بدون أن تسمع تماماً .

كل الكلمات تنضم إلى بعضها ، تتجمع عند الحافة الخيالية للاشعور . وأحياناً تفلت منها .

الجسم الحي ، لا يكون مغلقاً أبداً بشكل مخالف إلا بالانطواء ، وهو خاضع دائماً للتطفل الممكن . الكلام يهين بدون توقف هذه الحدود المفتوحة بمعانٍ مجمعة ثانية . الأذن مخترقة بدون دفاع ، فاصل جسدي تتجمع المعاني فيه ، وبشكل صوتي مستحضرة .

الكلام لا يطاق . المسموع يستحضر الفراغ الداخلي ، اللا ـ محتوى . كلام المحلِّل هجوم . مهما كانت النية . فتشكل بشكل سمعي من الفروع الغريزية . لأن الآخر ممدد ، بدون دفاع ، متخل عن الموقف العمودي العدواني أو الدفاعي ، الذي يسمح بالسيطرة على العدو . مضرَّب على الأريكة بالكلمات ، مثل فراشة ، قال فريدريك لم يعد إلا جثة ذاك الذي عانى العنف . هذه الوضعية المتمددة تلمح الى الموت .

كذلك عند المرأة صاحبة هذا الموت الصغير الذي هو أحياناً التخلي الصعب عن اللذة الجنسية . التخلي عن الدفاعات الآتية مما وراء

الجسم والزمن . وهل كون العلامة المرضية فائضاً ليبيدياً أكثر إطمئناناً ؟ ويتكرر النزاع من الرغبة اللاشعورية الموضوعة في مواجهة تحقيقها المحتمل . بالأحرى هو جثة . استعادة شعور بالثقة . إنه ممدد في كلام لا يجرح .

ذاكرة . « آثار شفهية » . لكن ذاكرة الجسم ؟ إذ يتذكر الجسم مسبقاً الكلمات ، فيما وراء الكلمات ، الذي يلتذ ويتألم بما نسيته الكلمات . الفائق الوصف بيني وبينه ، على هذه الأريكة ، ليوضع في الكلام . الفحوى . القول « إعطاء الانفعال تعبيراً شفهياً »[1] . مع ، الهدف ، التذكر ـ لحدث ، لحركة ، لحادث ـ أو لتجربة معاشة قاسية .

لكن المقاومة ، وقد كان فرويد يلح على هذه اللحظة . سلطة نستنكر الآن الذي لا يطاق فيها . وأكانت حينئذٍ كذلك ؟ كلامي كمحلِّلة مشحون الآن بكل الماضي . الضرورة فرضت علي استعادة المصادر كل يوم ، وفي كل واحد ، إيقاظ المؤثر . إحداث غير المستحق . ثقب السر . إنقطاع الجيب ، والمياه تفيض . دموع أو كلام ، الاتصال بالخارج . إنقطاع واقية الإثارة التي تحمي اللاشعور . قطعاً تجربة إنفعالية مصلحة » (غرينسون Greenson) ولكن تعرية ذكرى الذات .

الصوت المستمر في أذني ، تماثل الصوت ، يحدث في ذاتي تقسيم المؤثر . ولكن متجاوز ، ومقدر بقيمته المرضية . موضوع التحليل .

(1) S. Freud et J. Breuer 1956, et 1981, p. 6

وليس هدفاً لكلامي الإضماري الذي سيلتف تواً حول المكبوت . يحيط به شيئاً فشيئاً بقول منحرف بطريقه الساذج والمعتاد . معرفة ـ الفعل التي تتكلم باتجاه أنانا أكثر تواحداً مع غرائزها الخاصة . الجانب الآخر من الكلام التحليلي .

ألست كلياً في كلامي المؤول ؟ أو مشطور . يذكرني بأناي . من هذه الذكرى ، استمديت صورة ، سلباً عليه تنطبع صورة المريض . النفس والآخر ينضمان إلى بعضهما ، يتواحدان ، يتمايزان . أذكره في نفسي . ذاكرة الخاصة تتشكل مجدداً في نفسي ، من خيوط خفيفة وأحجار مرسومة قبل الكلام الذي يسقط ظلالها في ذاكرتي . إنه يتملك مني القصاصات التي تحيط بخطابي ، قصاصات منه معاد إلصاقها في نفس بذكرى أنني كنت . رؤية عابرة لتماثل لا يظهر إلا ليختفي .

* * *

محلِّلة شابة ، السيدة ن . اكتأبت قرب مريضة عند حد الذهان . وقد قبلت أن تأتي لتحدثني على اكتئابها الخاص حول « الحالة » . ودائماً ، كما كنت أصغي إليها ، هذه الحركة الداخلية ، التي تنحفر أمامي . مثل الصدى ترسل من جانب إلى آخر من الهوة .

السيدة ن . فقدت من أجل مريضتها طاقة إلى الأبد ، تفلت منها ، ثم كذلك تفلت من المريضة ، بدون تحويل آخر إلا كره متحرك وهارب في التحول . لقد جاءت السيدة ن . لتنوح عندي : إنها تشعر أنها فارغة جسماً ونفساً ، ولم تعد تجد في نفسها أي شيء للعطاء لتغذي

علاقة ، ولم تعد تعرف كيف تتصور ذلك . مثل مريضتها : مستحيلة على التصور .

شيئاً فشيئاً بدأت ، أنا نفسي ، أدرك . عبر نفسي شراهة المريضة التي تحدث عنها السيدة ن ، مستحضرة . وهذه الشراهة لا تعنيني . لكن السيدة ن . بدت تنتج منها مجدداً المبادىء تجاهي . وأصبحت الأم ـ مرضعة استبدالية حلمتها السحرية يمكن أن تملأ فمها . فراغ في المعنى ، لحليب من الكلام عذب ونافع ، ربما حينئذٍ أيضاً استطاعت أن تجد لإرضائها الحالي منفـذاً تماثلياً ليس أقل إرضـاء ، لذة إرواء مريضتها بدورها بكلام سحري وخير .

تحمل الغرائز ، إعداد مضاد تحولنا . استبطان العلاقة التحليليـة التي ستصبـح وظيفة شخصيـة . الإسهامـات النظريـة ، الأسـاتـذة المـثـلون ، متحولـون في فكر تـأويـلي . كـل شيء يمضي بصـورنـا المشتركة . اللعبة النرجسية للمريضة بشكل وحشي تثير فينا التبـاس الفتحات : أذن واحدة تصبح فم أخرى . يستقر بين النساء الثلاث اللواتي هن نحن تواصل خاص ، شخصي ، حيث الذي لا يوصف لكل واحدة يكتسب حماية واضحة . الغرائـز المفترسـة تستحضر هذا الانزلاق المقلق للتخريب نحـو الفكر ، المحتـوى الأكثر ثمنـاً لجسم أمومي تحلفسي . إعادة تنـظيم الداخـل الغريـزي . تعلم العيش ، الدفاع عن مـاذا ، إن لم يكن الاستيهام المشـترك ؟ الحب والحسد . الحسد ، الذي يسعى إلى الاستئثار بالموضوع اللامع للمعرفة البالغة للمرأة . معرفة البشري الموضوع في الطية الحميمة ، والمهـدورة في

الخصاء بالقدرة اللبنية . إفراز غامض متحدر من الفم - الشدي التحليلي .

أم قديمة ، أم الارتداد الضروري والمقلق ، رجل أو امرأة ، المحلّل ، مخلوق مجدداً في كل مرة نلتقي فيها ، من جديد يكرر ، الاكتئاب . الموضوع المكروه والمرغوب للرغبة التي لا يمكن التعبير عنها ، هو نفسه والآخر ، زهرة متولدة من النرجسية .

الوضع في كلمات يشير إلى حدود العدم الاستيائي ، تجنبه لأنه محدد . نواة لا يمكن مهاجمتها إلا في الذات قد يستعيدها المحلل . مساعدة التلميذ المحلّل على أن يجد في ذاته المعادل النرجسي . من هذا العنصر العميق للذات، يستخرج الكلام التحليلي ليجابه الاكتئاب . مستند إلى ماذا يرق ويصغر الجسد المفترس . دعامة البصيرة . كلية ما وراء الكلمة حيث يستدل الشخص . عندما الكلام المسموع يخاطر بالذي لا يحتمل .

الداخل يحافظ على لغزه . يولد فيه كلمات ، أيضاً ، قريبة أو بعيدة عن الانبثاق الشعوري . تجربة الذات التي يقوم بها المحلل المتدرج ، عند الغنائم مع شعوذة الحصر . سيطرة وهمية ، وواقع لا يمسك لمجهول الذات في العمل في العلاقة . ميزة البشريين أن يستطيعوا القول في أنفسهم .

الفصل التاسع

أن تكون محللا نفسيا

كيف أستطيع أن أقول أيضاً ماذا لا تكون المرأة ؟

داخل إناء لا يظهر نفسه . الجانبُ المزين ، تقريباً غاوٍ ، ساهٍ عن المحتوى . « الجسم يخلق الفضاء كما الماء يخلق الإناء »[1] ، بشكل ، أصباغ ، خطوط ، جانب الإناء الداخلي هو الركيزة التي تعني فضاء السعة .

إذ يزور المريض المحلِّل ، يقدم المحلِّل مظهراً ، يقيم إطاراً ، يعلن قاعدة . الجانب الخارجي من الإناء الذي هو للحصر ، ففي الداخل يتوجه المريض ، إلى هذا الجزء حيث الصدى يرن ، لهذا الداخلي حيث يضع لينضجوا إن لم يكن ليشفوا ، الأجزاء المتألمة من الذات . حمل تكاملي ، يشترك به الأول والآخر بفكره وبوعيه . ويجعل ممكناً التطور الشخصي بالوظيفة المشيمية للمحلل . موضوع مركّب مثل هذا المحلّل ، الذي تعدد معانيه يتأسس على الأمومي ، في الفضاء الداخلي القابل للتأثر ، جذب قوي ، سير نحو داخلي الآخر بحثاً عن الذات . بقدر تصورات المنفذ المهبلي والاختراق ، السجلي ، اللذين يصوران مسبقاً طلب التحليل .

المدى النفسي ، المتخيل فارغاً ، الذي يضعه المحلل بتصرف مريضه ، قريباً سيكتشف نفسه محتلاً بالغرباء ، قابلاً للتحول الى

---

(1) شهرزاد ـ توفيق الحكيم ، نقلاً عن سامي علي ، Sami-Ali ، 1974 .

رحمة ، ثنائي الجنس ، ومتعدد الأشكال . ولكنه أساساً صبر حامل . أم متحولة ، مضخمة بالتطور الداخلي لما تحمله في ذاتها ، وعاء محدد سيتوجب عليه بكل تأكيد التفريغ . واجب ترك المحلِّل « على بينة منه » هجر المشيمة التحليلية ، الرباط السري ـ القضيبي لهذا الداخل المنتج للذة ، مستلزماً حرية متبادلة ، محوِّل الحصر .

ولكن ماذا يكون منه إذن من الأنا ؟ محلِّلة ، بكل تأكيد ، ولكن ليس أقل امرأة لهذا الحدث ؟ أم أيضاً ، من هذا الحدث فقط في ذاته ، بمادتي نفسها . أكثر من الآخرين فعلاً ؟ قدري كامرأة أيهيئني بعد لهذا الحمل الصبور التحت شفهي الذي يفضل البناء ، الدعم النرجسي للمريض ؟ تهيؤ للأمومة المؤسسة كذلك عند الرجل ، على استيهام الطفل ، على الثنائية الجنسانية المؤسسة للنفس ، والتي يتصرف في عملها المحلِّل . مرتبطة كذلك بالقضيبانية باستخدام الكلام بين هذا الطفل ـ المريض وذاتي نفسها . دائماً كلام الأب . كل شيء مثل المؤثرات العنيفة المرتبطة بالتدخل ، بالاضطهاد ، يمكن أن تكون كذلك موزعة بين الأنثوي والذكوري . ومع ذلك بعض التدرجات النوعية تنتزع نفسها في الانفعال المعانى . الاغتصاب ، المعمم ، التدخل الأكثر إبكاراً يأخذ شكلاً أنثوياً ويحدد الجنس في اختلافه والفوهة المهبلية تعطي شكلاً للأذن الثالثة ، الحساسة ، بصراحة ، بالمظهر الجنسي الأنثوي للتدخل ، إلى هذا المظهر للفم المفتوح بيأس بالحاجة النرجسية ثم بالرغبة الجنسية . فوهة فاغرة لكل أشكال عنف الأهل مثل الأذن عند الكلام المخرِّب ، التأويل المتوحش الاغتصاب الشفهي . صور الرعب مثل صور الكلام الموضوعة بتصرف القدرة الكلية الأمومية .

إمرأة محللة ، أجد نفسي في هذه الحالة مواجهة بالانفعالات القديمة السيئة التكامل لمرضاي ، بدون شك أكثر مباشرة من رجل . وأيضاً مع التراجع الضروري . فمعرفة هذه السيرورات التي هي الأكثر إبكاراً ، كما أظهر ذلك محللو المدرسة الكلينية (Kleinienne) ، تحثني على البعد التحليلي . إن إستيهامات الدمج المتبادل ملازمة للأنوثة . والمادة الأنثوية مشكّلة لكي تكون مدموجة من قبل الرضيع في الرضاعة ولتدمج العضو الذكوري في الفعل الجنسي .

إن جميع تصورات اللذة والعنف ، الخلق والإبادة ، تسيل من هذه الحقيقة الأولى . المرأة ، بشكل جوهري ، قابلة للاختراق . إنجاب وتدمير ، بشكل حميمي ، مرتبطان بالاستيهامية الأنثوية وينبغي ، ببطء ، في العلاج ، التمايز من الجنسانية الصارمة لتصبح لذة وانزعاجاً يمكن احتمالهما . ببطء ، بصبر ، بدون قسر ممكن ، مثل حمل مغذى جيداً ، والذي مخاطر إجهاضه معدة بلا تعب لحفظ الطفل حياً ، والغلاف السجلي المقدم للمريض المنتكس ليس للمرأة المحللة إلا طريقة مبتذلة للوجود . فهي تضع بكل بساطة بتصرف المحلل الفضاء النفسي الطبيعي التي تأسست منه ، مغلف عفوي ، « طبيعي » بالمعنى الفرويدي . غلاف يحمي ويغذي ، يجدد ويعطي شكلاً . غلاف به تحقق هويتها بشكل مزدوج مثل طفل ومثل امرأة . غلاف يتسامى به اعداد المحلل ومفكر به مجدداً في وظيفة المحلل .

وبنوع خاص ، إن الجوهر الداخلي للمرأة التي تسيل منه ، ربما ، حساسيتها النرجسية وحاجتها للحب (في رثاية ب . غرونبرجر

B.Grünberger)[1] يبدو لي قادراً على توفير مكان عمل للمريض طبيعي تماماً بأخطائه النرجسية ، بالثغرات الأكثر جوهرية ، بإشكالية الانفصال والحركات الاكتئابية ، بإعادة التوظيفات الضرورية . ليس أن هذه الحالة الأنثوية لا تستطيع الوجود عند الرجل . لكن ـ عند الرجل المحلل ، بفضل اتساع قدراته التواحدية يستطيع وضع نفسه في إتصال مع الأجزاء الأنثوية لجنسانيته . الكل مثل عدد كبير من النساء المحللات قابلات لاستعادة تواحداتهن القضيبية والأبوية في بعض السيرورات ضد ـ التحولية .

تحويل

فضاء ممتاز يرجع المريض فيه إلى الاستقرار ، الإدراك من جديد ، للخروج منه بالغاً . خواء جاهز ، متأمل خصب « فكر فارغ » وفق كانط . فضاء قبلي . فئة أولية . شيء في ذاته خفي ليس بالحدس ، المدرك الأول ، التجربة المعاشة كما وضعها بيون (Bion) في مكان أصلي للفكر . فيلم سيثبت فيه الفصّال صوره . ثدي ينتظر الطفل كما أن الطفل مستعد لاستلام الثدي . جهاز للإدراك يتصرف المحلّل بفضاء أنثوي ميال إلى الأمومة . فضاء أحلام وأوهام يتجذر فيه المريض لكي يظهر نفسه باللغة . كلام مصبوب في الوعاء الصامت للنطاق التحليلي .

المحلل ، حيادي ؟ كلا . فهو دائماً مكدر بالرغبات اللاشعورية . مدخِل المريض الى حدوده الملحة ، إلى إلزاماته ، إلى تنظيمه المعد

(1) في الجنسانية الأنثوية La sexualité féminine . مرجع سابق .

مسبقاً ، إلى تصوره المسبق ضد ـ التحولي . ومـع ذلك فـإنه قـابل باختراق فضائه من قبل كل الشيء / المريض الذي يقبع غير واثق على الأريكة المعروضة عليه ، مثل الجنين على الجانب الداخلي الرحمي . مستعد للعيش من التبادل التكافلي .

فضاء سبق تغطيته بذكريات المعانى الحواسي ، المعاد تشكيله بفضل اليقظة التحليلية . في هذا الوضع ، لا يتوجب على الخواء الأنثـوي إيجاد عائق للحالة المحلِّلة . ويمكن الافـتراض أن النموذج الأمـومي للعمل المحلل مستعاد على يد بيون بعد فرنزي (Ferenczi) ، ينطلق من الـذات عند المـرأة المحلِّلة . وأنـا أعي جيـداً أن هـذا التصـور الطوبولوجي يفترض نقلاً للتصورات التركيبية الخيالية إلى تصـورات الجهاز النفسي أو جهاز التفكير . وليس أقل صحة أن المعانى الفمي البدئي ينتقل عند المرأة ، بدون التفاف خارجي ، إلى المعانى الجنسي باستبطان العلاقة الإسقاطية على الثدي . هذه السيروره تبدو لي أنها يجب أن تسهل التواحدات ، في الآن نفسه ، بالمحتوى الأمومي المنتج وبـالشيء الذي يحتـويه . فـالإيجابيـة الضرورية للتـدريب على هـذه السيرورة يدمج قسراً الكفاءة الأنثوية بلذة الإيلاج . والمـرأة هي في الآن نفسه عنصرا النموذج الحـاوي والمحتوى . إذن يمكن تخيـل أن وضع التحليل و بالنسبة إليه وبشكل عفوي ، مكتسب عندما يسمح له تحليله الخاص بالإعداد الضروري للعديد من أشكال العلاقة المطلوبة من قبل هذا الوضع . وبشكل خاص عندما المركبات الاضطهادية لهذه العلاقة يمكنها أن تكون ظاهرة ، كم هو شاق هذا العمل ، من جراء أن يقود الى الانعطاف الجوهري للاكتئاب .

مكان تحول إذن ، الفضاء الأنثوي يـتركز من هـذا المكان نفسـه

كمكان تغير وتحول . عمل متراص للرجل الذي يقدم نفسه على الأصح في الظاهرة النعوظية للجسم ، للجنس ، للفكر ، مثل المخلوق الأول . وبالمقابل ، قدم المرأة نفسها كحاوٍ محوِّل في علاقة ثنائية . ونموذج الدمج يجري مباشرة من ولادة الفتاة إلى ولادة أطفالها ، إنتهاء تحولات الأشياء المدموجة بالظواهر الأساسية للأنوثة . فالأمومة متعايشة النفسانية الجنسانية الأنثوية ، التي تؤدي هذه الأخيرة إليها أو لا لولادة الطفل[1] . إذن تحويل الموضوع هو مفهوم أنثوي بشكل نوعي . من هنا الخوف المرفوع من قبل مشاعر التغيير . فضاء يتجسد فيه الحلم ، المرعوب هو نفسه من قبل عصيانه على الشعور . وكل تحقيق غريزي يفترض تحولات ، بلوغ وإدخال الشيء من قبل أجزاء مسقطة من الأنا ستعاني تغيرات خلال مرورها ، أو من صدمها هذا الشيء . والنموذج الجنسي للإيلاج في الداخل الأنثوي محتو في العلاقات الأولى فم ـ حلمة . وإذا كان مصدر مخاوف عند الفتاة كما عند الصبي على يد تصور منفذ ممكن للداخل الأمومي واستيهامات التخريب التي يقترحها ، فإنه موظف أيضاً من قبل الفتاة كمصدر للذة ، حتى وإن كان على اللذة التسامي بالواقع .

رغم تأكيد بيون الذي بحسبه « التطور أو التقدم العقلي هو كارثي وخارج الزمن »[2] ، أتجرأ على التفكير بأنه إذا كانت التغيرات الفيزيولوجية عند الفتاة يمكنها فعلاً أن تكون معتبرة ككوارثية (بالمعنى الذي فهمه ر . توم R. Thom) ، فإنها مع ذلك مرتبطة بدقة بالزمن

---

(1) J. Chasseguet-Smirgel . 1988 .

(2) W.R. Bion ، 1974 ، ص 183 .

بمعنى المهلة والإرجاء ، كما كتبته ج . شاسغنيه ـ سميرجل . فالفتـاة خاضعة لتغيراتها الخاصة ، لتبدلاتها ، أنـواع من الكوارث في تـوجه تصورات الذات . وتبـدلات البلوغ : إندفـاع النهدين ، الحيض ، تعاني كوصول لهذا الارجاء للأنوثة ، الحاضر خلال كل مرحلة الكمون ومنذ الطفولة الأولى ، ولكن أيضاً كتقدم خطر وغامض نحو الوصول الممكن للانتهاك الزاني بالمحارم . ربما التمييز بين الجنسانية الأنثـوية والحمل الأمومي يترجم الممنوع بطريقة صريحة . والوظيفتان هما بعمق مختلفتان : إختلاف من مبدأ اللذة إلى مبدأ الحقيقة . والأنا العليا تسم بقوة كبيرة ، في تدرجاتها السلبية كما بالإيجـابية ، بلوغ الفتـاة ، أنها أصل العديد من الصعوبات المتعلقة بالفكر العقلي بكف الرغبات نحو القضيب وبالعدول عن قضيبانية التواحدات الأبوية .

المرأة ، المسلمة للتغيير ، هي كذلك على يد الرجل : فض البكارة حمـل ، ولادة . دمج ، إستبـطان تحدد مبـاشرة تصـورات جهـازهـا النفسي . وتصبح حينئذٍ المكان الذي فيه يتطور الأبوي بشكل حمل ، تحقيق ، خلق ، والأمومة هي بالنسبة إليها تحويـل جزء غـامض من الذات إلى شيء غير معروف . ويظهر في الطفل اللاشعور الأنثوي : الـرغبة صـارت حقيقة ملمـوسة ، المجهـول من الذات مـوضوع في الخارج ، متحرك ، موضوعي .

هذا الوضع خاص ، يدرك بسهولة ، لرفع النفي عند الـرجل ، للبدء بفرويد . مرعبة بالنسبة إليه هذه الرغبة التي تغوص في الأكثر حميمية من الذات في مكان مرغوب تختفي فيه . واستيهاماتهـا الأكثر تواتراً ، التي ترتبط بظاهرة الجماع ، هي استيهـامات تفـريغ الـذات

(بث منوي) ، إستيهامات الإلتهام من قبل المهبل والتحول السحري للقضيب . وليس الطفل نتيجة البذار ، ولكن على الأصح نتيجة القضيب المحبوس والمتحول من قبل البطن الساحر . وتجر هذه الاستيهامية على وجه الإحتمال إلى إنكار اللذة الجنسية ، مصدر الخصاء المرعب .

المرأة ، المتحولة ، هي كذلك في سن اليأس ، مخصية في قدرتها على الإنجاب ، في تصورها المغوي . تغير ضروري وقاسٍ لا يرحم ، إنها تحاول عبثاً أن « تصلح سنوات الإهانة التي يتعذر إصلاحها »(1) . والتراجع يميزها بحيوية عن الرجل في هذه المرحلة من حياتها ، وهذه الظاهرة الجديدة للتحويل هي مصدر جديد للتواحد السلبي مع الرجل إلى الخصاء الأنثوي ، نوع من الانتهاء إلى التنازلات النرجسية المطلوبة من قبل تشكل التحليل .

وبالرغم من المخاوف المثارة من قبل استيهامات الحصر في Claustrum الأمومي ، يتوجب على المرأة المحلِّلة أن تحرر بشكل عفوي في ذاتها سيرورة الانفصال عن مرضاها ، مهيئة كما هي لوظيفة التوليد ، الانفصال الجسدي عن الشيء الذي تحتويه وحتى النضج . ويمكن ، على كل حال ، تصور أن الانفصال ، معد بشكل ضروري لإكمال علاج ، يجب أن يكون على طريقة الانفصال الأول للولادة بقدر ما يكون على طريقة التخلي عن الامتلاك الأوديبي ولا يستطيع هذا التطور الحدوث إلا إذا وضع المحلل بتصرف مريضه قدرة كافية للانفصال الأمومي .

---

(1) Racine Le songe d'Athalie

وبين مظاهر إنبات الحاوي الأنثوي ـ الأمومي يظهر تحول آخر : تحول ، أساسي للمسيرة التحليلية ، التأويل ، متحدر من انتباه حدوده هي حدود شخصية المحلل ، محددة بدقة وممتدة بتكونها ، صياغة التأويل هي : وفق بيون « خلفية تجارب المعاش الحواسي » ؛ ووفق وينيكوت ، تجارب « الكفاءة الأمومية » . ولكنها أيضاً بالنسبة لبيون « تحويل » . تحويل تحديدي للحرية ، يجب أن يجر تبدلات أخرى بواسطة جسر اللاشعور تجاه مبدأ الواقع الحاضر على يد حدود الفضاء الأمومي التحليلي . والوظيفة α للمحلل محددة بالعناصر β التي يصعب هضمها ، وربما ذات دلالة بواسطة تصورات التحطيم والتخريب ، الاحتفاظ والرمي ، مرتبطة بالتجربة المهبلية ومنتجة مجدداً في أحداث السنة الأولى من الحياة . والمحللة بصفتها أما لا تستطيع أن تكون كاملة . وعلى كل حال ، تبقى مكان اللوم الأساسي المدرك كخطأ ، مثل الشيء الضائع بشكل حتمي ، وأبداً لم يستعد حقاً من قبل الأنا ، مكان جوهري لأفكار الحياة والموت ، تغير نهائي غامض مثل التدريب الحيوي .

من وجهة نظر تصورات الإلحاحات النفسية ، فإن محيط المحلِّل يرتكز عند المرأة ـ المحلِّلة على نموذج الغلاف المزدوج . فالغلاف ـ اللذة ، مستثمر بفضل تكامل المعاني المهبلي ورغبات الإيلاج ، غلاف بشكل صارم للإنثاوية الجنسية ، ملونة بشكل أساسي من قبل ليبيدو الأنا ، مكملة ومغطاة بالغلاف ـ الواقع ، غطاء الأنا العليا الأمومية التي تحفظ وتحدد انتهاء اللذة بتحقيق الخصوبة ، والحمل والتوليد .

هذا الغلاف ـ الواقع يعمل عند المحلِّلة ـ المرأة كإثارة مسبقة ضد

رغبات الزنى بالمحارم نحو المريض وأيضاً ضد الرغبات اللاشعورية ـ بالتخريب المفترس . وهذا ربما أحد عوامل الذي أهميته في العـلاقة المحلِّلة ـ المرأة بمريضها ينقل ندرة الانتهاكات الجنسية عند المحلّلات ـ النساء وهي أكبر منها عند زملائهن الذكور . إنه أيضاً دمج الكفاءات الطبيعية بأحلام اليقظة الأمومية ، كما وصفها بيون ، أو أيضاً بالإنتباه الدائم الذي نادى به فرويد . مع خطر ، عند المرأة ـ المحلّلة أو ، أو بشكل أكثر يسراً في العمل الأنثوي لكل محلِّلة ، أن لا تطلق الدفاعات القضيبية توظيفاً عالياً للكلام أو للهدف التأويلي على حساب الهدف الإنشائي .

والمرأة ـ المحلِّلة مواجهة ، مثل كل امرأة ، بمشاعر الخصاء ، بنتائج النفوذ الأمومي واستيهامات الاضطهاد الـداخلي المشـترك ، ألا تملك بالقرب من مريضها مـوقفاً خـاصاً بهـا ؟ إنها تعرف السـير الداخـلي الطويل ، نحـو اللذة والسير الـطويل للحمـل نحو التـوليد . هـذه الحقيقة ، تعرف غالباً أكثر قرباً من الحلم أو من السراب الذي لا يبلغ أبداً . فالقدرة على اللذة ومعرفة اللذة هما بالنسبة إليها هدف دائم . والأحلام الأمومية تدعم تقاسم اللذة مع الطفل ـ المريض يتم وتحمي عنده التحققات المتحدرة من هذه القدرة .

ففي تصرف النفس هـذه التي اكتشف فـرويـد في الحلم ميـزتهـا الإكـمالية للرغبـة . الحلم يحمي النـوم ، والقـدرة عـلى اللذة تحمي الحياة . والأنثوي ـ الأمومي للمحللة يحترم ويحمي من وحشية المحللة أحلام الإرضاء والتحقيقات الغراميـة أو المهنية مثـلاً ، نتيجة عمـل الدعم النرجسي لشخص المريض ، والغلاف المغذي الأمومي يكسب

بتطور الحالة إلى اللذة ، مثلما انتزاع جسم الطفل يسمح بإثارتها الخاصة للجنس . فتحليل وقائع الحرمان لا تحتمل إلا إذا بذلت على القواعد النرجسية المعدة بقوة في الحضن الأمومي .

وفي هذا المعنى ، إن التأويل ، الذي يفسح مكاناً دائماً لمبدأ الواقع بقلب عـوائق الكبت بموضـع المريض في التثليث والرثايـة القضيبية الأبوية . فالكلام ، حتى غـير المفهوم ، يخلق الاختـلاف بين الحلم والواقع من قبل إدراك الاختراق الحواسي الذي يصبح علامة ، بقدر ما يستطيع الجهاز النفسي تمييزه من الهلوسة . فالكلام التأويلي للمحلّلة ـ المرأة يحمل ربما أثر أنوثتها ، بالمعنى الذي يكـون فيه هـدف المحلل بشكل حتمي عندها مؤسساً على معنى الحياة الذي تعطيه وتحميه ، حتى لو كان البعد الرمزي للمعنى يفصل الفكر عن الحشوي .

التأويل ليس بالتأكيد حرمان فقط ومحافظة في الحرمان . فالفعـل المدمّر للتأويل ، العنف الذي تنسبه اليه بحق كبير بيارا أولانيه (Piera Aulangier) ، يمكن أن يجد مصدراً في العمق الاضطهادي الأمومي ، الموقظ من قبل التواحدات الانكفائية اللاشعورية للمحلل الى الموضوع ـ الطفل ، الملتهم أو الزاني بمحارم . والتأويل هو أيضاً ترتيب التوازن بـين الأشياء الـداخلية وتنـظيم ديناميتهـا ، توفيق مبـدأ اللذة ومبدأ الواقع . إنه ترك الطفل ـ المريض يكتشف رغبته الخـاصة ، تـأليف بأنغامه الخاصة بمنحه النغمة .

أنطوان

منذ عدة سنوات ، إكتأب انـطوان ببطء ، هرب من الصحبـة ، أضاع ثقته بنفسه ، فشل في امتحاناتـه ، إنطوى عـلى نفسه بشكـل

خطر . فمنذ عدة سنوات يتألم من انزعاج عدم قدرته على تصور موت أمه . وقد جاء لرؤيتي بعد قليل من تجربة الغرابة هذه ،لأسباب أخرى أكثر ظهوراً من حبه الشديد لهذه الأم التي اختفت . وكان عمره حينئذٍ ست عشرة سنة وكان يعبر عن نفسه ببخل وبطريقة سيئة . وقد وجدت فعلاً صعوبة بالتصور أنه الآن في العشرين من العمر . لقد « شكلته » كثيراً ، ولكنه لم يكبر ، برغم قامته الجسدية .

إنه ينزلق تحت التأويل مثلما تنزلق سمك الترويت نحو مخبئها عندما تلامسها اليد ، ومن ثم ، حلم ذات ليلة : « كنت مع أمي وكل العائلة . لم نتحدث في شيء ، وتساءلت كيف يمكن العمل كأن شيئا لم يمض . ولكني كنت سعيداً جداً » . ثم بعد بضعة أيام : « كانت كعائلة ضخمة : من جهة الفتيات وأمي ، من الجهة الأخرى الصبيان وأبي وتكلم بعضهم مع بعض ، لم أكن أشعر بالوحدة مع الآخرين ، كما أشعر عادة » . ثم ، بعد ذلك بقليل : «جانين (الصديقة الصغيرة التي تركها منذ وقت قليل) كانت معي ونستطيع التكلم بهدوء ، وبمودة » . الهدوء . تأسفات ، بكل تأكيد ، لكن العنف المرتد ضد ذاته ، الثورة الممزقة تبدو مهدّأة . الأم فيه تتشكل مجدداً ، عندما فجأة قال انطوان : « أنام جيداً الآن ، ولم تعد كوابيس ، ماذا تعتقدين ؟ » . كنت أفكر كثيرا بكل قلبي ، وقلت ببساطة : « هذا جيد جداً » . خاصة بعدم لمس علامات السعادة الممكنة .

اكتئاب

في العمل الضروري بعلاجات النساء يظهر شكل من الاكتئاب يبدو لي أنه مرتبط بصفات عاطفية أنثوي بشكل خاص . وأكثر دقة ،

بـالنرجسيـة الأنثويـة المـوصـوفـة من قبـل ب . غـرونـبرجـر[1] B. Grünberger ، عندما شدَّد على هشاشة هـذه النرجسيـة وروابطهـا بالحاجة التي لدى المرأة للشعور بأنها محبوبة للحفاظ على هويتها . وتبدو هذه الحركات العاطفية متمايزة عند الفتـاة قبل البلوغ بكثـير ، وهي مرحلة حدد فرويد فيها تعزيز النرجسية الأصلية الأنثوية[2] .

غرونبرجر ألح على أهمية الحرمان الخاص بالمراحل ما قبل الجنسية ، المرتبط باستحالة الإرضاء الجنسي الكامل .

إن الانتهاء غير الملائم للسعي الغريزي هو سبب عدم الرضا هذا . فالعلاقة الجنسية للفتاة بأمها ، موضوع جنسي أول ، هو إذن مؤسس على وميض والتواحدات الأولى لهذه الموضوع ـ الوميض هي على وجه الاحتمال في علاقة مع عدم الرضا لانتهاء الإثارات المحدثة بالعنايات الأمومية .

إننا نستعيد هنا مسألـة الاستثمار الهستيري للغلاف الجسـدي[3] والدلالات التي سيأخذها الحب بصفته علامة على الأهمية المرتبطة بهذا الغلاف . وتحدد هذه السيرورة عند المرأة الحاجة إلى الحنان والملاطفة أكثر من حاجة العلاقة الجنسية التحديدية ، كما يوجد عند الرجل . فالحاوي الأنثوي يبدو مستثمراً منذ اللحظات الأولى للحياة عبر عنايات جسدية ، كتواحد بالثدي الشكلي ، « موضوع جمالي » في غاية الجودة كما يبدو لي ، حتى لو بدِّلت وحددت هكذا رثايات ملتزر (Meltzer) .

---

(1) B. Grunberger ، 1964 .

(2) Freud S. ، 1914 .

(3) A. Anzieu ، 1987 .

إنه المكان الذي تثابر فيه زيادة الإثارة التي تجعل غير كاف جواب موضوع اللذة وتؤدي الى كبت أولي صعب . فحركات الانفصال التي تجابه تواحدات المواضيع الجزئية ، تحدث الإنقاص الدفاعي لهذه الأخيرة كما لو أنه من أجل تصحيح الخسارة ولتقليل الألم الذي تسببه . وتقوي هذه الحركات المعارضة بشكل مؤلم الكبت الذي يخصها . وتوجد فيه الآثار في الميول الى الانقطاع والعبور الى الفعل الفاعل من قبل اليأس المكتئب . وهي تزيد خلال مجرى الحياة ، بعمل الكبت الثانوي ، كما لاحظ ذلك G.Rosolato[1] : « لأنه [الكبت] يرجع إلى رغبة مرتبطة بصدمة جنسية بالمعنى العريض [. . .] في مزيج من اللذة ، الممنوع ، والمجهول » .

وتبدو لي هذه الصدمة الجنسية قادرة على أن تكون مفهومة أيضاً مثل الصدمة الشاملة لعدم الرضا عن الانتهاء الغريزي الذي تقدم للهستيري نتيجة الجنسنة العالية لعنايات الأمومية وبدون شك للرضاعة . وقد تخيل كارل إبراهام (Karl Abraham) الاستثمار العالي للامتصاص كمصدر للاستثمار الشبقي للجنس الأنثوي .

إن الشكل المأخوذ بالاكتئاب المتتابع الى صعوبة الدعم النرجسي يظهر في العيادة مع الميزات التالية : الأنا تتوصل إلى استثمار وتتابع استثمار الموضوع الليبيدي لكنها لا تتوصل إلى أن تستثمر نفسها بشكل كاف بنفسها وبالليبيدو لكي تستطيع الغريزة إطلاق سيرورة النفاذ إلى الموضوع المرغوب . كأنه كان يظهر بشكل خطأ أساسي ذات غائبة ، أو ربما أيضاً ما وصفه فرويد كحصر ناتج بلا حضور الموضوع الداخلي .

(1) G. Rosolato ، 1988 .

ويبدو أن ، في هذه الحالة ، الأنا تحفظ ليبيدو موضوعها ولكن مجرداً من ليبيدها الخاص ، من السفح النرجسي لليبيدو . اقتصاده ونشاطه مشوشان . وحينئذٍ يتألم الشخص من المشاعر الشديدة للإنتقاص ، لعدم القدرة ، للتخلي الرباني ، لنقص الحيوية ولعدم الرضا عن الذات ، كل ذلك مع الوعي أن هذه المشاعر تختبىء في طياتها العميقة حصراً وجودياً ، معاني في العلاقة مع عائلته الخاصة ومع عرضية الصورة الأمومية المستبطنة .

وبينما يمكن حدوث تواحدات قضيبية إيجابية بالصورة الأبوية ، أو سابقاً ، بالقضيب الأمومي الكلي القدرة ، تتم حماية العمل الفكري ، حتى لو كان باستطاعتها أن تكون مستخدمة فضلاً عن ذلك كمضاد - تواحد للمرأة بالأب . ويوجد أثر هذه التواحدات في القدرة الذاكرية الحادة لبعض الأشخاص ، والمركّبة الشفهية الداخلة في هذا العامل كمكان إستثمار للكلام وللتسمية من قبل الأب ويمكن التأكد حينئذٍ ، مثلاً ، أن الشخص المكتئب يملأ شحناته الوظيفية بحمية ، وفي كل حال يظهر يسرٌ ، ولكن لا ينتزع منه إلا إرضاءات لا تكفي لتأكيده من هويته . ويشعر أنه عرضة لأقل نزاع سيعمل على تزحلق توازنه الهش الجزئي نحو مشاعر الوحدة التي يعانيها منذ أن يترك المحيط المهني .

وترتكز المعاناة الأنثوية لهذه الحالة على عاقبة التواحدات بالموضوع الشرجي الأمومي ، موضوع الإبعاد والتخلي الرباني المنتقص بشكل نهائي . وهي محددة بالمحافظة في اللاشعور على التباس بين الفتحات الشرجية والرحمية والمهبلية . والصعوبة هي في الحفاظ خارج هذا الالتباس على موضوع الإنتاج الأمومي باستثمار الميزات القضيبية

المرتبطة بتصورات حيوية الحاوي . ويمكن كذلك فهم هذه الحالة كما وصفها ب . غرونبرجر مثل « عكس الحاوي والمحتوى»، عدم استثمار الغلاف ـ الموضوع لمصلحة الموضوع المحتوى . والكره تجاه المحتويات الأمومية والجسد الذي تثيره قوية بشكل كاف لتؤدي الى شعور بالحصر أو بالاختناق الكارثي للكائن ـ المرأة بسبب القولبة المعاناة من قبل الحاوي الأمومي .

وضد الحالة الكوارثية يمكن لاستثمار عال للفكر العقلي المستخدم كموضوع ـ محتوى ممثلن ، الظهور كنسق دفاع ضد الحصر المكتئب . دفاع وسواسي ضد استحالة استثمار الذات المجوفة الأنثوية المتمثلة بفضاء فارغ ، حاوٍ بدون مادة . وحينئذٍ يكون الفكر مقطوعاً عن التجربة المعاشة والتصورات الجسدية التي تفيد في النقض . فالوظائف « العليا » (للرأس) مفسوخة وممثلنة ، ومتمثلة في القضيب الفحولي للأم ، ومقدمة غالباً من قبل الوظائف الأبوية . وهذه الحركة للدفاع الوسواسي ضد الاكتئاب ملحوظة عند الكثير من النساء المسمات « مثقفات » . وعند اللواتي ، لأسباب داخلية أو مرتبطة بالبيئة ، لم يملكن هذه الإمكانية وتبقى وساوس التنظيف ، الهرب الخوافي والمميزات الطقوسية .

وتظهر هذه الحركة الدفاعية ، بالمقابل ، طبيعية جداً عند الرجل . ففكره مستثمر قضيبياً ، بوحدة الجوهر ومكان الطفل في منافستها للإنتاجات الأبوية وفي تواحداتها بامتلاء الفضاء الأمومي ، الذي يتضمن القضيب الفحولي الأبوي . وفي حالة العمل السيء لهذه السيرورة ، دفاع الرجل ضد تواحدته الأنثوية المرتبطة بالفراغ

والالتهام ، وضد رعب المحتويات الأمومية ، ينتج انتقاصاً ، وحتى إبطالاً للقضيبانية الجسدية ، ولوظيفة الذكورية النعوظية . وتبقى الوظيفة الملقحة ملتبسة مع الوظيفة الشرجية ، وحتى الحيضية . فالاستيهامي يصف كل نتاج جسدي أو غائطي كعلامة على الخصاء الداخلي ، إلى درجة كف النتاجات الفكرية . والفكر الفوق استثماري يصبح علامة قوة قضيبية مضطهدة . والانفساخ جسم / فكر موجه الى المحافظة على الذات المميزة عن المادة المرمية في النطاق الوحيد الذي يسمح بمثلنة الوظائف المرتبطة باللغة .

وتستطيع الأم كذلك اللجوء إلى هذه الطريقة الدفاعية ضد الاكتئاب النرجسي عندما تواحداتها بالقضيب الفحولي الأبوي المتضمن في الأم تكون قادرة بشكل كافٍ . ولكنها تبقى متألمة من لا ـ استثمار خوائها الوعائي ، أنوثتها المعاد ربطه بشكل سيء بقدرتها على التفكير وحينئذٍ لا تستطيع الفوهة الأنثوية العمل إلا في اتجاه التفريغ ، لابعاد مادة الطرح هذه التي هي نفسها . ولا يكفي أن يأخذ هذا الشيء شكل فكر بارع . فهذا قد يبقى مختلفاً بسبب العلاقة النرجسية للمرأة بالمتعة الجنسية وبالعلاقة الغرافية . والمرأة ، إذ تتحرر من هذا العائق ، تستطيع تركيز فكرها على الغنى الداخلي النشيط وعلى محتواى الحي .

مونيك (Monique) امرأة شابة صغيرة السن سمح لها التحليل حتى الآن الاحتفاظ بقدراتها بالفعالية الاجتماعية العقلية . وبجهد كبير ، بكل تأكيد ، من جانبها ومن جانبي . وللتوصل إلى تحويلها ، توجب علينا أولاً حماية بعد الدفاعات الطفولية المراضية ، مثل العنف

والشراهة ، ضد تدميرية التواحدات بصورة حاوي « غرفة المهملات » ، المستبطن تحت سيادة أم مريضة . وهذه الدفاعات ظلت بشكل شراهة للمعارف العقلية ، لتضخم الغريزة المعرفة القضيبية ، شراهة تحدد عند مونيك قدرة مفاجئة على تخزين المعارف المذكورة . وتوجب علي الاشتراك بكل قواي للحفظ والتقوية الموقتة أيضاً لغلاف مغذٍ أولاً ، أنثوي قليلاً ، وبشكل كافٍ مطمئن لكي يكون هذا الشكل من تسامي الشراهة قادراً على أن يكون محفوظاً . ولكن مونيك ساعدتني كثيراً في ذلك : إرادة العيش تحالف ثمين بيننا .

وحالياً ، تمارس بصبر المهنة التي كانت تحلم بها . لقد نجحت فيها بشكل جيد جداً . لكننا أدركنا شيئاً فشيئاً ، أنا وهي ، ثغرات الذات المفتوحة بهشاشة بواسطة هذا النجاح . واكتأبت مونيك حقاً . إنها لا تستطيع استعادة تقرب أصدقائها ، فهي تشعر أنها سطحية ، قابلة للإثارة بسهولة ، مجروحة بأقل نقد . وخائبة لعدم القدرة على اجتذاب رجل ، خائفة من أن تجد فيها تشابهاً أبوياً ، ومحتارة فيما يتعلق بما تنتظره منه . إنها تخشى من الغوص مجدداً في عنقها الملتهم وحلمها خاصة في تكون مأخوذة في الذراعين المطمئنين . وها نحن فعلاً في التحويل النرجسي وجعلت مونيك منه بقربي بحثاً عن حضور دائم ، لكنه يغلفها بالصمت . إنها لم تفهم ، ولم تندهش فيه ، من تأويلاتي الأكثر تحفظاً ، أو الرفوضات بعنف . الأمر الوحيد القابل للتحمل هو الحضور الحاضن لذاتها الأنثوية الجنينية ، في هذا الصمت الغامض والمدوّي بالمؤثرات حيث تعمل بكل قواها لأن تكون . لتكون هذا التجويف الأنثوي الصامت ، الذي يستطيع استقبال شيء آخر غير

الكلمات ، خليج أكثر منه ثغرة ، حيث ستستطيع ربما المجيء لغمس شيء ما ستدعوه : حباً .

المحلل وروحه

إن كل ما يخترقه من الانفعالات بدون اللجوء ، بدون العودة ، من صعوبات ومن دموع ، من الأحسدة ومن الاندفاعات . إنه مسجون في ذاته . ضمائر الحياة ونفاياتها مسورة فيه ، مذخرة من الآخر . الاضطرابات مخبأة في وعاء حضوره ، وسيكونون مقلقين . لكن جسده منفوخ بهذه المحتويات الضاغطة ، جسمه يصبح أحياناً مؤلماً ، معذباً من قبل هذه الأجسام الغريبة المدخلة الى روحه .

في حين أن الأطباء يفتحون الجسم ، ينظرون ، يقلبون ، يقطعون ويسحقون ، لا يجدون هناك إلا كتلة من الأعضاء الدامية النتنة . نفخة الحياة هي بالنسبة إليهم غير محسوسة . الروح تفلت منهم . وهي ملتصقة بكل جزء من اللحم والحشا ، تتألم معهما ، لا يمكن إمساكها ، تحبط العلم . ولا يظهر الذي لا يعبر عنه من الحياة في بطن مفتوح . والطبيب ، المبلبل ، أمام محتوى غلاف بشري : يعتقد أنه يجد فيه الروح ، وهي دائماً في موضوع آخر .

أيها المحلل ، ماذا تفعل بروحك ، المجتاحة من قبل عذابات الآخرين ؟ روحك ـ الأم لا تضع إلا جنين الحياة . أتخسر حياتك الخاصة في هذا التعذيب من قبل المعاني ، المتماثل ؟ أو تغذي ببساطة من مشيمتك الكريمة والشحيحة ذاك الذي ستتركه أكثر غنى بالحياة ؟ أو أيضاً تغذي حياتك ، مثل مصاص دماء ، من هذه الحياة التي تنصبّ

في أذنك . إلى أي ربح تحفظ هذا الكلام الدامي ؟ كلام أعماق الكره ، الرغبة غير المشبعة والعنيفة ، الانسحاق ، الاختناق في جحيم ثدي أمومي لا يمكن السكن فيه . « الجحيم حيث يقال كل شيء »[1] ، جحيم الجنون ، الكلام المحدد للحياة . الجحيم الذي تغلق في ذاتك حتى لا يمكن السكن فيه .

حيث الشيطان يمكن أن يختبىء في روحك ، وإلا في قارة سوداء في لغز الأنوثة ؟

(1) Robert Anthelm .

Bibliographie

ANDREAS-SALOMÉ L.
1970 *Correspondance avec S. Freud*, Paris, Gallimard.

ANZIEU A., ANZIEU D. et coll.
1987 *Les enveloppes psychiques*, Paris, Dunod.

ANZIEU D.
1980 « Du code et du corps mystiques et de leurs paradoxes », in *Nouvelle Revue de Psychanalyse*, n° 22, Paris, Gallimard.
1987 *L'auto-analyse de Freud et la découverte de la psychanalyse*, Paris, P.U.F., 3e éd. refondue.

BEGOIN F.
mai 1987 « Le féminin et le maternel », in *La mère et le maternel, Les cahiers de l'IPC* (n° 5), publiés par l'Institut des psychologues cliniciens.

BION W.-R.
1965 *Transformations*, trad. fr., Paris, P.U.F., 1982.
1967 *Réflexion faite*, trad. fr., Paris, P.U.F., 1983.
1970 *L'attention et l'interprétation*, trad. fr., Paris, Payot, 1974.
1974 *Entretiens psychanalytiques*, trad. fr., Paris, Gallimard, 1980.

BRAUNSCHWEIG D. et FAIN M.
1975 *La nuit, le jour*, Paris, P.U.F.

BRENMAN E.
1985 « Hysteria », in *International Journal of Psychoanalysis*, 66, n° 4.

CASTORIADIS-AULAGNIER P.
1975 *La Violence de l'interprétation*, Paris, P.U.F.

CHASSEGUET-SMIRGEL J.
1988 *Les deux arbres du jardin*, Paris, Des Femmes.

CHASSEGUET-SMIRGEL J. et coll.
1964 *La sexualité féminine*, Paris, Payot.

COSNIER J.
1987 *Destins de la féminité*, Paris, P.U.F.

DOLTO F.
1964 « La libido génitale et son destin féminin », in *La Psychanalyse*, n° 7, Paris, P.U.F.

FREUD S.
1905 *a* *Cinq psychanalyses* (« Dora » et « L'homme aux loups »), trad. fr., Paris, P.U.F., 1954.
1905 *b* « Les aberrations sexuelles », in *Trois essais sur la sexualité*, Paris, Gallimard, 1987.
1914 « Pour introduire le narcissisme », in *La vie sexuelle*, trad. fr., Paris, P.U.F., 1970.
1915 « Les pulsions et leur destin », trad. fr. in *Métapsychologie*, Paris, Gallimard, 1968.
1920 « Au-delà du principe de plaisir », in *Essais de psychanalyse*, trad. fr., Paris, Payot, 1981.
1924 *Névrose, psychose et perversion*, trad. fr., Paris, P.U.F., 1973.
1926 *Inhibition, symptôme et angoisse*, Paris, P.U.F., 1965.
1931 « Sur la sexualité féminine », in *La vie sexuelle, op. cit.*
1932 « La féminité » in *Nouvelles conférences sur la psychanalyse*, trad. fr., Paris, Gallimard, 1984.

FREUD S. et BREUER J.
1895 *Études sur l'hystérie*, trad. fr., Paris, P.U.F., 1956 et 1981.

GREENACRE Ph.
1953 *Traumatisme, croissance et personnalité*, trad. fr., Paris, P.U.F., 1971.

GRUNBERGER B.
1964 « Jalons pour l'étude du narcissisme dans la sexualité féminine ». in *La sexualité féminine*, Paris, Payot.

HAAG G.
1990 « Le destin préfiguratif de l'enfant. Quel niveau de représentation ? », in *Journal de psychanalyse de l'enfant*, n° 8, Paris, Centurion.

HOFSTADTER D.
1985 *Gödel, Hescher, Bach*, Paris, Interéditions.

IRIGARAY L.
1977 *Ce sexe qui n'en est pas un*, Paris, Minuit.

JONES E.
1916 « The theory of symbolism », in *British Journal of psychologie*, 9.181.

KLEIN M.
1921-1945 *Essais de psychanalyse*, trad. fr., Paris, Payot, 1967.
1957 *Envie et gratitude*, trad. fr., Paris, Gallimard, 1968.

KOHUT H.
1971 *Le Soi*, trad. fr., Paris, P.U.F., 1974.

LANOUZIÈRE J.
1988 *Le sein. Approche psychanalytique, clinique et psychosomatique*, thèse.
1989 « Le sein et la dépressivité féminine », in *Topique*, 43.1., Paris, Dunod.

LAPLANCHE J.
1984 « La pulsion et son objet-source », in *La pulsion, pour quoi faire ?*, publication A.P.F.

MAC DOUGALL J.
1983 « L'œil inquiet », in *Le champ visuel, Nouvelle Revue de Psychanalyse*, n° 35, Paris, Gallimard.

MONTRELAY M.
1977 *L'ombre et le nom. Sur la féminité*, Paris, Minuit.

PONTALIS J.-B.
1977 *Entre le rêve et la douleur*, Paris, Gallimard.

ROSOLATO G.
1978 *La relation d'inconnu*, Paris, Gallimard.
1988 « Hystérie : névrose d'inconnu », in *Topique*, n° 41, Paris, Dunod.

SAMI ALI.
1974 *L'espace imaginaire*, Paris, Gallimard.
1984 *Le visuel et le tactile*, Paris, Dunod.

SEGAL H.
1987 « Note sur la formation des symboles », in *Délire et créativité*, Paris, Des Femmes.

SUSKIND P.
1985 *Le Parfum*, Paris, Fayard.

TUSTIN F.
1986 *Autistics barriers in neurotics patients*. Karnac.

WINNICOTT D.-W.
1958 « La capacité d'être seul » in *De la pédiatrie à la psychanalyse*, trad. fr., Paris, Payot, 1969.
1963 « De la communication et de la non-communication », in *Processus de maturation chez l'enfant*, trad. fr., Paris, Payot, 1970.
1971 *Jeu et réalité*, trad. fr., Paris, Gallimard, 1975.

ZAZZO R.
1989 « La jalousie gémellaire », in *Lieux de l'enfance*, n° 16, Toulouse, Privat.

فهرس